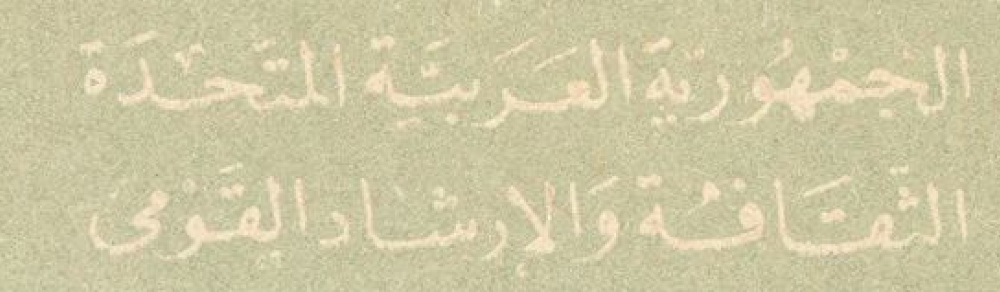




نهر النيل

في المكتبة العربية

تأليف
محمد حمدى المناوى

الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

نهر النيل

في المكتبة العربية

المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والإرشاد القومي

بمزعيها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

"الدار القومية للطباعة والنشر — الدار المصرية للتأليف والترجمة"

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومي



نهر النيل
في المكتبة العربية

تأليف
محمد حمدي المناوي

الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة

١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م

تقـــديم

بقلم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال

مصر هبة النيل ، حكمة خالدة قالها أبو المؤرخين هيرودوت فضمنها أشياء كثيرة يمكن أن تقال وأن تفصل . فمصر بلا نيل كانت تكون جزءاً متمماً للصحراء الممتدة شرقى الوادى وغربيه ، فوجود النيل خلق مصر القطر والموقع الجغرافى ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إليه ، وأقام فى هذه البقعة شعباً .

وهذا الشعب تحكم بدوره فى هذا النهر المبارك الغدوات والروحات ، فنظم مياهه ، وحفر فروعه وترعه وخلجانه ، ووجهها الوجهة التى يرضاها لزراعة أكبر مساحة ممكنة من أراضى هذا الوادى ، وأقام الجسور والقناطر لتنظيم مواصلاته ونقل محصولاته .

ولاحظ المصرى بعد ذلك الصلة الوثيقة بين دورة فيضان النيل ودورة الشمس فنظم فصول زراعاته واقتصادياته على أساس من هاتين الدورتين ، وكشف عن السنة الشمسية وفصولها وشهورها ، وأنشأ لحكومته دواوين منظمة تشرف على شئونها الإدارية والمالية ، والإدارة فى معظمها كانت تعمل على حفظ الأمن والمحافظة على منشآت الرى والزراعة لتهتز الأرض وتربو وتخرج من كل زوج بهيج ، ومالية الدولة فى معظمها كانت تتركز فى الضرائب التى تجمعها الحكومة على ما تخرجه الأرض من خير وثمار .

وانطلق الشعب المصرى بعد استقراره وتنظيم حكومته إلى ميدان البحث العلمى فعرف علوم الهندسة والمساحة والفلك والكيمياء والطب واستخدام هذه العلوم والمعارف فى استغلال خيرات النهر والأرض وإقامة حضارة مزدهرة هى أم الحضارات فى العالم .

وتتابعت على حكم هذا البلد الأمين دول ، ودول ، سارت كلها على نفس النهج واتبعت نفس التقاليد التى أوحى بها النيل ، فكانت كل دولة منها تضيف لبنة جديدة إلى بناء الحضارة المصرية ، وتحمل المشعل الذى كان يرسل إشعاعاته الحضارية إلى كل دول المنطقة المجاورة إلى أن كان الفتح العربى لمصر على يد عمرو بن العاص ، ولم يمض غير قليل حتى نسى المصريون لغتهم ودينهم واعتنقوا العربية لغة والإسلام ديناً ، وأصبحت مصر مركزاً وسطاً للحضارة العربية الإسلامية .

وأدرك المصريون فى عصر عروبتهم أن النيل مصدر الخير والبركة والحياة لهم ولبلدهم الطيب فمنحوه كل اهتمامهم وعنوا عناية كبرى بدراسته ووصفه ، ورصد أوقات فيضانه ، وأقاموا المقاييس لتتبع مقادير زيادته ونقصانه ، واحتفلوا الاحتفالات البهيجة الرائعة بمواسم وفائه ، وأقاموا النظم لربط سنتهم الهجرية بالسنة الشمسية التى تسير فى سمت واحد مع مواعيد فيضان النيل وجمع أموال الخراج .

وألف العرب من مؤرخين وجغرافيين ورحالة الكتب والفصول للتأريخ لنهر النيل، أو لوصف ودراسة فروعه وترعه وخلجانه وجسوره وقنواته وقناطره ومقاييسه .

وكان للنيل أثر آخر رائع على أقلام الأدباء وخيال الشعراء فقالوا الكثير شعراً ونثراً فى وصف جماله وسحره وفضله مما يكوّن حصيلة غنية فى ديوان الأدب العربى .

هذا الإنتاج الضخم ما هو كماً ، وما هى قيمته كيفاً ، وما هى محتوياته ؟ وما قيمة هذه المحتويات من الناحيتين التاريخية والعلمية ؟

الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها كثير ، هى موضوع هذا البحث الذى أعده السيد محمد حمدى المناوى تحت إشرافى منذ سنوات للحصول على درجة الماجستير .

ومحمد حمدى المناوى أعرفه منذ كان طالباً بقسم الليسانس بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية فكان مثال الطالب الجاد المجد ، فقد كان موظفاً وطالباً فى نفس الوقت ، ومع هذا حصل على درجة الليسانس فى سنة ١٩٥٥ بدرجة جيد جداً مع مرتبة الشرف ، ثم حافظ على امتيازه فأجيز بحثه هذا لنيل درجة الماجستير فى إبريل سنة ١٩٦١ بتقدير جيد جداً .

وموضوع البحث «نهر النيل فى المكتبة العربية» ويضم مقدمة وأبواباً خمسة :

ففى المقدمة تحدث المؤلف عن مكانة النيل عند المصريين والقدماء من اليونان والرومان والبيزنطيين حتى الفتح العربى .

أما الباب الأول فجعل المؤلف عنوانه : «النيل فى الكتب العربية» وقسمه إلى فصول ثلاثة :

الفصل الأول وموضوعه «النيل فى الكتب الدينية» وقدم فيه دراسة إحصائية تحليلية لكل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى ورد فيها ذكر النيل .

والفصل الثانى وموضوعه «النيل فى الكتب العلمية» ، وتناول فيه الباحث بالدراسة كل ما ورد عن النيل فى أربع مجموعات من الكتب :

— كتب الجغرافيين العرب ابتداء من الخوارزمى واليعقوبى إلى ابن فضل الله العمرى ثم محمد عوض محمد .

— وكتب المؤرخين ابتداء من ابن عبد الحكم والمسعودى إلى ابن أبى السرور البكرى وعلى مبارك .

— وكتب الرحالة ابتداء من ابن سليم الأسوانى إلى ابن بطوطة .

— وكتب الخراج ونظم الحكم ابتداء من قدامة بن جعفر إلى القلقشندى .

والفصل الثالث وموضوعه «النيل فى كتب الأدب» وقد أورد فى هذا الفصل نماذج لما كتبه الشعراء والأدباء من وصف أو رسائل نثرية تتصل بالنيل وفيضانه ، واتبع هذا وذاك بدراسة تحليلية مقارنة أثبت فيها أهمية هذه المادة كلها لدراسة كثير من الموضوعات المتصلة بنهر النيل كالفيضان وأعياد الوفاء ومقاييس النيل ، وتحويل السنة الهلالية إلى خراجية ، وربط نظام الخراج بوفاء النيل ، وكل هذا واضح وضوحاً تاماً فى وصف أمية بن أبى الصلت لنهر النيل ، وفى رسائل البشرى بوفاء النيل بأقلام كتاب الإنشاء من أمثال ابن قادوس والقاضى الفاضل وابن الصيرفى وغيرهم ، وقد أثبت المؤلف فى هذا الفصل بالبراهين التاريخية أن الخطاب المنسوب إلى عمرو بن العاص فى وصف النيل لا يمكن أن يكون من إنشائه وأنه صنع فى عصر متأخر .

وخصص المؤلف الباب الثانى للكلام عن «جغرافية النيل فى المؤلفات العربية» ولتنظيم دراسته لهذا الموضوع قسم هذا الباب إلى فصول أربعة :

فتحدث فى الفصل الأول عن المنبع

وفى الثانى عن المجرى

وفى الثالث عن المصب وقمة الدلتا وفروع النيل

وفى الرابع عن الخلجان والترع والجسور .

وللباب الثالث فيما أرى ، أهمية خاصة ، فقد قدم فيه المؤلف دراسة مستفيضة لما جاء فى الكتب العربية عن «الفيضان والنظم الاقتصادية» وقسمه المؤلف إلى فصلين : قدم فى الأول منهما بحثاً طيباً عن الفيضان وأسبابه ، وعن أعياد النيل كحفل عروس النيل وليلة الغطاس وعيد الشهيد وأعياد الوفاء .. الخ ، كما قدم فى الفصل الثانى دراسة جديدة ممتعة عن النظم الاقتصادية والزراعية وعن الضرائب والمجاعات والملاحة فى النيل ... الخ .

وفى الباب الرابع دراسة جديدة شاملة للخرائط التى رسمها المؤلفون العرب لنهر النيل ، وقد ألحق بهذا الكتاب صوراً لتسع من هذه الخرائط من رسم : ابن سرابيون ، والشريف الإدريسى ، وابن حوقل ، والاصطخرى ، والمقدسى ، وابن جماعة ، والسيوطى .

أما الباب الخامس والأخير ففيه دراسة تحليلية مقارنة للمخطوطات العربية التى ألفت عن نهر النيل ولم تطبع بعد وعددها تسع مخطوطات لمؤلفين مختلفين مبعثرة فى مختلف مكتبات العالم .

وقد بذل السيد محمد حمدى المناوى جهداً ضخماً فى إعداد بحثه فرجع إلى المصادر الأصلية مخطوطة ومطبوعة ، عربية وأجنبية ، وأظهر مقدرة طيبة فى جمع مادته والتوفيق بينها وعرض هذه المادة عرضاً شائقاً فى أسلوب عربى سليم .

وقد تقدم سيادته ببحثه هذا إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية معلناً عن رغبته فى أن ينشر ضمن كتب المكتبة العربية ، وأحيل الكتاب إلى لجنة التاريخ والآثار فوافقت على نشره وأقر المجلس هذه الموافقة وتفضل أن عهد إلى بكتابة مقدمة للكتاب ، فقبلت التكليف شاكراً إذ يسعدنى أن أقدم للقارىء الكريم شاباً مجداً مجتهداً وكتاباً قيماً كانت المكتبة العربية فى حاجة ماسة إليه .

أرجو للمؤلف مزيداً من التوفيق ، وأرجو للكتاب أن يكون ذا نفع للقارىء العربى ولكل المهتمين بالدراسات المتصلة بنهر النيل .

الإسكندرية فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٥

جمال الدين الشيال



مكانة النيل عند المصريين والقدماء

حتى الفتح العربى

كانت الأقاليم الصحراوية الواقعة جنوب البحر الأبيض — فى العصر المطير أوكما يعرف أيضاً بالحجرى القديم — ملائمة لسكنى الإنسان ، بما كان ينبت فيها من حشائش وأعشاب وأشجار ، وما كان يعيش فيها من حيوان كالوعل والغزلان والأبقار والأغنام ، فاستطاع أن يحيا فيها حياته التى لم تكن تتعدى الالتقاط أو لجمع واقتناص الحيوان بوساطة آلاته الحجرية التى وجد الكثير منها فى الصحراوين الغربية والشرقية .

وبانقضاء العصر المطير تغيرت الأحوال فى الصحراء لحلول الجفاف لقلة المطر أو انعدامه ، ولم تعد صالحة للسكنى ، ومن ثم اتجه الإنسان والحيوان نحو مجارى المياه حيث تتوافر أسباب المعيشة .

وظهرت الحياة فى وادى النيل ، وتكونت على ضفافه مجتمعات تركت جانباً حياة التجوال للحصول على الغذاء ، إلى حياة مستقرة تقوم على الزراعة واستغلال الأرض .

وظهرت مع هذه الحياة الجديدة مشكلات ، وجد الإنسان أن التغلب عليها لايتم إلا بالعمل الجماعى الذى يقوم على مجهود مشترك . وكانت أهم هذه المشكلات هى مواجهة فيضان النهر ورد غائلته ، بإقامة الجسور وإنشاء ربى عالية لبناء القرى عليها حتى تكون بعيدة عن مياه الفيضان .

أما المشكلة الثانية فهى كيفية الانتفاع بهذا الفيضان . فكان لابد من حفر الترع وشق القنوات وإقامة الجسور والسدود وتقسيم الأرض إلى أحواض .

من هنا وجد الإنسان نفسه مضطراً إلى العيش فى مجتمعات تقوم على النظام والطاعة .

ونهر النيل يفيض فى أنسب الأوقات ، وينحسر فى أنسب الأوقات أيضاً . فهو

يأتى فى الصيف والأرض خالية من الزرع محتاجة للماء فيغمرها بمائه المحمل بالطمى ليروى ظمأها ويجدد خصبها ، ثم يتراجع عنها فى أنسب الأوقات للزراعة فتبذر الحبوب وتخضر الأرض وينمو الزرع .

ولما كان للفيضان وقت معين ، وللزراعة مواسمها ومواعيدها وللرى طرقه ونظامه لذلك رتب المصريون حياتهم على هذا الأساس ، فقسموا الأرض وشقوا الترع ونظموا الرى وأنشأوا المقاييس وعملوا توقيتاً مناسباً لمواعيد الزراعة والحصاد واستدعى ذلك قيام فنون كثيرة من هندسة الرى وقياس الأرض١ ٢ . وظهر التقويم الشمسى ٣ .

ولقد أعجب استرابون بنشاط المصريين وبراعتهم فى استغلال النهر فى الزراعة فيقول ٤ : « وإن انصرافهم إلى شئون النهر قد وصل إلى حد أنهم يقهرون الطبيعة بالجد ، وذلك أن الأرض عندهم تنتج بالطبيعة محصولاً أكبر مما تنتج سائر الأراضى ، وهى تنتج أكثر من ذلك إذا ما رويت ، والفيضان العالى للنهر يروى من الأرض مساحة أكبر . ولكن الجد كثيراً ما ينجح حيث تخفق الطبيعة حتى أنه ليروى الأرض فى الفيضان المنخفض مثل ما يروى منها فى الفيضان المرتفع بواسطة الترع والجسور . كما يروى أن مقياس النيل سجل مرة تسعة أذرع فقط ، ومع ذلك لم يشعر أحد بالقحط .

والمجتمعات التى ظهرت أول الأمر — على ضفاف النيل فى مصر — كانت صغيرة يحتل كل منها جزءاً معيناً من الأرض يتعاون أفراده لزراعة هذا الجزء والمحافظة

---

(١) الدكتور سليمان حزين ، البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام ص ٦ مجلة الجمعية الجغرافية المصرية — المجلد العشرون سنة ١٩٤٢ .

(٢) يقول استرابون إن أصغر أقسام الأرض كان الفدان ، وإن اضطراب الحدود المستمر الذى يحدثه النيل أثناء فيضانه هو الذى دعا إلى هذا التقسيم المضبوط وإلى مسح الأرض مرة بعد مرة ، ومن هنا — كما يقول — نشأ علم المساحة ، انظر «استرابون فى مصر» ترجمة دكتور وهيب كامل ص ٤٦ .
(١٧ : ٣) .

(٣) يقول الدكتور نجيب ميخائيل ، « مصر » ص ٢٥ : كانت هناك مسألتان جعلتا المصريين يفكرون فى تأريخ الحوادث ، أولاهما الطبيعة المحيطة بهم وثانيتهما النيل . وقد أنشأوا التقويم الشمسى فى الحقبة الانيوليتية على الأرجح ، وكانت السنة المصرية تتكون من فصول ثلاثة هى الفيضان (أخت) والزرع (برت) والحصاد (شمو) وكل فصل من هذه الفصول ينقسم إلى شهور أربعة أعطيت فى أول الأمر أرقاماً ثم اطلقت عليها منذ العصر الفارسى (حوالى القرن السادس) أسماء هى التى ما زالت باقية فى شهور السنة القبطية . وعدة أيام كل شهر ٣٠ يوماً وأضافوا خمسة أيام هى النسىء

(٤) استرابون فى مصر ص ٤٦-٤٧ .

عليه ، ويحاول فى الوقت نفسه توسيع رقعة أرضه بالاستيلاء على أرض غيره من المجتمعات . وبتوالى الأيام اندمجت هذه المجتمعات مكونة مجتمعات أكبر ، ثم تكونت من هذه المجتمعات كلها دولة متحدة فى عهد الملك مينا . وقد ساعد على قيام هذه الدولة ، أن النيل يربط بين أجزائها ، فكان من أهم العوامل لقيام الوحدة السياسية ، وبدأ العصر التاريخى ، وظهرت الحضارة المصرية التى بقيت عبر الأجيال والقرون ، وإن أصابها الوهن بعض الوقت إلا أنها سرعان ما واصلت سيرها بقوة متجددة ونشاط متوثب .

مما تقدم نرى أن نشأة المجتمع وتطوره وتاريخه فى مصر مرتبط ارتباطاً وثيقا بعوامل البيئة الجغرافية [1] ، التى ترتبط بدورها كل الارتباط بنهر النيل .

ولقد انقسم الذين اهتموا بجغرافية مصر وتاريخها السياسى والاجتماعى إلى فريقين ، فريق يرجع الفضل فيما وصل إليه المصريون إلى البيئة الجغرافية ، فمصر هبة النيل وحضارتها من ثمار البيئة الطبيعية ، ولولا هذا الوطن الصالح ما قامت لمصر حضارة ولا كان للمصريين ذكر فى التاريخ . وفريق يرى أن البيئة لم تكن إلا مسرحاً استخدمه الإنسان واستغله ، والفضل للأشخاص الذين عرفوا كيف يستغلون هذه البيئة .

ويعتبر هيرودت بقوله المشهور « مصر هبة النيل » على رأس الفريق الأول ، أما الفريق الثانى ومعظمه من المؤرخين والاجتماعيين [2] ، فقد عبر الأستاذ محمد شفيق غربال عن رأيهم بقوله [3] : « إنه إذا قبلنا الرأى القائل «مصر هبة النيل» فإنه لاشك أن مصر هى من صنع المصريين ، فالنيل شأنه شأن قوى الطبيعة الأخرى يمكنه أن يخلق كما يمكنه أن يدمر ، والإنسان هو الذى يستطيع تحويل قوى التدمير هذه الى شىء نافع ، وهذا مافعله المصريون . وإن الرواد المصريين الأوائل الذين اندفعوا إلى وادى النهر الملىء بالمستنقعات والأحراش استطاعوا أن يقهروا قوة الطبيعة وسطوتها ، وجعلوا من هذه الأحراش والمستنقعات حقولاً وجداولاً وسدوداً ، وبذلك أمكن للمجتمع أن يبدأ رحلته نحو الكمال » .

---

(١) الدكتور سليمان حزين ، البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام مجلة الجمعية الجغرافية المصرية — المجلد العشرون سنة ١٩٤٢ .

(٢) الدكتور سليمان حزين ؛ البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام مجلة الجمعية الجغرافية المصرية — المجلد العشرون لسنة ١٩٤٢ .

(٣) The Making of Egypt p. 5—6

ويؤكد استرابون هذا المعنى إذ يقول : « إنه بينما أكثر الأثيوبيين [1] يحيون حياة الرحل الخشنة ترى العكس عند المصريين الذين كانوا يحيون منذ البدء حياة مدنية ، وأنهم عرفوا كيف يحسنون استغلال حسن طالع بلادهم وقد أجادوا تقسيمها والعناية بها » .

ولكن هناك فريقاً ثالثاً يرى أننا «نستطيع أن نسلك طريقاً وسطاً ترسمه مبادئ الجغرافيا التاريخية ، تلك التى تمثل فرعاً من الجغرافيا يقع بينها وبين التاريخ ، والتى يدرس أصحابها العلاقة بين الإنسان وبيئته الجغرافية على أنها علاقة تأثير متبادل متطور المظاهر [2] » . ورأى هذا الفريق يتلخص فى أنه لكى تتم الرواية بنجاح لابد من مسرح مستعد وممثلين مهرة . وهذا ماحدث فعلاً فى مصر ، فقد وجدت البيئة الصالحة كما وجد من استطاع استغلال هذه البيئة أحسن استغلال وتوجيهها الوجهة النافعة ، وبذلك نجح المصريون فى وضع أسس حضارتهم ومدنيتهم المادية التى تلاءمت والظروف الطبيعية التى أحاطت بها .

وبذلك يمكن أن نتقبل القولين «مصر هبة النيل » و «مصر هبة المصريين أنفسهم» ، بدون تعارض بينهما . فالبيئة والإنسان قد استطاعا معاً فى تعاون تام أن يخلقا هذا الوطن الذى نعيش فيه .

ومنذ البدء ارتبطت حياة المصريين بالنيل ارتباطاً وثيقاً ، وبلغ من حبهم إياه وإعزازهم له أن قدسوه وألهوه ، وقالوا إنه ينبع من النهر السماوى [3] المحيط بالعالم عند انعطافه ناحية الجنوب ، حيث ينزل فى مسقط مياه عظيم [4] . وأطلقوا عليه اسم «حابى» [5] .

---

(١) «استرابون فى مصر » ص ٤٤ . أما أثيوبيا فهى تعنى عند اليونان الأقدمين كل ما يلى مصر جنوباً وتشمل النوبة والسودان وإيرتريا . انظر الهامش ١ ص ٤١ .

(٢) الدكتور سليمان حزين ، البيئة والموقع الجغرافى وأثرها فى تاريخ مصر العام — مجلة الجمعية الجغرافية المصرية — المجلد العشرون ١٩٤٢ .

(٣) ظهرت خرافة وجود نهر سماوى فى المؤلفات العربية فى عصور متأخرة ابتداء من القرن التاسع . فيذكرون وجود بحر بين السماء الرابعة والأرض لولاه لاحترقت الأرض من حر الشمس .

انظر مخطوط أحمد بن العماد « ذكر بحر النيل وما يتعلق به» (١٣ أ) .

(٤) Dr. John Ball; Egypt in the Classical Geographers p. 2 Omar Tousson; Memcire Sur l'Histoire du Nil p. 29

(٥) Johnston, Harry sir; The Nile Quest p. 7 Ball; Op. Cit p. 3 = Tousson; Op. Cit p. 6.

أما لفظ « نيل » الذى عرف به النهر حتى اليوم ، فقد أطلقه عليه اليونانيون وهو مشتق من الكلمة اليونانية نيلوس ، وعنهم انتقل هذا الاسم إلى مختلف اللغات .

ولكن ديودور الصقلى يرى خلاف ذلك حيث يقول [1] : « إن النهر كان يدعى من قبل أيجيبتوس Aegyptus، ثم أطلق عليه اسم النيل تخليداً لذكرى ملك يدعى نيلوس Nileus اعتلى العرش بعد الملك ريمفيس [2] بزمن قليل . وأن نيلوس هذا قام بحفر الترع والقنوات التى أفادت البلاد كثيراً فأطلقوا اسمه على النهر »

وعندما فتح العرب مصر ظلوا يستعملون لفظ النيل للدلالة على النهر ، ولم ينكروا أصله اليونانى ، [3] وإن أطلقوا عليه أحياناً اسم البحر — كما فعل المصريون القدماء من قبل — كذلك سموه الفيض [4] نسبة لفيضانه السنوى . ولقد ذكر فى القرآن الكريم باسم «اليم» [5]

وبالرغم من أن أول معلومات جغرافية صحيحة عن نهر النيل قد وصلتنا عن طريق الكتاب اليونان والرومان ، إلا أن الدلائل المنطقية تؤكد أن معرفة المصريين القدماء بنهر النيل لاتقل عن معرفة اليونان والرومان . فمعالم الحضارة المصرية القديمة قد وصلت فى تقدمها حتى الشلال الرابع ، ومن هذه المنطقة خرج حكام مصر فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين النوبية [6] .

= ويذكر بول وعمر طوسون أنهم كانوا أيضا يطلقون على النهر اسم «البحر» و «النهر الكبير» كما يذكر جونستون أن المصريين كانوا يطلقون على النهر أحياناً اسم بى يوما Piyuma أى النهر ، وأن اليهود كانوا يطلقون عليه اسم شكهور Shikhor أى الأسود .

كما يرى جونستون أن أصل الكلمة اليونانية نيلوس غير معروف وربما كانت مأخوذة من الكلمة الفارسية نيل nil بمعنى أزرق .

(١) ديودور الصقلى فى مصر ، ترجمة وهيب كامل ص ١١٤ .

(٢) يرى الدكتور وهيب كامل أن ريمفيس هو رمسيس الثالث (١١٩٨–١١٦٦ ق.م).

(٣) ياقوت الحموى ، معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦٢ يقول : «وأما نيل مصر فقال حمزة هو تعريب نيلوس من الرومية .» ولكن عبد اللطيف البغدادى : «الإفادة والاعتبار» ص ٤٥ يرى أنه مشتق من فعل نال . كما جاء فى تاج العروس واللسان للنيل معان كثيرة منها : النيل والنائل ما نلته أى أصبته ، والنيل بالكسر نهر مصر وكذلك يعنى السحاب . والنيل قرية بالكوفة ، وقرية أخرى على مرحلتين من يزد — والنيل نبات العظلم (النيلة) .

(٤) الزمخشرى ، الجبال والأمكنة والمياه ص ٨٤ .

(٥) سورة طه آية ٣٩ — سورة القصص آية ٧

(٦) الدكتور سليمان حزين ، البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام مجلة الجمعية الجغرافية المصرية — المجلد العشرون ١٩٤٢ .

نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩ وما بعدها .

كما أن هيرودت عند ما زار مصر فيما بين سنتي ٤٤٨—٤٤٥ ق.م ، لم يتعد فى رحلته الفنتين ، ولكنه وصف مجرى النيل جنوب الفنتين إلى منطقة التقائه بالنيل الأزرق معتمداً فى ذلك على المصريين وخاصة كهنة منف [١] .

بل إن البعض [٢] يرى أن المصريين منذ العصر التاريخى الأول — وصلوا إلى منطقة بحر الغزال ، كما يحتمل أنهم توغلوا غرباً إلى بحيرة تشاد وحتى إلى نهر النيجر . وأن منطقة السدود قد منعتهم من الوصول إلى البحيرات الاستوائية . وأنهم كانوا على علم تام بمجرى النيل حتى الخرطوم ، وبمجرى النيل الأزرق حتى منابعه من بحيرة تانا .

ومن الكتاب اليونان والرومان الذين وصلتنا معلوماتهم عن النيل ، الجغرافيان اليونانيان تاليس Thales of Miletus وهيكاتيوس [٣] Hecataeus وقد عاشا فى القرن السادس قبل الميلاد ، ومنهم أيضاً هيرودوت الملقب بأبى التاريخ وهو من القرن الخامس قبل الميلاد ، وأرسطو Aristotle من رجال القرن الرابع قبل الميلاد ، وايراتوستين Eratosthenes من كتاب القرن الثالث ٢٧٥—١٩٤ ق.م ، وديودور الصقلى (٩٥—٣٥) ق.م تقريباً ، واسترابون من (٦٤ ق.م الى ١٩ ميلادية) ، والجغرافى الرومانى بومبونيوس ميلا Pomponius Mela من القرن الأول الميلادى ، والجغرافى الرومانى بلينوس الكبير Piliny ٢٣—٧٩ ق.م ، وأخيراً الجغرافى والفلكى السكندرى الشهير كلوديوس بطليموس Claudius Ptolemaeus (٩٠—١٦٨م)— والذى يعرف بين الكتاب العرب باسم القلوذى وبصاحب المجسطى .

ومعلومات هؤلاء الكتاب — فيما عدا بطليموس — عن منبع النيل ضئيلة ، فهيكاتيوس كان يعتقد أن النيل متصل فى الجنوب بالاقيانوس المحيط بالعالم ، وهو فى ذلك متأثر بآراء الكهنة المصريين الذين قابلهم [٤] .

ويذكر هيرودوت قصة أوأسطورة ينسبها إلى كاتب بمدينة سايس (صا الحجر) ملخصها أنه يوجد بين أسوان والفنتين تلان يسميان كروفى وموفى ، وبينهما بحيرة عميقة

---

(١) « هيرودوت فى مصر » — وهيب كامل ص ١٥ .
(٢) Johnston ; o.p. cit. p. 4—6
(٣) ولد هيكاتيوس عام ٥٤٩ ق.م. انظر : دكتور نجيب ميخائيل «مصر» ص ٢٤ .
(٤) Ball ; op. cit p. 9

يخرج منها النيل متجهاً إلى الشمال ، كما ينحدر منها نهر آخر يتجه إلى الحبشة جنوباً [1] .

وبعد هيرودوت بمائة عام أعلن أرسطو حوالى سنة ٣٥٠ ق . م ، أن النيل ينبع من جبل الفضة [2] .

وأشار أبراتوستين إشارة عابرة إلى أن النيل ينبع من بحيرات فى الجنوب [3] .

أما ديودور الصقلى فيذكر أن منابع النيل تقع فى أقاصى الحبشة ، فى منطقة شديدة الحرارة لا يمكن أن تطأها قدمان [4] . وهو قول ردده بعض الكتاب العرب فيما بعد وسنفصله فى حينه .

وروى بلينوس الكبير [5] قصة أخرى عن منابع النيل سيكون لها أثرها عند بعض الكتاب العرب ، وتنسب هذه القصة إلى الملك جوبا الثانى King Juba II (توفى سنة ٢٣ ق . م) ملك نوميديا وموريتانيا فى زمن الإمبراطور أغسطس . وتقول القصة « إن النيل يخرج من جبل فى غرب موريتانيا قرب المحيط ، حيث توجد بحيرة تعرف باسم نيليدس Nilides بها تماسيح وأسماك تشبه ما يوجد منها بمصر [10] [5] » .

ولكن المعلومات التى يمكن اعتبارها قريبة إلى الصحة بوجه عام ، هى التى ذكرها بطليموس ، فيروى أن النيل يتكون نتيجة ذوبان الثلوج على قمم جبال عالية تعرف باسم جبال القمر تقع على بعد ٣٠َ – ١٢° جنوب خط الاستواء وتنحدر منها الأنهار

---

(١) يعتقد الدكتور نويل همفريس ، أن لهذه الأسطورة ظلا من الحقيقة ، وأنه اكتشف فى جبال رويترورى بين قمتى جيس وأمين بحيرة تطابق الوصف الذى ذكره هيرودوت ، كما يعتقد أن العرب السبئيين الذين جابوا إفريقيا حتى منطقة البحيرات هم الذين جاءوا بهذه المعلومات .

انظر : Humphreys N.; Ruwenzori Flights and Further Explorations. p. 511

(٢) Humphreys No.; op. cit p. 511

كما يذكر همفريس أن دوق أبروزى Duke of the Abruzzi يعتبر أن هذه أول معلومات تشير إلى جبال رويترورى ، وأن أرسطو وبطليموس – الذى يذكر جبال القمر – يعنيان فى الحقيقة نفس الجبال ، وأن العرب يجعلون علاقة لغوية بين بريق الفضة والقمر .

(٣) Ball ; op. cit. p. 43.

(٤) ديودور الصقلى فى مصر ص ٦٤ .

(٥) Ball ; Op Cit p. 72

إلى بحيرتين ناحية الشمال ، كما يذكر منابع النيل الأزرق من بحيرة تسمى كولى Coele تقع إلى جنوب شرق خط الاستواء [١] .

وكان هؤلاء الكتاب على علم بمجرى النيل حتى منطقة التقائه بنهر العطبرة الذى كانوا يطلقون عليه اسم Astaboras ، والنيل الأزرق ويعرفونه باسم Astapus [٢] ، كما كانوا يطلقون على المنطقة الواقعة بين هذين النهرين اسم جزيرة مروى Meroé كما أطلقوه على مدينة هناك [٣] . ويقول ديودور الصقلى [٤] واسترابون [٥] إن قمبيز هو الذى أنشأ هذه المدينة وأطلق عليها وعلى الجزيرة اسم مروى تخليداً لذكرى أمه أو زوجته .

كما كانوا يعرفون تماماً انحناءة النيل الكبرى ، ويصفها ايراتوستين بأنها على شكل حرف N مقلوباً [٦] .

ويذكر هيرودوت [٧] أن الجزء الواقع شمال منف كان فيما مضى خليجاً من البحر ، كما يذكر سبعة فروع للنهر تصب فى البحر ، وشاركه فى ذكرها أغلب الكتاب وإن اختلفوا فى أسمائها وفى من هو الأهم منها .

أما عن الفيضان وسببه ، فالكتاب اليونان والرومان — منذ القرن الثالث قبل الميلاد — قد عرفوا أن النيل يفيض نتيجة الأمطار التى تسقط صيفاً على جبال الحبشة . وإن كان علينا أن نشير إلى رأى ذكره تاليس ، سيكون له صداه عند بعض الكتاب العرب ، ويتلخص هذا الرأى فى أن فيضان النيل سببه هبوب رياح شمالية فى فصل الصيف تقف أمام ماء النهر كحاجز يمنعها من الانصباب فى البحر ، فيزيد ماؤه [٨] .

---

(١) Ball ; Op. Cit 100

ويقول الدكتور جونستون إن هذه المعلومات التى نقلها بطليموس عن مارينوس الصورى جاء بها الأخير عن تاجر يونانى يدعى ديوجين Diogenes نزل بساحل إفريقيا سنة ٥٠ م ، وأنه من المحتمل أن هذه المعلومات استقاها من العرب المقيمين هناك .

انظر : Johnston ; Op. Cit 22

(٢) Ball ; op. cit p. 43 — 71 — 100

(٣) هى أرض الجزيرة بين النيل والعطبرة — كما أن مدينة مروى مكانها كان بالقرب من شندى الحالية .

ديودور الصقلى فى مصر حاشية صفحتى ٤٢ — ٤٣ .

(٤) ، (٥) ديودور الصقلى فى مصر ص ٦٥ — استرابون فى مصر ص ٥١ : ٥

(٦) «استرابون فى مصر» ص ٤٢ ١٧ : ٢

(٧) «هيرودوت فى مصر» ص ٢٩ .

(٨) Ball ; Op, Cit, p. 8

ولقد قامت محاولات كثيرة فى أوقات مختلفة لتتبع مجرى النيل والكشف عن منابعه [1] ولكن عندما ضعفت الإمبراطورية الرومانية قلت العناية بالكشف الجغرافى خصوصاً بعد ما صارت مصر جزءاً من الامبراطورية البيزنطية ، إذ أن الخلافات الدينية شغلت الناس عن الاهتمام بأى أمر آخر . [2] .

ولكن فى ذلك الوقت ، ظهرت فكرة عن منبع النيل ، ترتبط بمعتقدات يهودية ومسيحية ، تقول بأن النيل ينبع من الجنة ، التى كانت حسب معتقدات العصور الوسطى « تقع فى أقصى الشرق على الجانب الآخر للبحر ، وأنه بعد ذلك يعبر البحر ويأتى إلى مصر » [3] .

ولقد ظلت هذه الفكرة مسيطرة على الأذهان حتى أن خرائط الجغرافيين الأوروبيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى كانت ترسم عليها جنة أرضية The Earthly Paradise يخرج منها وافد للنيل يسمى جيون Gion [4] .

وفتح العرب مصر ، وصار النيل أكبر نهر فى أخصب أرض فى الدولة الإسلامية ، وبدت أهمية النيل لهم منذ البدء ، فأعيد حفر القناة التى تربط النيل بالبحر الأحمر ، حيث ساعدت على نقل المؤن للحجاز .

ولقد أثر النيل فى مجرى الحياة الثقافية والسياسية فى العالم الإسلامى ، وساهمت وديانه ودلتاه إلى حد كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية ، بكونها مراكز ثقافية . وعلى ذلك يمكن القول بأن النيل فى العهد الإسلامى ظل يلعب نفس الدور الذى قام به خلال القرون السابقة على ظهور الإسلام [5] .

وكما شغل النيل أذهان الأمم السابقة ، فإنه شغل أذهان العرب بنفس القوة ، بطوله العظيم وفيضانه الرتيب وخيره العميم ، ومنبعه المجهول ، ومجيئه من الجنوب إلى الشمال مخالفاً فى ذلك — فى رأيهم — لجميع الأودية التى عليها طبع العالم .

وكما عبدالمصريون القدماء النيل وألهوه ، فإن العرب احترمته وأشادت بفضله ولقبته بسيد الأنهار ، وأن الله سخر له كل نهر بين المشرق والمغرب .

---

(١) سنذكر بالتفصيل هذه المحاولات فى الفصل الخاص بالمنبع .

(٢) Johnston ; op. cit p. 37

(٣) E.I. art al Nil.

Tousson ; op. cit. T.I. p. 29

(٤) Crawford, o.G. ; Some Medieval Theories about the Nile p. 27

(٥) E.I. op. cit.

أما المعلومات الجغرافية التى ذكرها الكتاب العرب عن النيل ، فقد استقوها من مصادر ثلاثة :

المصدر الأول : المعلومات الجغرافية التى وصلتهم عن الجغرافيين السابقين على الإسلام وخصوصاً بطليموس .

المصدر الثانى : المعتقدات والأساطير المحلية التى ترتبط بمعتقدات مصرية قديمة ويهودية ومسيحية .

المصدر الثالث : الملاحظة والمشاهدة ، نتيجة لرحلات قام بها العرب أنفسهم .

وسنرى أثر هذه المصادر الثلاثة فى تطور الفكر الجغرافى العربى بالنسبة لنهر النيل ، وذلك فى الفصول التالية .

الباب الأول

النيل
في المكتبة العربية

- النيل فى الكتب الدينية
- النيل فى الكتب العلمية
- النيل فى كتب الأدب

الفصل الأول

النيل فى الكتب الدينية

قبل أن نعرض لذكر الكتاب العرب الذين اهتموا بدراسة نهر النيل ، نرى إتماماً للفائدة واستيفاء للبحث أن نبين المواضع التى ذكر فيها النيل فى القرآن وفى كتب السنة . كما نوضح علاقة النيل بالمعتقدات الدينية قبل الإسلام .

اعتبر كثير من الأنهار عند أصحاب الديانات القديمة أماكن مقدسة كما اعتبر الحج إليها شعيرة من شعائر هذه الأديان ، ولازال نهر الجانج من الأماكن التى يحج إليها الهندوس حتى الآن .

ونهر النيل هو أول نهر نال هذه القداسة ، فقد ألهه المصريون القدماء ومجدوه فى أكثر من نشيد . بل إن اليونانيين أنفسهم أولوه الاحترام العظيم وأطلق عليه الشاعر اليونانى الشهير هو ميروس « النهر الصادر عن الله » [١] .

ولعل العاطفة القوية التى كان المصريون يحسونها نحو النيل ، هى التى جعلت كثيراً من الكتاب العرب وفى مقدمتهم ابن عبد الحكم يذكرون أن المصريين كانوا يلقون فى النيل كل عام فتاة جميلة فى أتم زينة وأحسن لباس جلباً لرضاه ، وأن عمرو بن العاص منع هذه العادة المرزولة [٢] .

وظل القبط بعد الفتح العربى يحتفلون فى عيد الشهيد فى الثامن من بشنس بإلقاء تابوت من خشب فيه إصبع أحد أسلافهم من القديسين فى النيل جلباً لزيادته وفيضانه . وظل هذا العيد يحتفل به إلى أن أبطل (عام ٧٥٥ هـ — ١٣٥٤ م) [٣] .

وهناك فكرة عن منبع النيل ترتبط بمعتقدات أخرى يهودية ومسيحية [٤] تقول : إن النيل ينبع من الجنة ، وحسب معتقدات العصور الوسطى كانت هناك جنة أرضية

---

(١) استرابون فى مصر ص ٥٣ .

(٢) سنعرض لهذه القصة بالتفصيل فى الفصل الأول من الباب الثالث .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٨ .

(٤) E. I. art. « al Nil »

The Earthy paradise تقع فى أقصى الشرق من آسيا ، وإن كان البعض يرى أنها كانت توجد فى مكان ما بإفريقيا وعلى التحديد فى الحبشة ، وخرائط القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت تظهر هذه الجنة فى الحبشة ويخرج منها أحد روافد النيل ويسمى جيون Gion [1] .

وأورد بعض الكتاب العرب [2] ما يفيد بأن النيل قد ذكر فى التوراة فقد رووا أن معاوية بن أبى سفيان سأل كعب الأحبار : « هل تجد لنيل مصر ذكراً فى كتاب الله عز وجل — يعنى التوراة — . قال : « أى والذى فلق البحر لموسى إنى لأجده فى كتاب الله، إن الله يوحى إليه عند ابتدائه : أن الله يأمرك أن تجرى على كذا ، فاجر على اسم الله . ثم يوحى إليه عند انتهائه أن الله يأمرك أن ترجع فارجع راشداً . »

وبالرجوع إلى الكتاب المقدس ، وجدت أن النيل قد ذكر فى العهد القديم ، ولكن كان يرمز إليه « بالنهر » وحسب [3] .

أما فى القرآن الكريم فقد ذكر النيل أكثر من مرة ، أحياناً تصريحاً وأخرى تلميحاً ، كما أن هناك آيات يرى المفسرون أنها تشير إلى النيل . فنى أكثر من آية ذكر النيل باسم « اليم » ، كما جاء فى قوله تعالى : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له » [4] .

وقوله جل شأنه : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى » [5] .

ولكن إلى جانب هذه الآيات التى ذكر فيها النيل باسم اليم ، جاء فى آيات أخرى كلمة « اليم » ترمز إلى البحر الملح ، كقوله تعالى : « فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » [6] .

---

(١) Crawford ; op. cit p.p. 26—27

(٢) المقريزى ؛ جـ ١ ص ٥٠ وغيره . ويذكر المقريزى أيضاً (وفى التوراة «وخلق فردوساً فى عدن وجعل الإنسان فيه وأخرج منه نهران فقسمهما أربعة أجزاء جيحون المحيط بأرض حويلا (كذا) وسيحون المحيط بأرض كوش وهو نيل مصر ودجلة الآخذ الى العراق والفرات ») .

(٣) سفر التكوين اصحاح ٤١ . وسفر الخروج الإصحاحات الثانى والرابع والسادس والثامن .

(٤) طه ٣٩

(٥) القصص ٧ .

(٦) الأعراف ١٣٦ .

وفى آية أخرى : « فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم » [1] :

وقوله تعالى على لسان موسى للسامرى : « لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً » [2] .

وفى سورة الذاريات عن فرعون : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم » [3]

وقوله جل شأنه : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » [4] .

ولكلمة اليم معان كثيرة [5] ومن الممكن إطلاقها على أى نهر آخر ، ولكنها أصبحت وقفاً على النيل لأن القرآن الكريم . أطلقها عليه .

وفى آية أخرى لم يذكر النيل صراحة ، ولكن من الواضح أنها تعنى النيل ، وذلك فى قوله تعالى حكاية عن فرعون : « يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » [6] . فالمراد بالأنهار هنا النيل وفروعه .

وذكر بعض المفسرين أن يوم وفاء النيل هو اليوم الذى وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع [7] ، إذ يقول تعالى إخباراً عن فرعون : « قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » [8] .

كما أن هناك بعض الآيات ، يرى المفسرون والكتاب العرب أن المقصود بها النيل . فيقول ابن عباس فى قوله تعالى : « وأسقيناكم ماء فراتا » هى أربعة أنهار سيحان وجيحان والفرات والنيل الذى بمصر [9] .

وفى قوله تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » [10] . قال الليث بن سعد هى مصر بارك فيها بالنيل [11] .

---

(١) طـه ٧٨ .

(٢) طـه ٩٧ .

(٣) الذاريات ٤٠ .

(٤) القصص ٤٠ .

(٥) انظر لسان العرب وتاج العروس . ويرى السيوطى فى مخطوطه كوكب الروضة دار الكتب ص ٤٨ أن اليم لغة سريانية .

(٦) الزخرف ٥١ .

(٧) النويرى ، نهاية الأرب جـ١ ص ٣٦٤ – المقريزى الخطط جـ١ ص ٦١ .

(٨) طـه ٥٩ .

(٩) ابن الفقيه ، مختصر البلدان ص ٩٥ .

(١٠) الأعراف ١٣٧ .

(١١) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ١ ص ٣ .

ويقول السيوطى [1] : إن المقصود بقوله تعالى : « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز » هى مصر ، ويكون المقصود بالماء النيل .

ويقول السيوطى أيضاً [2] : « أخرج الخطيب فى تاريخه وابن مردويه فى تفسيره ، والضياء المقدس فى صفة الجنة عن ابن عباس مرفوعاً : أنزل الله تعالى من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل . أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل واستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس ، فذلك قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون [3] » .

أما الأحاديث النبوية فنلاحظ أن هناك حشداً كبيراً من هذه الأحاديث المنسوبة للرسول خاصة بنهر النيل .

فقد أورد البخارى فى صحيحه حديثين متشابهين ، أحدهما [4] ضمن حديث النبى عن الإسراء والمعراج قال : « ورفعت إلى سدرة المنتهى (أى كشف لى عنها) فإذا نبقها كأنه قلال هجر وورقها كأنه آذان الفيول . فى أصلها أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران ، فسألت جبريل فقال أما الباطنان : ففى الجنة ، وأما الظاهران النيل والفرات » .

والحديث الآخر عن أنس بن مالك [5] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رفعت إلى السدرة فإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان فأما الظاهران فهما النيل والفرات ، وأما الباطنان فنهران فى الجنة » .

وفى صحيح مسلم [6] حديث ينتهى بسنده إلى أبى هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » .

إلى غير ذلك من الأحاديث التى لم ترد فى كتب الحديث المعتمدة فيروى ابن الفقيه : [7] قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تغور المياه كلها وترجع إلى أماكنها إلا نهر الأردن ونيل مصر والحجرات وعرفات » .

---

(١) المرجع السابق ص ٣ .
(٢) المرجع السابق جـ٢ ص ١٨٠ .
(٣) المؤمنون ١٨ .
(٤) الكتاب ٥٩ فى «بدء الخلق» باب ٦ .
(٥) الكتاب ٥٧ «فى الأشربة» باب ١٢ .
(٦) كتاب ٥١ حديث ٢٦ .
(٧) مختصر البلدان ص ٦٤ .

وعن ابن الفقيه أيضاً [1] : وفى الخبر « الفرات والنيل مؤمنان ودجلة وبرهوت [2] كافران ».

وأورد المقريزى [3] : « وقال ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث : « وفى حديثه عليه السلام « نهران مؤمنان ونهران كافران . فأما المؤمنان فالنيل والفرات ، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ » . وإنما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤنه . وجعل دجلة ونهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان إلا شيئاً قليلاً ، وذلك القليل بتعب ومؤنة ، فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين ، وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين .

وأورد ابن مماتى فى قوانين الدواوين [4] والأقفهسى [5] فى مخطوطه عن النيل ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى نيل مصر خير أنهارى أسكن عليه خيرتى من عبادى فمن أرادهم بسوء كنت لهم من ورائهم » .

وجاء فى بعض المؤلفات العربية [6] : قال صلى الله عليه وسلم : « إن النيل يخرج من الجنة ولو التمستم فيه حين يخرج لوجدتم من ورقها » .

وقيل [7] ، وعنه عليه السلام فى خبر طويل فى فتح مصر والحض على انتجاعها : قال الله عز وجل : « خصصت خزائنى بسيد الأنهار : النيل « وهو عسل » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نيل مصر سيد الأنهار » .

ويقول السيوطى [8] : وأخرج الديلمى فى سند الفردوس وأورده القرطبى فى التذكرة من حديث حذيفة مرفوعاً : « يبدو الخراب فى أطراف البلاد حتى تخرب مصر ،

---

(١) مختصر البلدان ص ١٧٤ .

(٢) جاء فى معجم البلدان لياقوت عن برهوت : قيل واد باليمن وقيل بئر بحضر موت تلقى فيه أرواح الكفرة .

(٣) الخطط جـ١ ص ٥٠ .

(٤) ص ٧٥ .

(٥) «نيل مصر وأهرامها» ص ٣٥ .

(٦) ابن الوردى ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ١٤٢ — القرمانى الدمشقى ، أخبار الدول وآثار الأول ص ٤١٥ .

(٧) ابن مماتى ص ٧٥ — الأقفهسى ص ٣٥ .
(قوانين الدواوين) (نيل مصر وأهرامها)

(٨) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦ .

ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة وخراب البصرة من العراق وخراب مصر من جفاف النيل » .

فإذا نظرنا إلى هذه الكثرة من الأحاديث المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، نشعر لأول وهلة بالتردد فى قبولها ونسبتها إليه صلوات الله عليه . ونرى أنه إن كان الكتاب العرب قد قبلوها على علاتها إلا أن بعضهم لم يقبلها بسهولة ، فالأقفهسى [1] عند ذكره الحديث القائل بخروج النيل من سدرة المنتهى يقول : « قال القاضى عياض ، هذا الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى فى الأرض لخروج النيل والفرات من أصلها » . فهو وإن لم يكذب الحديث إلا أنه حاول أن يجعله متمشياً مع العقل .

كما أن الدمشقى [2] شيخ الربوة يقول : « بخصوص الأنهار الأربعة الشاهدة لها الآثار أنها من أنهار الجنة ، إذ الجنة البستان الساتر أهله وساكنيه بالتفاف شجره وحجبهم فى ظلها الظليل ، لا يمتنع أن يكون فى الأرض لله تعالى جنات كما الجنات العاليات فى السموات ينعم الله تعالى فيهن من يشاء من عباده ، وهذه الأنهار الأربعة تجرى من جهتهن أو فيهن » . فهو بذلك يرى أنه إذا كانت هذه الأحاديث صحيحة يكون خروج الأنهار الأربعة وهى سيحان وجيحان والفرات والنيل من جنة أرضية لا سماوية . وكأنه بذلك يرى ما كان يراه الآخرون بوجود جنة أرضية .

وأنه يمكننا القول — دون أن نخشى الزلل — أن هذه الأحاديث موضوعة خصوصاً وأن كثيراً من الأحاديث المنسوبة للرسول قد زيفت لسبب أو لآخر . فبعض طلاب المنافع وأصحاب الميول السياسية قد استغلوا الأحاديث النبوية لتأييد وجهة نظرهم فاصطنعوا بعض الأحاديث التى تحقق أغراضهم . كذلك الإسرائيليات التى دخلت فى الحديث نتيجة تظاهر بعض اليهود بالإسلام .

وبالإضافة إلى هذا فإن تدوين الحديث لم يقع إلا فى القرن الثانى الهجرى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بأكثر من مائة عام ، ولم يأخذ صورته النهائية إلا فى أوائل القرن الرابع . ولا شك أن انقضاء هذا الوقت الطويل بين وفاة الرسول وبداية جمع الحديث له أثر كبير فى ظهور كثير من الأحاديث المزيفة . خاصة وأن هذه الفترة بالذات هى الفترة التى تعرضت فيها الدولة الإسلامية لأعنف الهزات السياسية والمذهبية وكثرة الفتن والاضطرابات .

---

(١) نيل مصر وأهرامها — ص ٣٠ .
(٢) نخبة الدهر ص ٨٨ .

ويمكننا أن نضيف سبباً آخر قد يكون أقرب هذه الأسباب إلى الحقيقة ألا وهو النعرة القومية التى دفعت كثيراً من الأقطار المفتوحة والتى صارت جزءاً من العالم الإسلامى أن تنسب لنفسها مجداً تبز به غيرها من البلدان ، وتحاول ذلك داخل الإطار الإسلامى ، لأن الإسلام قضى على كل نعرة جاهلية . وهذا يفسر كثرة الأحاديث التى وضعت للافتخار بالأقاليم والمدن والأنهار الخ .

ولذلك نجد أنه إلى جانب هذه الأحاديث المنسوبة للرسول ظهرت بعض الروايات التى أخذ بها الكتاب العرب على أنها حقيقة مسلم بها والتى تدل على ما للنيل من مكانة سامية فى نفوسهم . فيذكر ابن عبد الحكم وغيره ممن نقلوا عنه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص « نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فأمدته الأنهار بمائها وفجر الله له الأرض عيوناً ، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره »(١) .

وعن كعب الأحبار أنه كان يقول « أربعة أنهار من الجنة وصفها الله فى الدنيا ، فالنيل نهر العسل فى الجنة والفرات نهر الخمر فى الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن فى الجنة » ١ .

كما ذكر البعض أن هذه الأنهار الأربعة منبعها « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فنهر الماء يجرى من « ميم » بسم ، ونهر اللبن يجرى من « هاء » الجلالة ونهر الخمر يجرى من « م » الرحمن ، ونهر العسل يجرى من « م » الرحيم . ٢

---

(١) ابن عبد الحكم « فتوح مصر وأخبارها » ص ١٤٩ .

(٢) مخطوط « القول المفيد فى النيل السعيد » للأقفهسى — مكتبة بلدية الإسكندرية — هامش ص ١١ .

الفصل الثانى

النيل فى الكتب العلمية

عملت الظروف التى أحاطت بالعرب قبل وبعد الإسلام على دفعهم إلى الاهتمام — بالجغرافيا كعلم له أثره فى حياتهم . فالجزيرة العربية المترامية الأطراف بطبيعتها الصحراوية أشبه ببحر خضم تناثرت فيه المدن والمراكز العمرانية كالموانى التى كان لابد لاتصال بعضها بالبعض الآخر من دراية تامة بأقرب المسالك التى تربطها ومعرفة للجهات الأصلية .

والعرب فى معظمهم كانوا يشتغلون بالتجارة وتجارتهم تقوم على التبادل مع البلدان الأخرى ، فرحلتا الشتاء والصيف إلى الجنوب والشمال كانتا تحتاجان إلى عناية وخبرة فى معرفة طرق سير القوافل وطبيعة الأرض التى تجتازها .

وكانت هذه المعرفة وتلك الخبرة من أكبر العوامل التى ساعدت الجيوش الإسلامية فى فتوحاتها فيما بعد ، إذ وجد المسلمون طريق الفتح ممهداً بفضل معرفتهم بالبلاد التى فتحوها نتيجة للرحلات التى كانوا يقومون بها قبل الإسلام .

ولما اتسعت الدولة الإسلامية وامتدت أطرافها من الهند إلى بحر الظلمات ، ومن بحر قزوين شمالاً حتى آخر المناطق المأنوسة جنوباً ، اقتضى ذلك تنظيم المسالك والبرد وتعرف طرق الملاحة .

وإذا كانت الرحلات قد ساعدت على التوسع الإسلامى ، فإن الفتوحات الإسلامية بدورها شجعت المسلمين على القيام بالرحلات فى أرجاء إمبراطوريتهم الواسعة للتعرف على بلادهم الجديدة مما ساعد على توسيع المعارف الجغرافية ، وكان للحج كذلك أثر كبير فى تشجيع هذه الرحلات وتحمل مشاق السفر من أطراف الدولة المترامية إلى بيت الله [1] .

ولم يكتف المسلمون بالتعرف على بلادهم ، بل قاموا برحلات أخرى بعيدة إلى بلاد غير إسلامية إما بقصد التعرف عليها كما فعل المسعودى وابن بطوطة وغيرهما أو للتجارة

---

(١) انظر : الدكتور حسين فوزى « حديث السندباد القديم » ص ٢٠-٢١ .

ولعل قصة أسفار سليمان التاجر السيرافى [1] التى كتبت عام ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) تعتبر أول ما كتب فى العربية فى وصف الصين وشواطىء الهند . ثم اقتضت الظروف المحيطة بالدولة الخلفاء إلى إرسال سفارات إلى جيرانهم ، ولعل سفارة أحمد بن فضلان بن حماد الذى أرسله المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٨ هـ (٩٢١ م) إلى ملك البلغار على نهر الفولجا ، قد أعطتنا أول معلومات موثوق بها عن الأجزاء الجنوبية من روسيا .

إلى جانب هذه الجغرافيا الوصفية العملية التى قامت على الدراسة المباشرة ، كانت هناك معلومات جغرافية أخرى أخذها العرب عن الأمم السابقة ، فقد وقع فى أيدى العرب كنوز من المعرفة الهائلة التى كانت تحفل بها خزائن البلاد المفتوحة والتى ضمت أشتاتاً من مختلف الثقافات الفارسية واليونانية والهندية . فلما استتب الأمر للدولة العباسية بدأ العرب فى توجيه عنايتهم إلى تلك الكنوز العقلية يغترفون منها ويشجعون على نقلها للعربية .

وكانت الجغرافيا أحد فروع هذه الثقافة التى عربت ، وكان من أهم مظانها التى أخذوا عنها المؤلفات اليونانية ، وخاصة جغرافية بطليموس التى نقلت إما عن اليونانية مباشرة أو عن الترجمات السريانية . وأصبح بطليموس من الأسماء اللامعة التى أذاعها العرب ، وظلت نظرياته سائدة بفضلهم قرابة أربعة عشر قرناً بل وانتقلت إلى أوربة عن طريقهم .

وبفضل المعلومات التى عرفوها بالمشاهدة والمعلومات التى استقوها من المؤلفات السابقة ، برع العرب فى علم الجغرافيا وازدهرت المدرسة الجغرافية عندهم ، واشتهر جغرافيون مسلمون أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات ، ونشطوا فى التأليف الجغرافى سواء فى المسالك والممالك أو الجغرافيا الوصفية والطبيعية والاقتصادية وغيرها .

ولما كان نهر النيل من أهم المعالم والظواهر الجغرافية ، لا فى العالم الإسلامى وحده بل فى العالم كله ، لذلك نجده وقد احتل مكان الصدارة فى كثير من المؤلفات العربية سواء منها الجغرافية أو التاريخية أو كتب الرحلات أو الكتب التى أرخت لنظم الحكم والخراج .

وقد عنيت هذه المؤلفات بجغرافية النيل من جميع النواحى ، فوصفت حوضه من منبعه إلى مصبه وما يسكن على طول مجراه من شعوب مختلفة وعلاقة هذه الشعوب بمصر كما عنيت بالحديث عن الفيضان ووقته وأسبابه . ثم تناولت بإسهاب مجرى النيل فى مصر وفروعه وأثره فى اقتصاديات مصر ونظمها الزراعية وخراجها والمقاييس التى

---

(١) فيليب حتى وآخرون « تاريخ العرب » جـ٢ ص ٤٦٧ .

أنشئت لمراقبة زيادته ونقصانه ، وما عمل من خلجان وترع وجسور لضمان الاستفادة من مائه والاحتفالات التى كانت تقام له ، بل وإنهم لم يغفلوا الناحية الأدبية والدينية التى لها علاقة بالنيل .

وقد استمد العرب كثيراً من معلوماتهم عن منبع النيل ومجراه الأعلى من المؤلفات اليونانية وخاصة جغرافية بطليموس . وليس فى ذلك ما يقلل من شأن الكتاب العرب فالمعروف أن رواية بطليموس عن خروج النيل من جبل القمر ظلت هى السائدة حتى النصف الثانى للقرن التاسع عشر واكتشاف المنابع الحقيقية للنيل .

أما عن المجرى فإنهم وإن استفادوا من المعلومات السابقة إلا أنهم قد نادوا بنظريات جديدة مثل ربط النيل بأنهار أخرى هى نيل السودان — النيجر — ونيل مقدشو ونهر السند ، وهذه النظريات وإن تكن خاطئة إلا أنها انتقلت عنهم إلى المؤلفات الأوربية ، فقد ظل الأوربيون حتى القرن التاسع عشر يظنون أن النيجر هو النيل .

إلى جانب ذلك قام العرب بدراسة عملية لمجرى النيل جنوب مصر ، فعبد الله ابن أحمد بن سليم الأسوانى يصف لنا هذا الجزء من المجرى حتى التقائه برافديه العظيمين العطبرة والنيل الأزرق كما أعطانا صورة للحياة السياسية والاجتماعية لشعوب هذه المنطقة .

وأضاف الكتاب العرب إلى معلوماتهم المستقاه عن الفيضان ، معلومات جديدة لها صفة دينية [1] .

فإذا ما استعرضنا وصفهم للنيل فى مصر نجد أن معلوماتهم تأخذ طابعاً جديداً إذ إنها تعتمد على المشاهدة والدراسة عن قرب ، وتعطينا صورة صادقة وحية عن ارتباط حياة المصريين بالنيل وأثره فى كل ناحية من نواحى حياتهم ، وسنلمس ذلك فيما يلى من أبواب .

والكتاب العرب الذين كتبوا عن نهر النيل كثيرون غير أننا نلاحظ أن أغلبهم اكتفى بالنقل ممن تقدم مع تفاوت فى الإطالة أو الاختصار ، حتى الذين ألفوا عن النيل خاصة كالأقفهسى والمنوفى والمحلى وغيرهم لم يأتوا بجديد نضيفه إلى ماجاء به السابقون . لذلك سنغفل كثيراً من هؤلاء الكتاب مكتفين بذكرهم فى قائمة المراجع .

وسنحاول فيما يلى أن نعرف بالكتاب العرب الذين ذكروا معلومات جديدة مهما كانت ضآلتها أو كان نصيبها من الصحة ، مع تحليل للمادة التى قدموها وتقدير لقيمتها .

---

(١) أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق كما ستتعرض لها فى الفصل الأول من الباب الثالث عند ذكر الفيضان .

أولاً — الجغرافيون :

١ — الخوارزمى : يعتبر محمد بن موسى الخوارزمى (المتوفى بين عامى ٢٢٠٪٢٣٠ هـ — ٨٣٥-٨٤٤ م) من أبرز الشخصيات العلمية فى العالم العربى الذين برعوا فى أكثر من فرع من فروع العلم . وهو أول عربى نشر آراء بطليموس الجغرافية وأحياها وجددها [1] . وأصبح كتابه « صورة الأرض » — الذى اعتمد فيه على جغرافية بطليموس — نموذجاً وأساساً لكثير من كتب الجغرافيا التى وضعت من بعد .

ولا نعلم يقيناً هل نقل الخوارزمى جغرافية بطليموس عن اليونانية أو عن ترجمتها السريانية أم كانت قد عربت قبل أن يبدأ دراستها [2] ، وعلى كل يكفى أنه أول من نشرها ونبه الأذهان إليها .

وكتاب « صورة الأرض » هذا يشرح جغرافية العالم ببحاره وجباله وعيونه وأنهاره . وقد وصف فيه النيل معتمداً على ما ذكره بطليموس من أن منابعه من جبال القمر ، إلا أنه ذكر ثلاث بحيرات فى حين أن بطليموس ذكر اثنتين فقط . والخريطة التى رسمها الخوارزمى للنيل تطابق كثيراً خريطة بطليموس إلا أن الخوارزمى جعل مصب النيل الأزرق إلى الشمال كثيراً من مكان التقائه الحقيقى بالنيل . و لكن الذى لاشك فيه أن خريطة الخوارزمى هذه أدق من أى خريطة عربية أخرى للنيل .

وقد اقتصر الخوارزمى على وصف مجرى النيل فقط من منبعه إلى مصبه ولم يتعرض لذكر الفيضان أو أثر النيل الاقتصادى فى مصر وترعه وخلجانه ، ولكن وجه الأهمية فيما ذكره — على اختصاره — كونه أول وصف عربى لنهر النيل معتمد على آراء سابقية وأنه صار أساساً بنى عليه من جاء بعده من الكتاب .

٢ — اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسى جغرافى ومؤرخ من القرن الثالث الهجرى . كان رحالة يحب الأسفار ساح فى

---

(١) يرى الأستاذ نللينو أن تجديد الخوارزمى لجغرافية بطليموس لا يعتبر مجرد تقليد للآراء الإغريقية « بل هو بحث جديد مستقل فى علم الجغرافيا » — «انظر كتاب» الجبر والمقابلة للخوارزمى نشر الدكتور مشرفة ودكتور محمد مرسى ص ١٢ .

(٢) يرجح أن الخوارزمى نقل عن بطليموس بعد أن عربت كتبه من اليونانية . ولعل حنين بن إسحق (ولد سنة ١٩٤) هو الذى ترجمها حيث أنه عين فى بيت الحكمة فى عهد المأمون وهو الذى ترجم الكتب اليونانية إلى السريانية أولاً ثم إلى العربية (انظر أحمد أمين ضحى الإسلام جـ١ ص ٢٨٣ وما بعدها .

بلاد الإسلام شرقاً وغرباً ، وألف فى سياحته هذه كتاب البلدان كما ألف تاريخه المعروف باسمه . وتوفى بمصر سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) .

وقد جمع اليعقوبى مادة كتابه البلدان — الذى ألفه بمصر سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) — بالبحث فى أعمال من تقدموه ومن الرحالة والمسافرين ، وقد ذكر فيه الخراج وطرق السفر وبدأه بوصف بغداد وسمراء ثم عرج على إيران وأفغانستان والكوفة ، ثم وصف سوريا ومصر والنوبة والمغرب وختمه بفصل عن حكام سجستان . ويظهر من ثنايا الكتاب أن اليعقوبى رأى بنفسه معظم البلاد التى وصفها [1] .

والجزء الذى كتبه اليعقوبى عن النيل ضئيل بالنسبة لمؤلفه . ولم يذكر فيه من أين ينبع النيل بل اكتفى بأن قال: « إنه يأتى من وراء علوة » ، إلا أن له أهمية خاصة ترجع إلى قوله : « إن النيل والسند نهر واحد » . أما عن خراج مصر فقد ذكر مقداره منذ الفتح حتى أيام هارون الرشيد .

٣ — ابن الفقية : أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق الهمذانى المعروف بابن الفقية ، جغرافى عربى توفى فى أواخر القرن الثالث (أوائل العاشر الميلادى) . وقد ألف حوالى عام ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) [2] « كتاب البلدان » الذى كان مرجعاً من مراجع المقدسى وياقوت ، وإن كان هو نفسه قد استعان فى تأليفه بكتب من تقدموه . والذى وصل إلينا من هذا المؤلف مختصر له .

ويشارك ابن الفقية زميله اليعقوبى والجاحظ فى قولهما إن النيل متصل بنهر السند . كما أنه يذكر رأياً جديداً عن منبع النيل هو خروجه من قرب المحيط الأطلسى . وهذا الرأى على ما يبدو تأثر بقصة أوردها بلنبوس عن الملك جوبا الثانى .

ونلاحظ أن ابن الفقية هو أول جغرافى يروى الأحاديث المنسوبة للنبى عن خروج النيل من الجنة . إلا أنه يذكر حقيقة جغرافية هامة — لا شك أنه أول من ذكرها من المؤلفين العرب — هى أن مصر كانت خليجاً من البحر . وهو أيضاً أول جغرافى ينقل أشعاراً ذكر فيها النيل .

٤ — ابن رسته : أبو على أحمد بن عمر من أصل فارسى . صنف كتابه « الأعلاق النفسية » حوالى سنة ٢٩٠ هـ مستمداً معظم مواده من مؤلفات المعاصرين والمتقدمين ولم

---

(١) زكى محمد حسن : « الرحالة المسلمون » ص ٣٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ١ ص ٢٥٦ . وقد جاء فى معجم المطبوعات العربية جـ٢ ص ٢٠٦ أنه ألف كتابه هذا سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) بعد موت المعتضد .

يصل لنا من هذا المؤلف إلا الجزء الذى نشره دى خوى وهو الجزء السابع من المكتبة الجغرافية .

وما ذكره ابن رسته عن النيل لا قيمة علمية له فهو يذكر ما سبق أن ردده الآخرون إلا أنه سمى الجبال التى يخرج منها النيل بجبال « البين » ١ على أن الجديد فيه ذكره صورة لاحتفال المصريين بالوفاء فى عصره . ولذلك قيمته التاريخية ، إذ أن الكتاب العرب الذين تحدثوا عن احتفالات الوفاء اكتفوا بذكر ما كان يقام منها فى عهد الفاطميين وما بعدهم مهملين ما قبل ذلك .

والصورة التى صورها لنا ابن رسته تظهر الفرق الكبير بين بساطة هذا الاحتفال فى عهده والبذخ والفخامة الذى امتاز بها منذ عهد الفاطميين .

٥ — ابن سيرابيون : يحيى بن سيرابيون وقيل يوحنا بن سيرافيون كان طبيباً وجغرافياً توفى بين عامى ٢٨٩ ، ٣٣٤ هـ . ٢

وكتابه «عجائب الأقاليم السبعة» جمع مادته كما يقول من الكتب السابقة وفيه يصف أقاليم العالم المختلفة ويذكر ضمناً نهر النيل .

ووصف ابن سيرابيون للنيل لا يخرج عن وصف الخوارزمى بل هو منقول عنه . إلا أن الجديد فيه وصفه لمجرى الفروع السبعة فى الدلتا والتى ذكرها الخوارزمى من قبل بدون أن يحدد مجراها . وقد حدد الخوارزمى مصبات هذه الفروع بين الإسكندرية ودمياط أما ابن سيرابيون فقد ذكر أن الفرع الشرقى وهو السابع يصب عند الفرما وهو الأصح .

٦ — ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل رحالة عربى وجغرافى مشهور لا نعرف عن حياته إلا القليل . ويقول عن نفسه إنه ترك بغداد فى رمضان سنة ٣٣١ هـ (مايو ٩٤٣ م) بقصد التجارة والدراسة ، وظل يتجول فى العالم الإسلامى ثلاثين سنة دارساً فى الوقت نفسه مؤلفات المتقدمين كالجيهانى وابن خرداذبة وقدامة ، كما قابل الأصطخرى فى رحلته .

وفى هذه الفترة ألف كتابه «صورة الأرض» والذى يذكر أنه وقفه على دراسة العالم الإسلامى فقط مع توضيح كل ذلك بالخرائط .

والكتاب الذى بين أيدينا مطبوع عن نسخة تاريخها (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م) ويرى

---

(١) الأعلاق النفسية ص ٩٠ .

(٢) رزقانه — نهر النيل مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة جـ١ مايو سنة ١٩٥٠ .

ابن حوقل أن منبع النيل مجهول ، ولكن ناسخ الكتاب عارضه فى ذلك وأورد وصفاً للنيل ورسماً لمجراه لا يخرج عما ذكره الخوارزمى من قبل .

وقد اهتم ابن حوقل بالنظام الاقتصادى فى مصر ، وسبق ابن مماتى والقلقشندى والمقريزى وغيرهم فى الاهتمام بذكر مواعيد المحاصيل المختلفة وكيفية تحصيل الخراج على مدار السنة .

أما عن مجرى النيل فهو يذكر الجندلين اللذين عند أسوان ودنقلة فى حين أن كثيراً من كبار الجغرافيين كالمسعودى والادريسى لم يذكروا إلا الجندل الذى يقع جنوب أسوان .

كما أن ابن حوقل يصف فرعى رشيد ودمياط وما يتفرع منهما من أفرع ثانوية أخرى لم يسبق أن ذكرها كاتب آخر .

٧ ــ البكرى : أبو عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، أول الجغرافيين المسلمين فى المغرب ممن حفظت كتبهم ، وقد اشتهر فى قرطبة وفيها توفى سنة (٤٨٧ هـ ــ ١٠٩٤ م) بعد أن عمر طويلاً .

ومن أشهر مؤلفات البكرى التى خلدت اسمه « كتابه المسالك والممالك » وهو مثل معظم كتب الجغرافيين فى العصور الوسطى يعتمد على الرحلات كما يعتمد على المراجع السابقة ١ وقد اعتمد على هذا الكتاب كثير من المؤلفين الذين جاءوا بعد ذلك . ولم يصلنا من هذا الكتاب إلا جزء يختص بشمال إفريقيا ومصر وبعض الصفحات عن إسبانيا وقد نشر هذا الجزء وحققه دى سلان De Slane وسماه « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » .

ولهذا الكتاب أهمية كبيرة بالنسبة لموضوع النيل بالرغم من قلة معلوماته التى أوردها عنه إذ إنه أول مؤلف عربى ربط بين النيل والنيجر ٢ وانتقل هذا الرأى من المؤلفات العربية إلى المؤلفات الأوربية كحقيقة مسلم بها .

٨ ــ الإدريسى : كان أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسى من أعظم علماء الجغرافية وراسمى الخرائط فى العصور الوسطى الذين كان للرحلات شأن عظيم فى

---

(١) اعتمد البكرى كثيراً على كتاب فى وصف إفريقية والمغرب ألفه محمد التاريخى المتوفى عام ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) (انظر المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٦ — وانظر آدم متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٨ .

(٢) هذا وإن كنت أرجح أن ابن سليم الأسوانى هو أول من ذكر ذلك وسنبين ذلك فى الفصول التالية .

آثارهم العلمية . ولد بسبتة عام (٤٩٣ هـ — ١١٠٠م) وتوفى عام(٥٦٠ هـ—١١٦٦م) ، وتلقى العلم بقرطبة ثم طاف فى الأندلس وفى شمال افريقية وآسيا الصغرى ويقال أيضا إنه زار فرنسا وانجلترا . ثم لبى دعوة الملك روجر الثانى ملك صقلية النورماندى حيث صار ألمع شخصية ازدان بها بلاط هذا الملك . وقد أتم فى بالرمو قبيل وفاة هذا الملك عام (٥٤٨ هـ — ١١٥٤م) وصفه للكرة الأرضية المصنوعة من الفضة والتى رسم عليها أقاليم العالم المعروفة ثم دون ذلك فى كتابه المشهور باسم الكتاب الرجارى أو «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» وقد طبع مختصر هذا الكتاب فى روما حوالى ١٩٥٢ م بعنوان «نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» .

ويعد مؤلف الإدريسى هذا أعظم المصنفات الجغرافية فى العصور الوسطى ، ولا تقتصر أهميتها على تلخيص الموضوعات الرئيسية فى الكتب السابقة كجغرافية بطليموس وابن خرداذبة وابن حوقل والمسعودى — فحسب بل تعود أهميتها أيضاً إلى أنها اعتمدت على مشاهداته الخاصة فى رحلاته السابقة وعلى بيانات كثير من الرواة الذين أرسلهم الملك إلى الأقاليم المختلفة لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها وغيرهم من الرحالة والتجار الذين كانوا يمرون بموانى صقلية .

وقد استفاد كثير ممن جاء بعد الإدريسى من مؤلفه هذا كما اعتمد عليه الغربيون فى تقويم البلدان لا سيما بلاد الشرق ، إلى أن تقدم علم الجغرافيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ . وقد أشار إلى ذلك البارون دى سلان ١ سنة ١٨٤١ بقوله : «إن كتاب الإدريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له ، وإن ثمت بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها .

كما يذكر الأستاذ بيزلى (٢) Beasley عن أثر الإدريسى فى أعمال الجغرافيين الغربيين إذ يقول : «إننا نجد تأثير الإدريسى ظاهراً وواضحاً فى خرائط مارينو سانوتو Marino Sanuto وبترو فيسكوند Pietro Vesconde» وهذا يوضح قيمة الحقائق الجغرافية والتاريخية التى وردت فى المراجع العربية فى العصور الوسطى .

وقد شارك الإدريسى البكرى فى الربط بين النيل والنيجر ، إذ جعل مخرجيهما من بحيرة واحدة . وقد ذاع هذا الخلط بعد ذلك فى المؤلفات العربية التى نقلت عن الإدريسى كما توسع الإدريسى عمن سبقه من الجغرافيين فى وصف النيل وما يقع عليه من أمم

(١) الدكتور زكى محمد حسن «الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى» ص ٦٤ .

(٢) Beasley ; The Dawn of Modern Geography vol. III p. 531

كما عنى بصفة خاصة بمصر وأفرع النيل وخلجانه بها . وقد ظلت معلوماته عن فروع النيل فى الدلتا إلى جانب معلومات ابن حوقل المصدر الهام الذى تعتمد عليه فى ذلك .

وقد ذكر الإدريسى الرافد الشرقى للنيل والذى سبق أن ذكره الخوارزمى ولكنه جعل مصب هذا الرافد جنوب أسوان إلى الشمال كثيراً من مكان اتصاله الأصلى بالنيل .

٩ — الدمشقى : (٦٥٤–٧٢٧ هـ — ١٢٥٦ — ١٣٢٥ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى الصوفى المعروف بشيخ الربوة ، كان ذكياً كثير التأليف حسن المحاضرة .

وكتابه « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » وهو على سبعة أبواب خليط من الجغرافيا والتاريخ الطبيعى ، ويعتبر فى أسلوبه وترتيبه من أحسن مؤلفات الجغرافيا الإنسانية والتاريخ الطبيعى فى المكتبة العربية .

وقد ذكر نهر النيل فى الباب الثالث من مؤلفه هذا ، وأول ما نلاحظه أفقه الواسع ومنطقه العلمى ، فبينما يذكر كثير ممن سبقوه أو جاءوا بعده أحاديث عن خروج النيل من الجنة يرى هو أن هذه الجنة لا بد وأن تكون أرضية ، ولعله سمع عن الفكرة القديمة التى كانت تقول بوجود جنة أرضية .

كما أنه يذكر أن سبب نقص الخراج هو إهمال ولاة الأمور — بسبب التفتير — فى العناية بالخلجان والجسور .

ويعتبر ما ذكره عن أثر النيل فى مصر له أهمية من الناحية الاقتصادية وكيفية الاستفادة به وعن الخراج .

كما أنه أول كاتب يجمع مع النيل الشرقى الذى ذكره المسعودى والنهر الغربى الذى ذكره البكرى والإدريسى .

١٠ — ابن فضل الله العمرى : (٧٠٠ — ٧٤٩هـ) شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن يحيى بن محمد الكرمانى الشافعى العمرى المعروف بابن فضل الله الكاتب الدمشقى ، ويرجع ابن شاكر الكتبى [1] نسبة إلى عمر بن الخطاب . ولد بدمشق ، وقد خدم الملك الناصر محمد بن قلاوون ككاتب سر الديار المصرية ، ثم عمل كاتباً للسر فى دمشق ، وتفرغ بعد ذلك للتأليف .

ومن أهم مؤلفاته كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمطار» كتبه فى الغالب سنة ٧٤٣ هـ أو بعدها ويقول إنه شرع فى تأليفه أيام الناصر محمد بن قلاوون .

---

(١) فوات الوفيات جـ١ ص ٧ .

والفصل الخاص الذى أفرده فى كتابه للنيل ، وإن لم يأت فيه بجديد ، إلا أنه يدل على سعة اطلاع المؤلف وتسفيهه للخرافات ، فهو يذكر ما قيل عن المحاولات التى بذلت للوصول إلى منابع النيل ويعقب عليها بأنها أقوال لا قيمة لها جعلت أسباباً لعدم الوقوف على حقيقة أوله .

إلا أنه يذكر أول رواية عن وصول بعض العرب إلى قرب منابع النيل ورؤيتهم الجبال التى بها منابعه ، بل ويذكر أن بعضهم وصل إلى بحيرة النيل الثالثة ١ .

ثانياً — المؤرخون :

١ — ابن عبد الحكم : (١٨٧ — ٢٥٧ هـ) يعتبر عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم أقدم مؤرخى مصر الإسلامية ، وأول مؤرخ وصلت إلينا مؤلفاته ويتعرض فيها لذكر النيل ، وذلك فى كتابه «فتوح مصر وأخبارها» الذى يعد أقدم وثيقة محفوظة فى فتوح مصر وإفريقية الشمالية والأندلس .

والمعلومات التى ذكرها ابن عبد الحكم عن النيل ولو أنها قليلة فى مادتها ، إلا أن لها أهمية خاصة حيث إنه أول من ذكر ما قيل عن خروج النيل من الجنة مؤيداً ذلك بأحاديث منسوبة للنبى وروايات عن كعب الأخبار وغيره . وهو أيضاً أول من ذكر قصة عروس النيل ومنع عمرو بن العاص لهذه العادة ، وأصبح ابن عبد الحكم المرجع الأساسى لهذه القصة التى أصبح لها مؤيدون ومعارضون .

كما عنى بذكر مقاييس النيل التى أنشئت قبل وبعد الإسلام ، وتعرض كذلك لذكر الخلجان فى مصر وإن لم يعنَ بوصف مجراها وعنه أخذ غيره من المؤلفين . كما أنه أول من تعرض لذكر خراج مصر وعلى أى أساس قدر هذا الخراج .

٢ — المسعودى : أبو الحسن على بن الحسن بن على المسعودى الشافعى من ولد عبد الله بن مسعود الصحابى .

ويلقب المسعودى بـ «هيرودوت العرب» كما وصفه ابن خلكان بإمام المؤرخين . وقد ابتدع طريقة تدوين التاريخ حسب الموضوعات ، فلم ينظم الحوادث حول السنين بل حول الدول والملوك والشعوب ، وهى طريقة جرى على منوالها ابن خلدون وغيره . وكان من أقدم المؤرخين الذين أحسنوا الاستعانة بالقصة أو النكتة التاريخية فى سياق البحث ٢ .

---

(١) «مسالك الأبصار» ص ٦٨ ، ٧٠ .

(٢) فيليب حتى وآخرون «تاريخ العرب» ص ٤٧١ حـ٢ .

نشأ فى بغداد ثم أقبل على السياحة لطلب العلم وجمع الحقائق الجغرافية والتاريخية ، فرحل شرقاً إلى الهند ووصل إلى بحر الصين ، ثم جال بعد ذلك فى المحيط الهندى وزار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية ، وقام برحلات فى إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى والشام والعراق وجنوب بلاد العرب ومصر التى وصلها فى زمن الإخشيد محمد بن طفج وأقام بها من سنة (٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م) إلى أن توفى سنة (٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م) .

وذكر ياقوت[١] من مؤلفات المسعودى : « ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور » — « كتاب الرسائل » — « كتاب الاستذكار لما مر فى سالف الأعصار » — « كتاب التاريخ فى أخبار الأمم من العرب والعجم » — « كتاب التنبيه والإشراف » — « مروج الذهب » .

ومعظم مؤلفات المسعودى قد ضاع ، وأعظم ما وصل إلينا منها كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذى اختصر فيه كتابين كبيرين له . وقد فرغ من تصنيفه سنة (٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م) ويمتاز هذا الكتاب على غيره من الكتب العربية بكثرة ما فيه من أخبار الأمم التى كانت تحيط بالعالم الإسلامى فى عصره . وقد نقل كثيرون من الكتاب عن المسعودى خصوصاً فيما كتبه عن النيل .

والمسعودى أول من ربط بين النيل ونهر آخر شرقى يخرج منه إلى بحر الزنج كما يعتبر كتابه مصدراً هاماً للشعوب التى سكنت على طول مجرى النيل . وتوسع المسعودى فى الكلام عن الفيضان وأقوال الأمم المختلفة عن أسبابه ، كما تحدث عن أثر الفيضان على مصر ومدى انتفاعها به فى الفيضان المرتفع والمنخفض.

وقد استعان كثيرون من الكتاب العرب — فيما بعد — بأقوال المسعودى عن الفيضان والمقاييس ونقلوها فى كتبهم . إلا أن المسعودى لم يعن بوصف خلجان مصر المشهورة ولم يذكرها إلا عرضاً .

٣ — ابن زولاق : أبو محمد الحسن بن زولاق ، ولد بالفسطاط سنة (٣٠٦ هـ — ٩١٨ م) وتوفى سنة (٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م) بعد أن أدرك قيام الدولة الفاطمية بمصر .

ولابن زولاق من المؤلفات « فضائل مصر » ، ويقال إن ياقوت الحموى نقل منه فى معجم البلدان عند كلامه عن المدن المصرية دون إشارة إليه . كما أن له مؤلفات أخرى مثل « سيرة المعز لدين الله » و « سيرة الإخشيد » و « تتمة أمراء مصر » وهو ذيل لكتاب

---

(١) « معجم الأدباء » ج١٣ ص ٩٠ .

الكندى عن ولاة مصر . ولم تصلنا من هذه الكتب إلا بعض شذرات فى مؤلفات المتأخرين . [1]

ويوجد بمكتبة الأزهر ضمن مجموعة تحت رقم ٦٦٩٣ تاريخ وقف أباظة باشا ، نسخة خطية باسم «فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، للشيخ الإمام الأوحد الحسن بن إبراهيم بن زولاق» . ونسخة أخرى منقولة عن هذه بمكتبة جامعة الإسكندرية تحت رقم ٣١ . ولكن يظهر أن هذه الوريقات منقولة عن مؤلف أكبر . وتتناول ذكر فتح مصر وهل كان عنوة أم صلحاً ووصف عمرو بن العاص وغيره لمصر . وفصل عن خراج مصر فى عهد الفراعنة والعرب من أيام عمرو حتى زمن أحمد بن طولون . ثم ذكر كيفية التنبؤ بما سيكون عليه الفيضان .

وابن زولاق أول من أشار إلى احتفال الفاطميين بقطع الخليج فذكر قيام المعز لدين الله بذلك ، وهو كذلك أول إشارة عن قيام ولاة الأمور بمصر بذلك الاحتفال .

٤ ــ القضاعى : هو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى الفقية الشافعى . ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى وتوفى بها سنة (٤٥٤ هـ ــ ١٠٦٢ م) . وإن كان المقريزى يذكر أن وفاته كانت سنة ٤٥٧ هـ . [2]

وتولى القضاعى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، واشتغل بالتاريخ أيضاً فألف كتابه فى الخطط أسماه كما يقول المقريزى «المختار فى ذكر الخطط والآثار» ولم يصلنا من هذا الكتاب إلا شذرات متفرقة فى كتب من خلفوه خصوصاً القلقشندى والمقريزى والسيوطى وغيرهم ممن كان القضاعى مصدراً من مصادر معلوماتهم خصوصاً فيما يتعلق بالنيل وفيضانه ومقاييسه ، وخراج مصر .

٥ ــ القزوينى : (٦٠٠ـ٦٨٢ هـ ــ ١١٠٣ـ١٢٨٣ م) زكريا بن محمد القزوينى ولد فى مدينة قزوين بالعراق العجمى وطاف فى إيران والعراق والشام وتولى قضاء مدينتى واسط والحلة .

وللقزوينى مؤلف فى الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب يسمى «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» يعتبر موسوعة عربية هامة فى التاريخ الطبيعى . وهو وإن لم يأت بجديد فيما يختص بالنيل إلا أنه ذكر سبباً غريباً لفيضان النيل هو هبوب ريح الشمال ووقوفها كالسد أمام ماء النيل فيزيد ويعم البلاد .

---

(١) محمد عبد الله عنان ــ مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٣٤ .

(٢) الخطط جـ١ ص ٤ .

٦ – ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد المصرى ولد بالقاهرة سنة ٧٥٠ هـ وتوفى بها عام ٨٠٩ هـ (١٣٤٩ – ١٤٠٦ م) . وكان من المؤلفين فى الخطط وخصها بأعظم قسط من مجهوده التاريخى إذ كتب عنها مؤلفه الكبير «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» يعتمد فى مادته على من سبقة من كتاب الخطط كابن عبد الحكم والكندى والقضاعى وابن المتوج . ولم يصلنا من هذا المؤلف إلا الجزآن الرابع والخامس .

وقد ذكر فيهما كور مصر وبلاد كل كورة وعبرتها فأعطانا بذلك صورة دقيقة للحالة الاقتصادية فى مصر فى عهده . فضلاً عن أنه ذكر بعض الخلجان الهامة ، كما وصف المقياس وصفاً دقيقاً وذكر نظام الاحتفال بوفاء النيل وكسر السد فى أيامه .

٧ – المقريزى : تقى الدين المقريزى أشهر مؤرخ مصرى على الإطلاق ، وزعيم المدرسة التاريخية التى ازدهرت بمصر خلال القرن التاسع الهجرى وجذب اهتمامها تاريخ مصر بوجه خاص ، وكان من أساطينها العينى وابن تغرى بردى والسخاوى وابن إياس ، الذين تركوا لنا ذخيرة وافرة عن تاريخ مصر . والذين ظلت مؤلفاتهم «المصدر الأول لما نحتاج من معرفة لأحوال ذلك العصر من تاريخ وثقافة وأدب واقتصاد وسياسة واجتماع» . ١

ولد المقريزى بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ وتوفى بها سنة ٨٤٥ هـ (١٣٦٤ – ١٤٤٢ م) ، وقد تولى بعض الوظائف الهامة فى الدولة مثل الحسبة بالقاهرة والخطابة بجامع عمرو ومدرسة السلطان حسن والإمامة بجامع الحاكم ، كما اتصل بالظاهر برقوق وولده الناصر . ثم اعتكف بعد ذلك وأقام بالقاهرة حيث تفرغ للتأليف وخاصة فى التاريخ .

ولعل أعظم وأجل كتبه – التى ربت على المائتين ٢ – كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ٣ الذى رتبه على سبعة أجزاء .

وقد اهتم المقريزى فى خططه هذه بجغرافية مصر والنيل وأعطانا صورة دقيقة وصادقة عن الحياة فى مصر وأثر نهر النيل فى النظم الاجتماعية والاقتصادية ونظام الزراعة فى العصور المختلفة ، وخراج مصر وإقطاعاتها وترعها وخلجانها ومزروعاتها وأنواع أراضيها ونظام روك الأرض واهتم بصفة خاصة بالروك الناصرى ومنه تبين توزيع الأرض فى العهد المملوكى .

---

(١) محمد مصطفى زيادة : «المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر» ص و

(٢) السخاوى ، «التبر المسبوك فى ذيل الملوك» فى تاريخه المقريزى عند ذكر من مات سنة ٨٤٥ هـ .

(٣) ألف المقريزى خططه فيما بين عامى ١٤١٧ – ١٤٣٦ م (٨٢٠–٨٤١ هـ) انظر زيادة المرجع السابق ص ١٠ .

كما اهتم بالملاحة والسفن ودور الصناعة التى أنشئت . وتعرض لفيضان النيل والأقوال المختلفة التى قيلت عن أسبابه وكيفية التنبؤ بمقداره كما توسع فى ذكر المقاييس التى عملت فى العصور المختلفة وكيفية الاحتفال بوفاء النيل خاصة عند الفاطميين .

إلى جانب ذلك فالمقريزى ذكر لنا كتاب عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى [1] ووصفه لمجرى النيل جنوب مصر حتى مدينة الخرطوم الحالية والشعوب القاطنة على جانبى هذا الجزء من المجرى .

وبالجملة يعتبر ما ذكره المقريزى عن النيل أو فى وصف وأهمه بين كتاب العرب جميعاً . فهو قد عرض لجميع الأقوال السابقة التى ذكرها العرب وغيرهم ولكنه لم يكن مجرد ناقل فحسب بل وقف من هذه الآراء موقف الناقد المتمكن . نلمس ذلك عند ذكره الفيضان مثلاً حيث يستعرض الآراء ، المختلفة وينقدها نقداً علمياً منطقياً ويسوق الأدلة والبراهين على صحة رأيه . ولا شك أن مادة المقريزى عن النيل من حيث الكم والكيف تفوق كل ما ذكره غيره .

وللمقريزى مؤلف آخر له علاقة وثيقة بالنيل هو كتاب «إغاثة الأمة» يتناول فيه المجاعات التى حلت بمصر حتى سنة ٨٠٨ هـ وهى السنة التى ألف فيها الكتاب ، ذاكراً أثر هذه المجاعات فى حياة البلاد الاجتماعية والسياسية . وكان من أهم الأسباب لهذه المجاعات انخفاض الفيضانات فلا يتمكن الناس من الزرع خصوصاً بعد أن أهملت الجسور والترع .

٨ — ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ولد بالقاهرة حوالى سنة ٨١٢ هـ وتوفى سنة ٨٧٤ هـ . وقد اهتم ابن تغرى بردى بدراسة التاريخ ولازم مؤرخى عصره مثل العينى والمقريزى وصار من أساطين تلك المدرسة المصرية التاريخية. التى ازدهرت فى ذلك العصر .

وألف أبو المحاسن كتابه العظيم «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» فى تاريخ مصر مرتب على السنين ابتداه بفتح مصر سنة (٢٠ هـ — ٦٤٠ م) إلى سنة (٨٧٢ هـ — ١٤٦٧م) ذاكراً فيه من ولى مصر من الملوك والسلاطين والنواب ، آتياً فى كل سنة على ما وقع من الحوادث المهمة مع إشارة إلى مقدار الزيادة فى النيل .

٩ — السخاوى : شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، ولد عام (٨٣١ هـ — ١٤٢٧م) وتوفى بالمدينة سنة (٩٠٢ هـ — ١٤٩٧ م) . زار أغلب مدن الشام ثم

---

(١) ارجع إلى ما ذكرته عن « مخطوط الفيض المديد للمنوفى » فى الفصل الخاص بالمخطوطات — خاصاً بابن سليم الأسوانى .

جاور بالمدينة إلى أن توفى . وقد اهتم بعلم التاريخ ووقع بينه وبين السيوطى خلاف ومساجلات واتهامات .

وصلنا من مؤلفاته «الضوء اللامع لأنباء القرن التاسع» . و «التبر المسبوك فى ذيل الملوك» جعله ذيلاً لكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى» ، ورتبه على السنين . ويبتدئ من سنة ٨٤٥ هـ وينتهى فى سنة ٨٥٧ هـ [1] .

والسخاوى يعتنى عناية خاصة فى كتابة التبر المسبوك بذكر كيفية الاحتفال بالوفاء فى كل سنة واسم من رأس الاحتفال ومنه يتبين أن السلطان فى القرن التاسع بوجه خاص لم يكن يحضر الاحتفال بنفسه بل كان ينيب عنه غيره كما إنه يذكر مقدار الماء القديم ومقدار الزيادة فى كل سنة . كما يذكر المجاعات التى حدثت خلال بعض هذه السنين .

١٠ ـ السيوطى : عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد السيوطى ، ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩ هـ وتوفى بها سنة ٩١١ هـ (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م) ، برع فى علوم الدين والأدب ، والتاريخ وألف فيها جميعاً عشرات الكتب .

وأشهر مؤلفاته التاريخية كتاب «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» كتبه فى عصر السلطان قايتباى [2] ، وهو مجموعة لنواح عدة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والأدبى وبعض خواصها وعجائبها وآثارها ملخصاً من كتب المتقدمين كما ذكر من دخلها من الصحابة والتابعين وذكر أمراءها وحفاظها وفقهاءها وعلماءها وأدباءها كما ذكر نيلها وبعض مدنها . والسيوطى لم يأت بجديد بل هو يلخص آراء المتقدمين ، ومن مراجعه ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق والقضاعى وابن يونس وابن المتوج [3] وابن فضل الله العمرى والمقريزى وغيرهم .

---

(١) يذكر الدكتور محمد مصطفى زيادة أن السخاوى ألف كتابه إجابة لرغبة الأمير يشبك بن مهدى الدوادار فى عهد السلطان قايتباى . وأن الكتاب فى أربعة أجزاء وأنه طبع فى القاهرة من نسخة فريدة ناقصة تبتدئ من سنة ٨٤٥ وتنتهى سنة ٨٥٧ هـ مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن التاسع الهجرى على قول السخاوى نفسه فضلاً عن إشارات المعاصرين بصدده « انظر المؤرخين فى مصر القرن فى ١٥ م » ص ٤٣ وهامش ٣ بنفس الصفحة .

(٢) زيادة ، المرجع السابق ص ٦٤ .

(٣) ابن يونس : هو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد مؤلف تاريخ مصر توفى سنة ٣٤٧ هـ
ابن المتوج : تاج الدين بن محمد بن عبد الوهاب (٦٣٩-٧٣٠ هـ) ألف تاريخ مصر المسمى « اتعاظ المتغفل وأيقاظ المتأمل » .

وقد ألف السيوطى عام (٨٩٥ هـ–١٤٨٩ م) [١] كتابه « كوكب الروضة » وهو لازال مخطوطاً ، نقل فيه كثيراً مما كتب المقريزى .

وقد عنى السيوطى فى مؤلفيه هذين برواية كثير من الأشعار التى قيلت فى النيل فضلاً عن بعض كتب البشارات التى كتبها كتاب الإنشاء عند وفاء النيل. وفيما عدا ذلك لم يأت بجديد .

١١ – القاضى معروف قاضى المنزلة : من القرن العاشر الهجرى ، إلا أننا لا نعرف عنه شيئاً [٢] .

وقد ألف كتاباً باسمه « كتاب عجائب الأخبار عن مصر الأمصار » لازال مخطوطاً ، توجد نسخة منه بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم ٣٢٠ – ٦٦٢٠ تاريخ .

ويذكر المؤلف أنه لخص كتابه هذا من مؤلف آخر له يقع فى نحو من ثلاثين كراس . وقد حرره على مايظهر للسلطان العثمانى إذ يقول « وقد حررته خدمة لخزانة ملك الإسلام سيد الملوك العظام المالك الملك الهمام ..... الخ » وهو لم يذكر اسم هذا السلطان ، ولكن لما كنا نرجح تأليف هذا الكتاب فيما بين سنتى ٩٦٢ هـ و ٩٦٨ هـ [٣] يكون السلطان العثمانى فى ذلك الوقت هو سليمان بن السلطان سليم .

والكتاب مقسم إلى عشرة أبواب [٤] ذكر فيها تاريخ مصر وأول من سكنها وحدودها ومساحاتها وأموالها قبل الفتح وبعده وعظماء ملوكها ومن دخلها من الأنبياء . ثم ذكر فتحها على يد عمرو أول مدينة إسلامية خطت ، وفضائلها وخواصها وطلسماتها وبرابيها وما يمتاز به أهلها من طباع . ثم خصص الباب الثامن فى ذكر النيل وقسمه بدوره إلى ثمانية فصول ذاكراً ما ورد فيه من الآثار وذكر منابعه ومزاياه وطبائعه وأوقات صفائه وكدورته ووفائه وسبب زيادته ونقصه ومسافة جريته ووقوع الغلاء المفرط فى أيام حبسه عنها ، وفى المقياس وفى حيوانات النيل العجيبة وخلجانه وقناطره وغير ذلك .

وقد ذكر المؤلف أن أكثر ما ذكره منقول من الخطط للمقريزى وأخبار الزمان

---

(١) زيادة ، المرجع السابق ص ٦٤ – وكما ذكره السيوطى بنفسه فى آخر الكتاب انظر مخطوط كوكب الروضة دار الكتب ٢٦٣ تاريخ .

(٢) ذكره بروكلمان ضمن المؤلفين غير المعروفين أين ومتى عاشوا وعرفه باسم « معروف ابن أحمد » .

٣ – انظر صفحتى ٦٤ أ ، ٧٩ أ .

٤ – يغلب أن المؤلف أضاف الباب العاشر فيما بعد حيث إنه لم يذكر فى المقدمة إلا تسعة أبواب فقط .

للمسعودى وعجائب البر والبحر لشيخ الربوة وابن عبد الحكم وابن وصيف شاه والتيفاشى ، كما أنه فيما يختص بالنيل قد نقل عن قدامة والإدريسى وأبو الفدا وابن وحشية [1] وابن رضوان وابن الوردى .

وعلى ذلك فهو لم يأت بجديد إلا فى نقطتين ، فهوقد ذكر مايدل على أن البلاد قد زيكت فى عهد الأشرف برسباى [2] . كما ذكر أن قانون الرى فى عصره (سنة ٩٦٧ ، سنة ٩٦٨) ما بين ٢٢ ذراعاً ، ٢٣ ذراعاً [3] .

١٢ — ابن أبى السرور البكرى الصديقى : ولد شمس الدين محمد بن أبى السرور سنة ١٠٠٥ هـ وتوفى سنة ١٠٦٠ هـ [4] (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) وقد تكلم عن النيل فى كتابيه «الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة» و «قطف الأزهار من الخطط والآثار» [5] وهو يردد فيها أقوال المؤلفين السابقين إلا أنه ذكر فى كتابه الأول مقدار خراج مصر فى العهد العثمانى كما وصف فى كتابه الثانى كيف كان الولاة العثمانيون يحتفلون بوفاء النيل .

(أ) الكواكب السائرة [6] :

قد جعله فى عشرين باباً فى ذكر مصر وسبب تسميتها وحدودها وفضائلها ومن نزلها من الصحابة وولد فيها من الأنبياء والحكماء ومن ملكها من الملوك من قبل الطوفان وبعده ثم خلفاء المسلمين وملوكهم ونوابهم حتى سنة ١٠٦٠ هـ . كما ذكر كور مصر وخراجها ومعالمها وما كان يعمل بها من الترع والجسور ونيلها وأهرامها ومقاييسها ثم عنى بذكر القاهرة وإنشائها ثم ختمه بذكر الإسكندرية ومنارتها وما فيها من عجائب .

---

(١) أبو بكر أحمد (أو محمد) بن على الكلدانى أو النبطى من النصف الثانى للقرن الثانى الهجرى .

(٢) ص ٧ أ ٧ ب .

(٣) ص ٧٩ أ .

(٤) دائرة المعارف وكتاب «مصر الإسلامية» ص٦٢ وإن ذكر فى مخطوطة «قطف الأزهار» نسخة دار الكتب أنه توفى سنة ١٠٨٧ هـ وعلى كل فقد ألف كتابه «الكواكب السائرة» حتى سنة ١٠٦٠ هـ كما يذكر فى مقدمته .

(٥) يذكر على باشا مبارك فى خططه جـ ١٨ ص ٣٣ أن أبا السرور ألف كتابه هذا سنة ١٠٣٤ هـ ويظهر أنه أخذ فى الإضافة إليه حيث إنه ذكر قضاة مصر سنة ١٠٥٦ هـ .

(٦) يوجد منه نسخة مصورة بمكتبة البلدية بالإسكندرية .

(ب) قطف الأزهار [1] :

فقد اقتطفه من كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزى ورتبه على ٣٤ باباً فى أصل تسمية مصر بمصر ، وفى ذكر نيلها وفيما يعمل فى أراضيها من حفر الترع والجسور وعمارتها لأجل ضبط ماء النيل وتصريفه فى أوقاته، وذكر الأهرامات والجبال والمدائن وذكر ملوكها قبل الإسلام وشهور القبط وأعيادهم وذكرمدينة الفسطاط وفتح مصر واختطاطها وولاتها وخلفائها وفتحها فى زمن السلطان سليم ، ثم أتى على ذكر نواب الدولة العثمانية وأتبع ذلك بخاتمة تشتمل على قضاة مصر منحين فتحها إلى زمن المرحوم زين العابدين أفندى المتوفى فى شهر شوال سنة ١٠٥٦ هـ وفى ذكر ما كانت عليه القاهرة قبل وضعها وفتحها وعلى ذكر أبواب القصرين الكبير والصغير والمشهد الحسينى وما كانت تفعله الخلفاء الفاطميون فى أيام عاشوراء وذكر الحارات والدروب والأزقة والخوخ والرحاب والدور والحمامات والخانات والفنادق والأسواق والسويقات والأحكار والخلجان التى بظواهرها والقناطر والجزائر والجسور والزوايا والمساجد الجامعة والمدارس والمارستانات ٥٠١ .

ثالثاً — الرحالة :

كان أغلب الجغرافيين والمؤرخين العرب رحالة ، وكانت الرحلة لازمة لجمع المعلومات التى يضمنونها مؤلفاتهم . أما ما نقصده هنا بالرحالة فهم أولئك الذين قاموا برحلاتهم لأسباب غير جمع المعلومات ، مثل الحج أو السياحة وحب الأسفار والمغامرة ، ثم يدونون ما يشهدون وما ارتسم فى أذهانهم وانطبع فى نفوسهم عن الأشخاص والأماكن التى مروا بها ، فمؤلفاتهم صور لانطباعاتهم أكثر منها كتب فى تقويم البلدان والجغرافيا .

ومعظم الرحالة العرب كانوا من المغاربة ، إذ كان كثير من الحجاج القادمين من الأندلس والمغرب يزورون مصر والشام فى طريقهم إلى الحجاز ثم ينتهزون هذه الفرصة للطواف فى بعض الأقاليم الإسلامية الأخرى ، بل قد يدفعهم حب المغامرة إلى تجاوز حدود الدولة الإسلامية نفسها إلى غيرها من الدول . ومن أشهر الرحالة على الإطلاق ابن جبير وابن بطوطة .

١ — عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى : مؤلف كتاب « أخبار النوبة والمقرة

---

(١) يوجد نسخة مخطوطه بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٥٧ جغرافيا من وقف على مبارك .

وعلوة والبجة والنيل [١] » وهو كتاب لو وصلنا لكان من الممكن أن يكون وصف شاهد عيان له أهمية عن النيل والشعوب المقيمة على ضفتيه . وكل ما وصلنا من هذا المؤلف مقتطفات أوردها المقريزى فى كتابه الخطط كما أوردها ابن عبد السلام المنوفى فى مخطوطه . ومما أورده المقريزى يتضح أن ابن سليم وصل حتى موقع الخرطوم الحالية ، ووصف هذه المنطقة وصفاً دقيقاً .

ووصف ابن سليم على قلة ما وصلنامنه يعطينا صورة حية للمنطقة التى تقع جنوب أسوان وتمتد حتى النيل الأزرق ، من حيث جغرافيتها وحالتها الاجتماعية والعمرانية والسياسية وعلاقة هذه البلاد بمصر .

فهو يصف مجرى النيل وما يتعرضه من جنادل أشار هو إلى ثلاثة منها وذكر أنه من العسير اجتيازها إلا بصحبة دليل من أهل البلاد . كما يذكر تفاوت عرض المجرى من جهة لأخرى فعند مدينة تقوى مثلاً يضيق مجرى النيل حتى لايزيد اتساعه عن خمسين ذراعاً ، وفى موضع آخر عند بقون يتسع حتى يصبح مسيرة خمس مراحل .

ويصف الخناعة النيل الكبرى فيقول [٢] : « والنيل ينعطف من هذه النواحى — أى المنطقة بين دنقلة وأول علوة — إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر » .

ويذكر روافد النيل وأنها سبعة تأتى ستةمنها من الشرق والسابع من الغرب . ونستطيع أن ننسب إلى ابن سليم أنه أول من ربط بين النيل والنيجر .

واهتم ابن سليم بذكر محصولات هذه البلاد وطيورها وحيوانها ، وحياة أهلها وطرق معيشتهم . والطرق الموصلة من هذه البلاد إلى سواكن وسواحل البحر الأحمر . ويذكر أن المنطقة التى تقع بين أسوان وشمالى دنقلة ويسكنها المريس ، يغلب على أهلها شظف العيش ومشقة الحياة فيها لصعوبة زراعة أرضها ، وأن أغلب طعامهم السمك . أما أرض المقرة — التى تمتد حتى أول علوة — فأكثر خصباً وثراء وأحسن عمارة وإن كانت علوة تفوقها فى ثرائها وخصبها وإن كان أهلها أقل تحضراً .

كذلك اهتم بذكر الأجناس المختلفة التى تساكن أهل هذه البلاد وعلاقتها بهم ، فذكر قوماً من البجة يعرفون بالرنافج ، والديجيون والبازة .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٠ .

ويقال إن ابن سليم كتب مؤلفه هذا فيما بين سنتى ٩٧٥–٩٩٦ م — أنظر :

Macmichael; A History of the Arabs in The Sudan p. 169

(٢) انظر المقريزى الخطط جـ ١ ص ١٩١ .

ويتضح مما ذكره ابن سليم ، أنه كان للمصريين امتيازات فى الجزء الذى يقع بين أسوان ووادى حلفا ، إذ كان لهم الحق فى تملك الأراضى فى النصف الشمالى والاتجار حتى آخر هذه المنطقة . وإن كان دخول المناطق الواقعة إلى الجنوب من ذلك محرماً على أى إنسان إلا بإذن والى المنطقة الذى كان — كما يقول ابن سليم — من أجل ولائهم لقربه من أرض الإسلام .

ومعلوماتنا عن تاريخ حياة ابن سليم قليلة ، ويقال [1] إن جوهر الصقلى

---

(١) E.T. ; art Al Nil

Trimingham ; Islam in the Sudan. p. 60.

وذكر المقريزى فى المقفى ج٤ نسخة مصورة بدار الكتب برقم تاريخ ٥٣٧٢ ص ٢٢٧ عن ابن عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى بعثه القائد جوهر بكتابه إلى قيرقى متملك النوبة يعرض فيه عليه الإسلام ويستأدى منه ما عليه من البقط فدعاه إلى الإسلام بحضرة شاهدين أخرجا معه فكبر ذلك عليه وجمع علماءه وأساقفته وأحضر ابن سليم للمناظرة وقرأ عليه كتاباً جوابا عن الكتاب الوارد معه يدعو جوهرا إلى النصرانية ويحتج فيه كما أحتج عليه بنسخ الشرائع فطالت بينهما المناظرة ثم عاد إلى ذكر طاعته وموالاة أبيه وأخيه من قبل فأعلمه ابن سليم أن هذا الذى دعى إليه يوجب الشكر عليه لأنه اختار له ما اختار لنفسه ويجب أن يحمد الله على ما أولاه من إبقائه على ملكه لأن الإسلام لما ظهر أزال ملوكاً كباراً من الأكاسرة وغيرهم وأقر بها إليه أرض مصر فأيهما أكبر ؟ ملك مصر أم ملكه ؟ — فقال له : أما فى الحال والمال فمصر وأما الرجال فنحن أكثر عدداً ومدداً ، فقال إن احتججت عليك بأن رجال مصر أكثر من رجالك ظلمتك فى الاحتجاج لأنك تقول لى ؛ قد رأيت مصر ، وأما رجالى فى عامتهم وما ورائى من البلد الفلانى والفلانى فلم ترهم ، غير أنى أحتج عليك بما لا يمكنك دفعه ، تعلم أن فى الدنيا درجة فوق الملك ؟ قال : لا . قال : فإن ملك مصر بعث الله إليه موسى وهو من أجل الرسل يقول لفرعون : أنت ملك فيأبى عليه ويقول : بل أنا إله فما ظنك بملك يبلغ طغيانه إلى الخروج إلى هذا وقد أزاله المسلمون وملكوا أكثر كراسى النصرانية : مثل الإسكندرية وبيت المقدس وأنطاكية وغير ذلك من البلدان والأمصار ، فيجب أن تحمد الله على ما أعطاك وتشكره على ما حولك وبقاه عليك من نعمة عندك وورثك من تيجان أسلافك ففعل ذلك وأكثر التذلل لله عز وجل والثناء عليه .

وصنف كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوه والبجه والنيل ومن عليه وقرب منه من غيرهم للعزيز بالله أبى منصور نزار بن المعز لدين الله وقدمه إليه وفيه فوائد كثيرة وذكر فيه أنه حصل عيد الأضحى وهو عند متملك النوبة فخرج إلى ظاهر المدينة فى نحو ستين من المسلمين ونشر بندين عليهما : اسم المعز لدين الله ، وضرب الطبل والبوق وصلى بالجماعة صلاة العيد ، فأحب أولياء المتملك من صاحبهم الإنكار عليه فأبى عليهم وقال : هذا رجل فارق أهله ووطنه فى صلاح وهو يوم سرور يريد أن يتجمل ففعله هذا فلا أبخل عليه .

أرسله عام (٣٥٨ — ٣٥٩ هـ ٩٦٠ م) إلى الملك جورج ملك النوبة يدعوه فيها إلى دفع البقط له — أى جوهر — باعتباره حاكم مصر ، كما يدعوه إلى اعتناق الإسلام .

٢ — ابن جبير — محمد ابن أحمد بن جبير ولد بمدينة بلنسية عام (٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م) ودرس الفقه والحديث ، ثم قام بثلاث رحلات إلى الشرق ، دون أخبار الرحلة الأولى منها فى شبه مذكرات يومية . وفى رحلته الثالثة أقام فى الإسكندرية وتوفى بها سنة (٦١٤ هـ — ١٢١٧ م) وقد وصف فى رحلته مشاهداته ودون آراءه وملاحظاته . وقد وصف مقياس النيل بالروضة كما رآه وذكر مقدار الزيادة التى تفى بحاجة البلاد .

٣ — عبد اللطيف البغدادى : موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادى ، مفكر من أعلام عصره ، ولد ببغداد سنة (٥٥٧هـ—١١٦٢ م) وبرز فى أكثر من علم . وتنقل بين مصر والشام والعراق واتصل بصلاح الدين وغيره من الأمراء الأيوبيين ، وحضر إلى مصر بتوصية من القاضى الفاضل واشتغل بالتدريس بالأزهر وشاهد الغلاء الفاحش والقحط والوباء والشدة العظمى التى ألمت بمصر على عهد الملك العادل الأيوبى فيما بين سنتى ٥٩٥ ، ٥٩٨ هـ (١١٩٨—١٢٠١ م) والتى أشاعت فيها الدمار والرهبة .

وبقى البغدادى بمصر حتى سنة (٦٠٢هـ—١٢٠٥م) ثم قفل عائداً إلى بغداد ماراً ببيت المقدس والشام وبلاد الروم وتوفى ببغداد سنة (٦٢٩هـ—١٢٣٢ م) .

ولم يصلنا من مؤلفات البغدادى فى فروع العلم المختلفة إلا القليل . أما مؤلفه عن مصر « الإفادة والاعتبار » فهو ملخص لمؤلف آخر وضعه البغدادى عن مصر ولم يصلنا ، حيث يشير إلى ذلك فى مقدمة هذا المختصر .

وكتاب الإفادة هذا على إيجازه يعتبر سفراً كبير الأهمية إذ يقدم فيه بعض مشاهداته وتحقيقاته لخواص مصر وظواهرها ، فجاء مؤلفه نوعاً من الدراسة العلمية التى تمتاز بدقة الوصف وذكر مختلف الشئون العمرانية والاجتماعية فضلاً عن الاتجاه العلمى المنتظر من طبيب مثل البغدادى والذى يتجلى فى كلامه على خواص مصر العامة ، وعلى ما تختص به من النبات [1] والحيوان . ودقة (البغدادى) فى الملاحظة تظهر فى قوله عن أرض مصر إنها « رملية لا تصلح للزراعة ، لكنه يأتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الإبليز يأتيها من بلاد السودان مختلطاً بماء النيل عند مدة فيستقر الطين وينضب الماء

(١) زكى محمد حسن : — المرجع السابق ص ١٠٨ .

فيحرث ويزرع ، وكل سنة يأتى طين جديد ، ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شىء منها ، كما يفعل فى العراق والشام » .

والكتاب عبارة عن مقالتين تتناول الأولى خواص مصر العامة ، وما تختص به من نبات وحيوان وآثار ومنشآت وأطعمة . أما المقالة الثانية فهى عن النيل والوباء الذى اجتاح مصر ، ونجده فى هذه المقالة يتفوق على غيره بدقة البحث والوصف والتعليل الصادق ، وأنه عندما يتكلم عن النيل وزيادته يتناول هذا الموضوع بأسلوب الجغرافى العالم الذى يحاول أن يرجع الأسباب إلى مسبباتها . ووصفه للمجاعات التى شهدها بنفسه – وإن كان يعطينا صورة رهيبة – يوضح مدى أثر النيل فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد .

٤ – ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، أشهر رحالة عربى على الإطلاق ، وأكثرهم طوافاً فى الآفاق وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار ، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية فى البلاد التى تجول فيها .

ولد فى طنجة فى ١٤ من رجب سنة ٧٠٣ هـ (٢٤ من فبراير سنة ١٣٠٤ م) وبدأ رحلاته بالحج عام (٧٢٥هـ–١٣٢٥م) حيث زار البلاد الإسلامية التى فى طريقه إلى الحجاز ، ثم قام برحلات أخرى زار فيها بلاد العالم المعروفة . وكانت آخر رحلة له عام ٧٥٣–٧٥٤ هـ إلى بلاد الزنج ومنطقة نهر النيجر ثم رجع إلى مراكش حيث أملى أخبار الرحلة التى لبثت تسعاً وعشرين سنة على العالم محمد بن جزى الذى كتبها فى أسلوب أدبى بعد تلخيص وترتيب وإضافة أشعار وتحقيق لبعض أجزائها مستعيناً برحلة ابن جبير خاصة .

وكتاب ابن بطوطة « تحفة النظار » يمتاز على غيره من كتب الرحلات ، بأنه ليس كتاباً وصفياً للبلاد والجبال والأنهار التى رآها فحسب ، بل هو عبارة عن صفحة من التاريخ الاجتماعى الإسلامى ، كما كان ابن بطوطة يعنى بالنواحى الاقتصادية فى مشاهداته فيذكر أهم ما تمتاز به المدن التى يزورها من منتجات زراعية وصناعية ، وقد وصف ابن بطوطة القاهرة والفسطاط والنيل وقال : « إن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسكان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق . ١ »

وقد شارك ابن بطوطة الإدريسى فى الاعتقاد الخاطئ القائل بأن نهر النيجر فرع

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية – كذلك زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ١٣٦ انظر أيضاً رحلة ابن بطوطه جا ص ١٩

من النيل وقد رأى ابن بطوطة هذا النهر فى رحلته الثالثة وظنه النيل وأنه ينحدر من هناك إلى بلاد النوبة .

رابعاً — كتاب الخراج ونظم الحكم :

وهم قوم كان لهم من مراكزهم فى الدولة ما مكنهم من جميع معلوماتهم من التقارير والمكاتبات التى تحت أيديهم ، أو الأحداث التى شاركوا فيها أو شاهدوها وكانوا على علم بها ، أو استدعى عملهم أن يضعوا الشروط اللازم توفرها فيمن يقومون بهذا العمل ككتاب الإنشاء مثلاً .

ومعظم هذه الكتب يتناول مصر بوجه خاص ، كنظمها وإدارتها واقتصادياتها ونيلها ، وما إلى ذلك ، أو يتناول ناحية خاصة من الدولة الإسلامية كلها كالخراج .

ومن هؤلاء الكتاب :

١ — قدامة بن جعفر : أبو الفرج الكاتب البغدادى ، ولد نصرانياً وأسلم على يد الخليفة المكتفى (٢٨٩—٢٩٥ هـ — ٩٠٢—٩٠٦ م) ، وخدم فى ديوان بغداد حيث كان قائماً بأمر حسابات الدخل [١] سنة ٢٩٧ هـ تحت إمرة الوزير أبو الحسن بن الفرات . ويقال إن وفاته كانت سنة (٣٢٧ هـ — ٩٥٨م) وإن كان ياقوت الحموى يأخذ هذا بحذر لأن هذا التاريخ مأخوذ عن ابن الجوزى الذى يتهمه بكثرة التخليط .

وبرع قدامة فى صناعتى البلاغة والحساب ، وألف بعض الكتب أشهرها كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » ، الذى بدأه بذكر أقسام الإمبراطورية وتنظيم البريد ، كما يذكر خراج كل إقليم ، وتناول فى أثناء كلامه عن مصر نهر النيل وإن لم يخرج عما قاله الخوارزمى . ولكن قدامة هو أول من حدد مخرج خليج الإسكندرية من فرع رشيد ولذلك أهميته الكبرى إذ ان مكان خروج هذا الخليج قد تغير أكثر من مرة فى أوقات مختلفة وهو بذلك يحدد لنا أول نقطة بدأ منها هذا الخليج فى العصر العربى .

٢ — القاضى الفاضل : أبو على عبد الرحيم بن الحسن اللخمى البيسانى العسقلانى ، وزير صلاح الدين . ولد عام (٥٢٩ هـ — ١١٣٥ م) فى عسقلان ، وقد تولى كثيراً من الوظائف ، حتى إذا ماتولى صلاح الدين مقاليد الأمور بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة (٥٦٧ هـ — ١١٧٢ م) صار القاضى الفاضل يده اليمنى فى شئون الجيش والضرائب والإداره بوجه عام ، وقد لازم السلطان إلى أن توفى فالتحق بخدمة ابنه العزيز ثم اعتزل العمل ومات سنة (٥٩٦ هـ — سنة ١٢٠٠ م) .

---

(١) فيليب حتى وآخرون تاريخ العرب جـ٢ ص ٤٧٠ .

ومن مؤلفاته كتاب « المياومات » أو « المتجددات » وهو أشبه ما يكون بالنشرات الرسمية أو المذكرات الشخصية ، وقد نقل المقريزى فقرات كثيرة منها فى كتابه الخطط . وفى هذه المتجددات يورد معلومات هامة ودقيقة عن نظم الحكم والإدارة والمالية والجيش فى مصر تحت حكم صلاح الدين.

٣ — ابن مماتى : أبو المكارم اسعد بن مهذب بن أبى مليح مماتى ، أصله من نصارى أسيوط ، أسلم أبوه على يد شيركوه . وقد تولى أبو المكارم ديوان الجيش فى عهد صلاح الدين وابنه العزيز كما ولى نظر الدواوين أيضاً ونال حظوة لدى القاضى الفاضل . ثم هرب إلى حلب فى عهد الملك العادل وظل بها حتى مات سنة (٦٠٦ هـ — ١٢٠٩ م) .

وأعظم مؤلفات ابن مماتى « قوانين الدولة » يقول المقريزى إنه ألفه للملك العزيز وكان فى أربعة أجزاء ضخمة ، وأن الذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصر منه .

وهذا الكتاب يصف لنا حالة مصر فى القرن السادس الهجرى ، ويعتبر وثيقة من أهم الوثائق عن حال الزراعة ونظم الدواوين المصرية فى عهد الدولة الأيوبية . وتتناول موضوعات الكتاب جغرافية مصر ونهر النيل والخلجان والترع وشئون الزراعة فى البلاد وأنواع الأراضى ونظام الرى بتوسع وإفاضة ، كما تعرض بالتفصيل لذكر الخراج ومقداره والقائمين بأمره .

وقد رتب ابن مماتى كتابه على خمسة عشر باباً (١) ، فى فضل الكتابة والكتاب وذكر مصر ونيلها وجملة أعمالها وتفاصيل نواحيها ، وأحكام أرضها وتفاوت قيمتها ، وذكر خلجانها وترعها وجسورها ، وأصناف مزروعاتها وأحكام مستغلاتها ، وفى المساحة وأحكامها ورسومها ، وفى أسماء المستخدمين حملة الأقلام وما يلزم كلا منهم ، وفى ذكر ما استقر من المعاملات السلطانية والجهات الديوانية ، وفى ذكر السنة الشمسية والسنة القمرية ، وفى أنواع الحسابات وكيفية نظمها والطريق إلى استيفائها ، وفى ذكر ما استقر فى الدولة الأيوبية من الدواوين وما يتعلق بها وفى أقسام الكلام المنثور ، وفى إشارة إلى أنواع من الوراقة المضطر إليها الكتاب ، ثم الباب الأخير فى مختصر أصول الحساب ولكن الأبواب الخمسة الأخيرة ساقطة من الكتاب أما الأبواب التى تتعلق بموضوعنا فهى الباب الثانى والباب الرابع والباب الخامس والباب السادس والباب السابع .

٤ — أبو عثمان النابلسى الصفدى الشافعى : عاش فى أواسط القرن السابع

(١) انظر مقدمة المؤلف .

للهجرة ، استكتبه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ثم أمره بالنظر فى بلاد الفيوم وأعمالها سنة ٦٤١ هـ فصنف كتابه « تاريخ الفيوم وبلاده » فى هذه السنة وراجعه سنة ٦٤٢ هـ وجعله برسم خزانة الصالح نجم الدين . ويعتقد الدكتور مورتس الذى كتب مقدمة هذا الكتاب بالفرنسية أنه على مايظهر تقرير وضعه المؤلف وقدمه إلى الملك الصالح بعد سياحته معه وتسلمه إدارة الإقليم منه . والكتاب مقسم إلى عشرة أبواب وصف فيها الإقليم وأهله وبلاده وأرضه . وخلجانه وترعه . وقد وصف خليج المنهى وسفه الرأى القائل بأن يوسف الصديق قد حفره بالوحى . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه رجل مسئول يكتب عن دراية وخبرة .

٥ – ابن الجيعان : الشيخ شرف الدين يحيى بن المقر بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش والمتوفى سنة ٨٨٥ هـ [١] . ألف كتابه (التحفة السنية) ذاكراً فيه ما بإقليم مصر من البلدان ومساحتها بالأفدنة وعبرة كل بلد وخراجها مبتدئاً بالوجه البحرى على ما استقرت عليه الحال فى سنة ٧٧٧ هـ فى عهد الملك الأشرف شعبان . ويعتقد كثيرون وعلى رأسهم ناشر الكتاب دكتور مورتس أن ما أورده ابن الجيعان هو بيان تفصيلى للروك الناصرى وليس روكاً آخر عمل فى عهد الأشرف شعبان . ومهما يكن فهو وثيقة تبين حالة البلد المالية فى ذلك العهد .

٦ – الغزولى : علاء الدين على بن عبد الله البهائى الغزولى الدمشقى المتوفى سنة ٨١٥ هـ . وقد ألف الغزولى كتاب « مطالع البدور فى منازل السرور » واصفاً فيه دار الملك ونظامها . وقد تعرض فيه لوصف النيل وصفاً مختصراً إلا أنه ذكر محاولة للملك الصالح نجم الدين أيوب لكشف منابع النيل وهى أول محاولة عربية تذكرها المراجع العربية وقد يكون لها نصيب من الصحة .

٧ – القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله ولد سنة ٧٥٦ هـ واشتغل بالفقه والأدب ثم التحق بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ حيث بدأ فى تأليف كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » وفرغ من تأليفه فى ٢٨ من شوال سنة ٨١٤ هـ . وتوفى سنة (٨٢١ هـ – ١٤١٨ م) .

وقد ألف القلقشندى كتابه هذا ليكون دليلا لكتاب الإنشاء ، وليبين الشروط الواجب توفرها فيمن يلى عملاً من أعمال هذا الديوان ومن أهمها أن يكون أديباً حسن الخط عالماً بالأحوال السياسية ملماً بالتاريخ والجغرافيا عارفاً بالزراعة والتجارة. الخ

---

(١) تاريخ ابن إياس (بولاق) جـ٢ ص ١٩٦ .

الفصل الثالث

النيل فى كتب الأدب

احتل النيل من الأدب العالمى مكانة ممتازة منذ أقدم العصور ، بل منذ بدأ الإنسان يعبر عن إنفعالاته وأحاسيسه فى صور شعرية أو نثرية . فكان النيل — وما زال — مصدر إلهام لكثير من رواد الأدب كأهم مظهر من مظاهر الطبيعة يتمثل أمام ناظريهم .

ولا تقف شهرة النيل على كونه أطول الأنهار وأكبرها فقط ، بل لأنه النهر الذى أحيا بلداً وأوجدها من العدم ، خصها بنفعه وعمها بخيره . على ضفافه نشأت أولى الحضارات ومن واديه انبثق النور الذى أنار للبشرية الطريق فى سيرها إلى الأمام .

فلا عجب أن عبده المصريون وألهوه ومجدوه فى أناشيدهم ، وكما شغل أذهان المصريين فقد شغل كذلك غيرهم من الأمم كاليونان والرومان والعرب ، بل إنه احتل مكانة ممتازة فى كثير من الآداب الأوربية فى العصر الحديث .

وإذا تناولنا علاقة الأدب العربى بالنيل نجد أنفسنا مضطرين إلى تقسيمه تقسيماً يغاير ما جرى عليه عرف المؤرخين للأدب ، إذ إن تقسيمنا سينبنى على مدى اهتمام الأدب بالنيل والأغراض التى استعمل فيها .

وعلى ذلك سنقسم الأدب العربى إلى فترات ثلاث ، الفترة الأولى وتمتد من قبيل الفتح العربى حتى الفتح الفاطمى ، والثانية تشمل عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين والفترة الثالثة هى الفترة التى نعيش فيها الآن أى العصر الحاضر .

والفترة الأولى هى بلا شك العصر الذهبى للأدب العربى وخاصة الشعر : امتاز بفحول الشعراء والكتاب . ولكنا مع ذلك نجد الأدب العربى فى هذه الفترة يتجاهل النيل إلا فيما ندر ، وحتى فى هذا القليل النادر لم يأت ذكر النيل إلا عرضاً . ولعل السبب راجع إلى أن أغلب هؤلاء الشعراء جاءوا إلى مصر لغرض هو المدح وانتظار العطاء فلم يشغلهم النيل كثيراً قدر ماشغلهم بريق الذهب المنتظر . فلم تتعد القصائد التى ورد فيها اسم النيل أصابع اليدين .

وأقدم ما ورد فى النيل من أشعار ما ذكره الأعشى فى مدح قيس بن معد يكرب قائلاً إن الممدوح أجود من النيل الزاخر بالخير [1] .

ما النيل أصبح زاخراً من مده　　جادت له ريح الصبا فجرى لها

زبداً ببابل فهو يسقى أهلهـــا　　رغدا تفجره النبيط خلالهـــا

يوما بأجود نائلا منه إذا　　نفس البخيل تجهمت لسؤالهـــا

وللأعشى أيضاً فى مدح إياس بن قبيصة الطائى :

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه　　ولا بحر بأنقيا إذا راح مفعما

بأجود منه نائلا أن بعضهم　　إذا سئل المعروف صد وجمجما [2]

ولما ولى عبد العزيز بن مروان مصر ، مدحه نصيب بن رباح [3] مبشراً أهل مصر بقدوم نيل آخر عليهم فيقول :

فبشر أهل مصر فقد أتاهم　　مع النيل الذى فى مصر نيـــل [4]

ويصف الأحوص [5] اتساع الدولة وامتدادها فى عهد الأمويين فيقول عن الخليفة :ـ

---

(١) انظر ديوان الأعشى الكبير تحقيق دكتور محمد حسين قصيدة ٣-٢٢-٢٤ .
بالرغم من أنه ليس هناك علاقة بين نيل مصر وبابل إلا أن الشاعر يقصد بلا شك نيل مصر. حقيقة هناك نيلان آخران أحدهما حفره الحجاج بالكوفه والآخر حفره الرشيد بالرقة . وواضح أنهما حفرا بعد زمن الشاعر (ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦١-٨٦٢) . وقد نسبت بعض الكتاب العرب البيت الأول لعمرو بن معد يكرب - انظر المسعودى مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦١ .
والأعشى هو ميمون بن قيس شاعر جاهلى أدرك الإسلام فى آخر عمره ويعرف بصناجة العرب (ابن قتيبة - الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر . جـ ١ ص ٢١٢ .)

(٢) ديوان الأعشى قصيدة ٥٥ ويذكر الناشر أيضاً « وقيل فى مدح قيس بن معد يكرب » وذكر ياقوت فى معجم البلدان طبعة ليبزج جـ ١ ص ٤٨٣ أنها قيلت فى قصة إبراهيم الخليل مع أهل بانقيا بالكوفة .

(٣) نصيب بن رباح (توفى سنة ١٨٠ هـ) كان عبداً أسود لرجل من أهل وادى القرى فكاتب على نفسه ثم أتى عبد العزيز بن مروان فقال فيه مدحة فوصله واشترى ولاءه . وقال آخرون : كان من بلى من قضاعة وكانت أمه أمة سوداء فوقع بها سيدها فأولدها نصيباً ، فوثب عليه عمه بعد موت أبيه فاستعبده ثم باعه بن عبد العزيز بن مروان وكان يكنى أبا الحجناء . (ابن قتيبة ، الشعر والشعراء جـ ١ ص ٣٧١) .

(٤) أبو الفرج الأصبهانى « الأغانى » جـ ١ ص ٣٥٢ .

(٥) الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح شاعر أموى مدح الوليد ويزيد وعمر بن عبد العزيز كما مدح عبدالعزيز بن مروان .

يجبى له بلخ ودجلة كلها ... وله الفرات وما سقى والنيل [1]

وأبو نواس ذلك الشاعر الذى دان له الشعر ، زار مصر ومكث بها مدة إلا أنه لم يذكر النيل إلا فى مناسبتين : الأولى فى إحدى مدائحه للخصيب يشبهه فيها بالنيل وأنهما يغمران مصر بالخير والنعمة فيخاطبه .

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحـــر

النيـــل ينعش ماؤه مصرا ... ونداك ينعش أهلَه الغَمرْ [2]

ولكنه فى مناسبة أخرى يظهر بغضه للنيل حين حذر من تماسيحه .

اضمرت للنيل هجراناً ومقلية ... مذ قيل لى إنما التمساح فى النيــل

فمن رأى النيل رأى العين من كثب ... فما أرى النيل إلا فى البواقيل [3]

وأورد ابن الفقيه [4] شعراً قيل فى المفاضلة بين عيون جبل أروند والنيل ومنه :

قالوا ترى النيل فى مصر فتألفــه ... إذا ترامى على آذيه الزبد

فقلت أحسن من نيل بمصركم ... ماء العيون على الرخراض يطــرد

فى جانبيه رياض الزهــر زينهــا ... نسيم نوارها والطائر الغــرد

وذكر المسعودى [5] بيتاً قاله أحد الشعراء يصف جريان النيل من الجنوب للشمال :

مصر ومصر شأنهــا عجيب ... ونيلها تجــــرى به الجنوب

ومما ذكرنا نرى أن الأشعار التى ذكر فيها النيل فى الفترة السابقة للفاطميين قليلة كما أنه لم يكن غرضها الأساسى . وإذا كان هذا حظه من الشعر فحظه من النثر أقل .

على أنه قبل أن نترك هذه الفترة لايفوتنا أن نورد الخطاب ـــ الذى قيل إن عمرو بن العاص أرسله إلى الخليفة عمر يصف فيه مصر وإنه « يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل ،

---

(١) ابن خرداذبة « مسالك الممالك » ص ٣٣

(٢) ديوان أبو نواس – قصيده مجلس السرور ص ٤٧٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٦١ والبواقيل : جمع بوقال وهو كوز بلا عروة .

(٤) مختصر كتاب البلدان ص ٢٢٥

(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦١ . ولم يذكر اسم الشاعر الذى قال هذا البيت .

فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول مابدأ فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ...... فإذا أحدق الزرع ، وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء فإذا هى زمردة خضراء فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء .١.٥» [1]

وكاتب هذا الخطاب استطاع فى وصفه هذا أن يظهر الأثر الكبير الذى للنيل فى مصر فهو حياتها وجالب خصبها . كما أبدع فى وصف الفيضان الذى يغمر البلاد فلا سبيل للوصول من مكان لآخر إلا فى القوارب ، حتى إذا تكاملت زيادته وتم وفاؤه عاد إلى النقصان مرة أخرى فهو فى ذلك كالقمر يتدرج من محاق إلى بدر ليعود كما بدأ ، ولكل منهما فى زيادته ونقصانه أوان لايحيد عنه . ثم يبين نشاط فلاحى مصر فى زراعة الأرض ويصف اختلاف منظر الأرض باختلاف الفصول ... الخ .

والشك يحيط بصحة نسبة هذا الخطاب إلى عمرو ، هذا وإن كان الدكتور بتلر يعتقد فى صحة هذا الخطاب ويرى أن « هذا الوصف آية دالة على عمرو يبدو فيها شاعراً معسول القول وحاكماً عظيم الكياسة » [2]

إلا أن الدكتور محمد كامل حسين يقول [3] «ولكننا نشك فى نسبة هذا الخطاب إلى عمرو بن العاص لأنا إذا قارنا بين هذه الرسالة وبين ما رواه الأدباء والمؤرخون من أحاديث عمرو يتبين لنا أنها لم تصدر عنه ، ثم هناك ناحية فنية خالصة ذلك أن كتاب هذا العصر اعتادوا أن يبدأوا رسائلهم بحمد الله ، أما فى هذه الرسالة فشذ الكتاب عن هذه القاعدة ولم يحمد الله . ثم نرى كاتب الرسالة يبدؤها بالدعاء لأمير المؤمنين وهذا لم نره فى رسائل هذا العصر أيضاً ، بل جاء الدعاء للخليفة فى الرسائل متأخراً جداً . وقد رأينا هذه الرسالة تشتمل على فقرات قصيرة مسجوعة ، يظهر فيها أثر الصنعة الفنية التى لم يعرفها العرب فى صدر الإسلام أو أيام الأمويين ، بل جاءت نتيجة لتطور الحياة الفكرية عند العرب وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب الأخرى فاختلفت الكتابة العربية بدخول الثقافة الأجنبية فى العربية » .

ويمكننا أن نضيف قرينة أخرى هى أن هذا الخطاب لم يرد فى المراجع القريبة

(١) ابن تغرى بردى « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٣٢ .
(٢) فتح العرب لمصر ص ٣٧٦ .
(٣) « أدب مصر الإسلامية عصر الولاة » . ص ٩٨ - ٩٩ .

من عهد عمرو مثل الطبرى وابن عبد الحكم وابن الأثير وغيرهم ، بل ورد فى مراجع متأخره مثل مؤلف الدمشقى شيخ الربوة فى القرن الثامن الهجرى [١] .

وفى العصر الفاطمى صارت مصر كرسى خلافة تنافس الخلافة العباسية ببغداد فى كل شىء . وجعل الخلفاء الجدد من القاهرة كعبة للعلوم والآداب ، ومركزاً من مراكز الحضارة ورأوا فى الشعر خير داعية لهم ووسيلة لنشر مذهبهم وتأييد سلطانهم ، علاوة على أنهم أنفسهم كانوا يحبون الشعر ويتذوقونه بل إن منهم شعراء مجيدين كتميم ابن المعز . لذلك اهتموا بالشعراء وأغدقوا عليهم وأجزلوا لهم العطاء وكثرت فى أيامهم المواسم والأعياد التى كانت مجالاً فسيحاً للشعر ، فالتف حولهم الشعراء وقصدوهم فى مختلف بلاد العالم الإسلامى لاسيما من المغرب .

وكان لذلك أثره فى ظهور فئة كبيرة من الشعراء المصريين الذين حفلت بهم مصر حتى نهاية عصر المماليك . وأحس هؤلاء بالنيل فنظموا فيه الكثير من الأشعار فى مختلف الأغراض كالفخر والتشوق والمدح والوصف إلى آخره .

والمجال هنا لايتسع إلا لإيراد بعض الأمثلة التى تظهر مدى إحساس هؤلاء الشعراء بالنيل فى مختلف النواحى والأغراض التى عالجوها فى شعرهم .

وأول مانحسه اعتزاز المصريين بنهرهم وتفضيله على غيره من الأنهار وأنه يخرج من الجنة . فيقول الشاعر : [٢]

ونيل مصر من الجنـــان وماؤه محيى العضـــون
فبالعيـــون إن قايسوه قل ما تــرى مثله العيــون

ويفخر ابن فضل الله العمرى بمصر ونيلها قائلاً :

يحق لمصر أن تتيه إذا جرى بها النيل وامتدت إليه عيــون
فما مثله من زائر لقدومه تقر عيون إذ تقر عيـــون

ويقول ثالث [٣] مفاخراً بمصر لأن بها السلطان والنيل :

إذا البلاد افتخرت لم تــزل مصر لها عز وتفضيـــل
وكيف لاتفخر مصر وفى أرجائهـــا السلطـــان والنيـــل

---

(١) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ١٠٩ .
(٢) نقلاً عن ابن إياس ، بدائع الزهور المطبعة الأميرية ص ٢٠ . وهو لم يعين اسم الشاعر.
(٣) نقلاً عن ابن إياس ، بدائع الزهور طبع بولاق ص ٨ — ولم يعين كذلك اسم الشاعر

كما تمثل الحنين والشوق فى كثير من الأشعار ، فالشريف العقيلى [١] ، يحن إلى الفسطاط فى قوله :

أحن إلى الفسطاط شوقاً وإننى ... لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها ... وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ويستحضر البهاء زهير (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) صور الأيام الجميلة التى قضاها على شاطىء النيل ، ويجدها خير زاد لحنينه وشوقه وهو بعيد عن مصر ، فيقول [٢] :

فرعى الله عهد مصر وحيا ... ما مضى لى بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه ... مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث على النيل ... ودعنى من دجلة والفرات
وليالى بالجزيرة والجيـ ... زة فيما اشتهيت من لذات
بين روض حكى ظهور الطواويـ ... س وجو حكى بطون البزاة
حيث يجرى النيل كالحية الرقـ ... طاء بين الرياض والجنات

ويقول أيضاً [٣] :

حبذا دور على النيـ ... ـل وكاسات تدور
ومسرات تموج الـ ... أرض فيها وتمور

وجمال الدين بن نباته المصرى (المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) يقول متشوقاً إلى مصر [٤] :

قسماً ما حلت عن عهد الوفاء ... بعد مصر لا ولا نيل مصر بكائى
حبها تحتى وفوقى ويمينى ... وشمالى وأمامى وورائى

ويقول فى قصيدة أخرى :

يا سارى البرق فى آفاق مصر لقد ... أذكرتنى من زمان النيل ما عذبا

---

(١) أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة بن محمد بن عبد الله بن محمد العقيلى . عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس وقد شهد عهد الخليفة الحاكم ويعرف بشاعر الطبيعة والخمر .

(٢) ديوان البهاء زهير ص ٣٠-٣١

(٣) » » » ص ٨٧

(٤) ديوان ابن نباته ص ١٦

حدث عن البحر أو دمعي ولا حرج   وانقل عن النار أو قلبي ولا كذبا [1]

أما في العصر العثماني فنجد أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجي (متوفى سنة ١٠٦٩ هـ - سنة ١٦٥٩ م) يحن إلى مصر قائلاً :

إن وجدي بمصر وجد مقيم   وحنيني كما ترون حنيني

لم يزل في خيالي النيل حتى   زاد عن فكرتي ففاضت عيوني [2]

فإذا انتقلنا للمدح نجد الكثير من القصائد التي شبه فيها الشعراء ممدوحيهم بالنيل في العطاء والكرم ، أو أن الممدوح أكثر من النيل عطاء وبذلاً إلى غير ذلك من أغراض المدح :

فعندما سار جوهر الصقلي لفتح مصر سنة (٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م) مدحه ابن هانئ الأندلسي [3] مشبهاً له بالنيل ولكنه نيل لا يمن بنعمة فيسلبها منهم كما يفعل النيل في بعض السنين بل نعمه في ازدياد . فيقول في قصيدته التي مطلعها :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع   وقد راعني يوم من الحشر أروع

ومنهـا :

رحلت إلى الفسطاط أيمن رحلـة   بأيمن فأل في الذي أنت مجمع

فإن يك في مصر رجال حلومها [4]   فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ويممهم من لايغـار بنعمـة   فيسلبهم لكن يزيد فيوسع [5]

ويمدح أبو الحسن على بن إبراهيم [6] ، الأفضل ابن أمير الجيوش مشبهاً مصر بمكة والنيل بزمزم والوافدين إلى رحاب الأفضل بالحجيج .

---

(١) ديوان ابن نباته ص ٣١

(٢) تاريخ الأدب العربي - على الجارم وآخرون ص ١١٢

(٣) أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي ، اتصل بالمعز ومدحه قتل سنة ٣٦٢ هـ سنة ٩٧٣ م .

(٤) وردت هذه الشطرة في الديوان بهذا الشكل ولكنها وردت في بعض المؤلفات العربية كالآتي : - فإن يك في مصر ظماء لمورد   فقد جاء هم نيل سوى النيل يهرع
انظر المقريزي ، الخطط جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٥) ديوان ابن هانئ ص ٩ .

(٦) أبو الحسن على بن ابراهيم الملقب بابن العلاقي من أهل معرة النعمان وقد اجتذبه إلى مصر جود الأفضل - (الفاطميون في مصر ص ١٦٤) ويقول أميه بن عبد العزيز بن أبي الصلت « الرسالة المصرية ص ٤٤ » ولم يقبل الأفضل على أحد من الشعراء كإقباله على رجل من أهل معرة النعمان يدعى أبا الحسن على بن جعفر بن النون فإنه أفاض عليه سحائب إحسانه وأدر له حلوية أنعامه ولقبه بأمين الملك وأدناه واستخصه .

فمكة مصر والحجيج وفـــوده ويمناه ركن البيت والنيل زمزم [1]

ومن أجود قصائد المدح ما قاله كافى الدولة أبو العباس أحمد بن مفرج بين يدى الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٥–٥٤٤ هـ) فى الاحتفال بكسر السد [2]

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد للنيل أم لك يا ابن بنت محمد

أم لاجتماعكما معاً فى موطن وافيتما فيه لا صدق موعد

ليس اجتماع الخلق إلا للذى حاز الفضيلة منكما فى المولد

شكروا لكل منكما لوفائه بالسعى لكن ميلهم للأجود

ويمدح ابن قلاقس [3] (٥٣٢–٥٦٧ هـ – ١١٣٨–١١٧١ م) القاسم بن خليع قائلاً إن يديه أجود من النيل والفرات .

ويداه فى العرب أغرب شىء ما ترى النيل منهما والفراتا [4]

ويمدح ابن الساعاتى [5] الرسول صلوات الله عليه فى قصيدته التى يعارض بها قصيدة : بانت سعاد

لولاه لم تك شمس ولا قمر ولا الفرات وجاراها ولا النيل [6]

وله فى المدح أيضاً :

جرى نيله ردفاً لنيل بنانه وسال إلى أن ليس يوجد سائله

أى أن جرى نهر النيل مرادفاً لنيل كرمه وسال حتى لم يبق سائل محتاج [7] .

ويقول فى رثائه الظهير الحبشى إن وجه مصر صار عابساً ونيلها أصبح آجناً أسناً .

فوجهه الطلق عندى عابس ترب ونيله العذب مثل الآجن الأسن [8]

---

(١) حسن إبراهيم حسن « الفاطميون فى مصر » ص ١٦٤ .

(٢) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٤٧٨ وانظر أيضاً محمد كامل حسين « فى أدب مصر الفاطمية » ص ١٦٧–١٦٨ .

(٣) هو أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد القوى بن قلاقس اللخمى الإسكندرى ولقب بالقاضى الأعز .

(٤) ديوان ابن قلاقس نشر خليل مطران سنة ١٩٠٥ ص ١٩

(٥) بهاء الدين أبو الحسن على بن رستم بن هردوز الخراسانى ٥٥٣–٦٠٤ هـ–١١٥٩–١٢٠٩م

(٦) ديوان ابن الساعاتى – تحقيق أنيس المقدسى بيروت سنة ١٩٣٨ جـ ١ ص ٤٨

(٧) ديوان ابن الساعاتى – تحقيق أنيس المقدسى بيروت سنة ١٩٣٨ جـ ٢ ص ٤٠٠

(٨) ديوان ابن الساعاتى جـ ١ ص ٢٨٩

ويمدح أيدمر المحيوى [1] الملك الصالح نجم الدين أيوب عند تخليق المقياس فى قصيدة منها .

والنيل مضطرب القوارب مزيد صب إليك فؤاده متشوق
لو يستطيع سعى فقيل راحة هو فى السماح بخلقها يتخلق
فرأيت منك ومنه مجرى رحمة يتباريان كلاهما يتدفق
فمنحتهم نظراً وفضت عليهم نعماً فأنت بذا وذا تتصدق
أطعمتهم لما سقى فعليكما رزق العباد كلاكما يسترزق
لكن بينكما على ما فيكما من نسبة فى الجود فرقاً يفرق
تحصى الأصابع جوده لحسابها لكن حساب نداك ليس يحقق
ويفيض ذا فى كل عام مرة وبحار جودك كل حين تفهق
ويخص ذا قوماً وجودك يستوى فيه لديك مغرب ومشرق
ونداك لا من يكدره وذا يمنن فهو لأجل ذاك مرنق [2]

وفى المدح أيضاً ما قاله الجمال أبى الحسين الجزار [3] من قصيدة يمدح بها صدر الدين عبد الرحمن بن القرمسينى وهو يومئذ ناظر ثغر الإسكندرية فى سنة ٦٢٨ [4] .

لك نيلٌ قد أخجل النيل جودا وغدا دونه الفرات ودجله [4]

ويقول مهنئاً ابن الفقيه نصر [5] عند قدومه من بلاد الصعيد واتفق تغليق النيل (أى وفاؤه) عند وصوله إلى مصر ، ويقول إن زيادة النيل فى مصر ما هى إلا دموع أهل قوص لفراقه :

بكت قوص لما رمت عنها ترحلا فمن دمعها قد غلق النيل فى مصر [6]

---

(١) ايدمر المحيوى فخر الترك عتيق محى الدين محمد بن سعيد بن ندى عاش فى منتصف القرن السابع .

(٢) مختار ديوان علم الدين ايدمر المحيوى — نشر دار الكتب سنة ١٩٣١ ص ٥-٦

(٣) جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد المصرى توفى سنة ٦٧٩ هـ سنة ١٢٨٠م أنظر خير الدين الزركلى ، الأعلام طبع سنة ١٩٢٨ ج ٣ ص ١١٥٠ السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤ .

(٤) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب السفر الرابع

(٥) هو البرهان ابن الفقيه نصر بن شعراء نصر ولى النظر على ديوان الخراج بالصعيد (السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤) .

(٦) المرجع السابق ص ١٥٣ .

أما فى الهجاء فلم يستعمل النيل إلا فى القليل النادر . من ذلك تشبيه ابن قلاقس لأحد خصومه أن لون جلده أسود مثل ماء النيل :

يا جاعل النيـل صبغ جلدتـه ذا نسب باليـدين يتصـل
ويا غريقـا بنيـل مصر ولم يمس أثوابه ولا البلـل [1]

وفى الوصف تناول الشعراء النيل فى هدوئه وصخبه ومنظر السفن وهى تجرى على صفحته والرياض على جانبيه ، كما تناولوا وصف الفيضان والمقياس وجزيرة الروضة وخلجان النيل وبركه إلى غير ذلك .

ومن أقدم ما قيل فى الوصف ، وصف تميم بن المعز [2] ليوم سرور ولهو قضاه على صفحة النيل .

يوم لنـا بالنيـل مختصر ولكل يـوم مسرة قصر
والسفن تجـرى كالخيـول بنـا صعـداً وجيش المـاء منحـدر
فكأنمـا أمواجـه عكن وكأنمـا داراتـه سرر [3]

وكان لمنظر الشمس عند الغروب وانعكاس أشعتها على صفحة الماء أثر كبير فى نفوس الشعراء فيقول ابن قلاقس [4] .

انظر إلى الشمس فـوق النيل غاربة واعجب لما بعدها من حمـرة الشفق
غابت وأبدت شعاعاً منـه يخلفهـا كأنما احترقت بالماء فى الغـرق
وللهـلال فهل وافى لينقـذها فى أثرها زورق قد صيـغ من ورق

وهذا قليل من كثير ، إنما هى أمثلة تعكس لنا صوراً ارتسمت فى نفوس الشعراء وترينا كيف عالجوا هذا الموضوع وعمق إحساسهم به . وأول ما نحسه هو سطحية هذه الصور وعدم تعمقها خاصة فى العصر المملوكى ، كما أنهم أكثروا من استعمال البديع والجناس وأولعوا بالتلاعب بالألفاظ . ولكن ذلك على كل حال كان طابع العصر الذى عاشوا فيه . ففى هذا العصر بلغت الصناعة البديعة فى النثر والنظم أقصى مداها ، فكان

(١) ديوان بن قلاقس ص ٨٩ .

(٢) هو أكبر أبناء الخليفة المعز لدين الله وقد صرف أبوه ولايته العهد عنه لما عهد عنه من فجور وتوفى سنة ٣٧٤ هـ (محمد كامل حسين ، فى أدب مصر الفاطمية ص ١٧٠-١٧٢) .

(٣) ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦٥ .

(٤) ديوان ابن قلاقس ص ٧٥ .

للأدباء ولع شديد بضروب البديع المعنوى واللفظى من تشبيه واستعارة وجناس وطباق [1] .

وبالرغم من الأشعار الكثيرة التى قيلت فى النيل . عجز الشعراء عن إظهار صورة معبرة عن أثر النيل فى مصر وارتباط حياتها به .

وليس النثر بأحسن حالا من الشعر ولا أعمق فى إبراز الصورة التى يمكن أن تعطينا الشعور بقوة الإحساس وعمق الفكرة ، إنما هو كلف بالسجع وإظهار لموهبة الكتابة ليس إلا ، خصوصاً وأن أكثر ما لدينا من النثر كتب البشارة بوفاء النيل التى كان كتاب الإنشاء يجهدون أنفسهم فى حشوها بالزخرفة اللفظية والسجع المتكلف .

ويصف أبوالصلت [2] أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت مصر وقد غمر أرضها ماء الفيضان وأعياد الوفاء ثم حالها بعد نضوب الماء وجمال مناظرها « ولكسرة يوم معدود ومقام مشهود ومجتمع غاص يحضره العام والخاص . وإذا كسر فتحت الترع — وهى فوهات الخلجان — ففاض الماء وساح وعم الغيطان والبطاح ، وانضم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل وهى على آكام وربى لا ينتهى إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها بحراً غامراً لما بين جبليها المكتنفين لها . وتثبت على هذه الحال ريثما يبلغ الحد المحدود فى مشيئة الرب المعبود . وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعاً ثم يأخذ عائداً فى منصبه إلى مجرى النيل ومسربه ، فينضب أولاً عما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها متطامناً ، فيترك فى كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل تلعة كالبرد المسهم . وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شىء منظراً ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة كالجزيرة وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة ، وينتابها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس فى خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء .. الخ »

ومن الأوصاف التى قيلت فى النيل قول القاضى الفاضل :

« النيل المصرى الذى يكسو الفضاء ثوباً فضياً ، ويذكى ماؤه فى الأرض سراجاً من النور مضياً ، ويتدافع تياره دافعاً فى صدر الجدب بيد من الخصب ، وترضع أمهات خلجانه المزارع فتأتى أبناؤها بالعصف والآب » [3] .

---

(1) انظر ديوان ابن الساعاتى ص ٢٩ ، ٣٣ .

(2) الرسالة المصرية ص ١٩—٢٠ .

(3) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار ج ١ ص ٦٧

ويصف الفيضان بقوله :

« وأما النيل المبارك فقد ملأ البقاع من الإصبع إلى الذراع فكأنما غار على الأرض فغطاها وأغار عليها فاستقعدها وما تخطاها ، فمايوجد بمصر قاطع طريق سواه ولا مرغوب مرهوب إلا إياه » ١ .

ومن رسالة إلى زكى الدين الحسين أرسلها له أخوه من دمشق سنة (٧٦٢ هـ - ١٣٦١ م) يصف فيضان النيل وأثره فى مصر ٢ .

« وهلا ذكرتها وقد باكرها نيل النعيم بمغيثه ، بليل النسيم بكأس من تسنيمه وطما البحر عليها زاخراً فأغناها عن بكاء السحاب وتجهيمه ، وعم معظم أرضها وعب عبابه فى طولها وعرضها حتى كاد يعلو رفيع قصورها ويتسور بسورته شامخ سورها ، ومع ذا لا تراه جسوراً على ضعاف جسورها قد طبق التهائم والأنجاد وغرق الآكام والوهاد وعلا أعلى الصعيد والصعاد وأعاد البر سلطانه بحراً بالازدياد ، فإذا روى السهل والوعر والهضاب والوهاد ، وانجاب عنها فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ، بدت روضة نضرة بإملاق مقطعة كزمردة خضراء بتلال مرصعة . فكم من غدير مستدير كبدر منير ودقيق مستطيل كسيف صقيل ، وكم من قليب قلاب بماء كجلاب وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه وطيبها عبير عنبرها فضمخها بكفه .... »

وفى وصف عيد الوفاء وتخليق المقياس يقول الجلال السيوطى ٣ :

« وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم لها هو يوم عيد ، طالعه برج السنبلة والحوت للمشترى سعيد ، وهو يوم الزينة وما أدراك ما يوم الزينة ، يوم يحشر لها الناس ويحج فيه إلى المقياس وتطيب من تخليقه وتخليقه الأنفاس ، ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو وفى الحقيقة هو خلعة رضى ولباس ، وتكمد الحساد وتجتمع الأضداد فيحصل الصفا إذا انكدر والجبر إذا انكسر ، ويبلغ الخلق من النيل غايته النيل ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل ، ويركب إليه الملك والجنود وتعقد الألوية والبنود ، ويكون للناس من مائه ولونه المحمر ورود . ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وله فى كل سنة أجل معدود . » .

---

(١) النويرى نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٨١

(٢) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٣٦٨-٣٦٩ وقد كان زكى الدين الحسين أرسل من مصر إلى أخيه بدمشق يذم مصر ويتشوق إلى دمشق ، فأرسل له أخوه من دمشق رسالة منها ما ذكره أعلاه .

(٣) بلبل الروضة نسخة دار الكتب ١٦-١٧ .

أما كتب البشارة التى كانت ترسل عن ديوان الإنشاء إلى النواب والولاة بالشام كل عام مبشرة بوفاء النيل [1] ، فهذه يوجد منها الكثير لذلك سنكتفى بأن نورد ثلاثاً منها من العصر الفاطمى والعصر الأيوبى والعصر المملوكى على التوالى .

فمن إنشاء ابن قادوس [2] فى العصر الفاطمى :

« النعم وإن كانت شاملة للأمم فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاها بشكر تنشر فى الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه . نعمة يشترك فى النفع بها العباد وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد ، وتلك النعمة النيل المصرى الذى تبرز به الأرض الجرز فى أحسن الملابس ، وتظهر حال الرياض على القيعان والبسابس ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان ، فسبحان من جعله سبباً لإنشار الموات ، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ، ووفر به موارد الأرزاق والأقوات .

وهذا الأمر صادر إلى الأمير وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك ، وخلع على القاضى فلان بن أبى الرداد فى يوم كذا وكذا ، وطاف بالخلع والتشريفات والمواهب المضاعفات بالقاهرة المحروسة ومصر على جارى عادته وقديم سيرته . ونودى على الماء بوفائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً .

واستبشر بالنعمة بذلك الخلائق ، وواصلوا بالشكر مواصلة لا تستوقفهم عنها العوائق . وبدا من مسرات الأمم وانبهاجهم ما يضمن لهم الله المزيد ، وينيلهم المنال السعيد ، ويقضى لهم بالمآل الحميد . » [3] .

وكتب القاضى الفاضل باسم السلطان صلاح الدين الأيوبى مبشراً بالوفاء [4] :

« نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغاً وأضفاها سبوغاً وأصفاها ينبوعاً وأسناها منفوعاً وأمدها بحر مواهب وأختمها حسن عواقب ، النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره ويرمى النبات حجره ويحيى مطلعه الحيوان ويجنى ثمرات

---

(1) يقول القلقشندى « صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٩ » وهذا الصنف من المكاتبات متداول بالديار المصرية إلى آخر وقت يكتب به فى كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالممالك الشامية عند وفاء النيل وتسير به البريدية ، وربما جبى للبريدى من الممالك شىء بسبب ذلك وإذا كانت الدولة عادلة ضمن الكتاب أنه لا يجب للبريدى شىء بسبب ذلك .

(2) محمود بن إسماعيل بن قادوس أبو الفتح الدمياطى شيخ القاضى الفاضل مات سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) (السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٢) .

(3) القلقشندى — صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨ .

(4) انظر السيوطى — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٣

الأرض صنوان وغير صنوان ، وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها ويوضح معنى قوله تعالى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها .

وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فأسفر وجه الأرض وإن كان تنقب وأمن يوم بشراه من كان خائفاً يترقب ورأينا الإبانة عن لطائف الله حققت الظنون ووفت بالرزق المضمون إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

وقد أعلمناك لتستوفى حقه من الإذاعة وتبعده من الإضاعة وتتصرف على ما نعرفك من الطاعة وتشهر ما أورده البشير من البشرى بإبانته . »

وفى سلطنة الأشرف شعبان ، صدر الكتاب التالى عام (٧٦٦ هـ – ١٣٦٥ م) ، وصورته بعد الصدر ١ :

«وبشره بأخصب عام وأخص مسرة هناؤها للوجود عام ، وأكمل نعمة تقابل العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تهدى إليه أتم سلام ، وأعم ثناء تام ، وتوضح لعلمه الكريم ، أن الله تعالى – وله الحمد – قد جرى فى أمر النيل المبارك على عوائد الطافه ، ومنح عباده وبلاده من مديد نعمه مزيد إسعافه ، وأورد الآمال من جوده منهلاً عذباً ، وملأها به إقبالاً وخصباً ، وأحيا به موات الأرض فاهتزت وربت وأنبتت كل بهيج وأنجبت ، وأينعت الرياض فجرت فيها الروح ودبت ، وامتلأت الحياض ففاضت بالمياه وانصبت . وطلع كالبدر فى ازدياده وتوالى على مديد الأرض بإمداده ، إلى أن بلغ حده ووصل الفرج ومنع الشدة .

وفى يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القبط ، وفاه الله ستة عشر ذراعاً فاه فيها بالنجح ، وعم ثراه الأرض فأشرق بعد ليل الجدب بالرخاء أضواء صبح . وفى ذلك اليوم علق ستره وخلق مقياسه فاشتهر ذكره وكسر سده وتوالى مده ، ونجز من الخصب وعده ، وعلا الترع والجروف وقطع الطريق فأمن من الجدب المخوف ، وأقبل بوجهه الطلق المحيا وأسبل على الأرض لباس النفع فبدلها بعد الظمأ ريا ، فحمدنا الله تعالى على هذه النعم ورأينا أن يكون للجانب العالى أوفى نصيب من هذا الهناء الأعم وآثرنا إعلامه بذلك » .

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٣٢

ونخرج من مراجعة كتب البشارة هذه بما يأتى :

(ا) أصبح تحرير هذه الكتب تقليداً متبعاً منذ العهد الفاطمى حتى نهاية العصر المملوكى وكانت هذه الرسائل ترسل لحكام الأقاليم ولبعض أجزاء الدولة الأخرى مثل الشام واليمن .

(ب) يتضح منها مدى حفاوتهم بوفاء النيل واهتمامهم بالاحتفال به .

(ج) هذه البشرى تعتبر إيذاناً ببدء جمع الخراج فى الأقاليم .

(د) أن وفاء النيل يكون عند تمام الذراع السادس عشر فى المقياس .

(ه) نلاحظ أنهم كانوا يذكرون التواريخ القبطية المقابلة للتواريخ الهجرية ، لأن الفيضان يتبع السنة الشمسية لا القمرية ...

وأتى على البلاد حين من الدهر فقد فيه الأدب مكانته وأخذ يتدلى إلى الحضيض وأصبح ضيق الأغراض ضعيف العبارة . وامتدت هذه الفترة من الفتح العثمانى فى القرن العاشر الهجرى (١٦ م) حتى القرن الثالث عشر الهجرى (١٩ م) حيث ظهرت الحركة العلمية والأدبية الحديثة واستعاد الأدب العربى مكانته السابقة . وعاد إلى الشعر جزالته وروعته وتعدد أغراضه ، وظهر من الشعراء من دان لهم الشعر وأسلس لهم قياده منهم البارودى وشوقى وحافظ وغيرهم كثير .

ومن شعر البارودى وهو بسرنديب يصف الروضة والنيل فيقول :

ليت شعرى متى أرى روضة المنـ ... ـيل ذات النخيل والأعناب

حيث تجرى السفين مستبقات ... فوق نهر مثل اللجين المذاب

وفى قصيدة أخرى يصف النيل أيضاً والسفن الجارية فيه :

يستن فيها النيل بين حدائق ... غلب ورفاف النبات خصيب ١

وترى السفين يجول فوق سراته ... زف الرئال تمطرت بسهوب ٢

من كل راقصة على نقر الصبا ... تختال بين شمائل وجنوب ٣

ملكت أزمتها الرياح فسيرها ... ضربان بين تحفز ودبيب ٤

(١) يستن : يجرى — غلب : جمع غلباء وهى الحديقة المتكاثفة المعنى ١ — النيل يجرى بين حدائق متكاثفة وواد خصيب نضر النبات .

(٢) السراة : أعلى كل شىء — الزف : الإسراع — الرئال : أولاد النعام

(٣) تمطرت : ذهبت .

(٤) التحفز : الاجتهاد فى السير والإسراع .

فإذا أطلت عنانهـــا وقفت وإن أقصرته سارت بغير لغـــوب [1]

وقال يصف روضة المقياس مشبهاً لها فى كثرة أزهارها ونوارها وكأن نجوم السماء قد تناثرت فى أرجائها وكان نوارها أقباس النار فلولا الطل المتساقط لأحرقت الخمائل وأن كل ذلك من صنع النيل . فيقول :

هل فى الخلاعـة والصبا من باس بين الخليج وروضـة المقيـاس

أرض كساهـا النيـل من إبداعـه ولباسه الموشى أى لبـاس

فكأنمـا هـوت المجرة بينها فتشكلت فى جملـة الأغـراس

يتلهب النـوار فى أطـرافها فتخاله قبسـاً من الأقبـاس

لولا مسـاس الطل أحـرق ضوءه ذيل الخمائل رطبهـا والعـاس

أما حافظ إبراهيم فإنه وإن ذكر النيل فى أكثر من مائة بيت فى ديوانه إلا أننا كنا ننتظر منه وهو شاعر النيل أن يخص النيل بقصيدة يصف لنا فيها منابعه ومجراه ومصبه ذاكراً فضله على البلاد وأثره فى مصر مثلما فعل شوقى . وعلى كل فهو قد ذكر النيل فى مختلف أغراض شعره ، سواء فى المدح والرثاء والوصف والشعر السياسى والاجتماعى إلى آخر هذه الأغراض .

وسنذكر أمثلة من أشعاره فى مختلف آغراضه .

فنى المدح قال فى قصيدة للخديوى عباس الثانى [2] :

نظرت للنيل فاهتزت جوانبـه وفاض بالخير فى سهـل ووديان

يجرى على قـدر فى كل منحـدر لم يجف أرضاً ولم يعمـد لطغيان

كأنه ورجال السرى تحرسـه مملك سـار فى جنـد وأعـوان

قد كان يشكو ضياعاً مذ جرى طلقا حتى أقمت له خـزان أسـوان

ويمدح محمد سعيد باشا (رئيس الوزراء) فيقول مخاطباً مصر : [3]

ذخيك السعيـدان اللـذان تباريـا يا مصر فى الخيرات والبركـات

نيـل يفيض على سهولك رحمـة وفتى يقيك غـوائل العثرات

---

(١) لغوب : الإعياء والضعف والتعب .

(٢) ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٩

(٣) ديوان حافظ جـ ١ ص ٥٥

ويقول فى تحية أحمد شوقى سنة ١٩١٩ [1] .

النيل قد ألقى إليه بسمعـــه والماء أمسك فيـه عن جريانـه
فاصدح وغن النيـل واهزز عطفه يكفيـه ما عناه من أحـزانه

أما فى الغزل فيقول لمحبوبه إنه لم يكن من اليسير على الإنجليز احتلال مصر لو أن سيف لحظه الفتاك كان من سيوف المصريين [2] .

ما كان سهلاً أن يروْا نيلهـا لو أن فى أسيافنـا لحظكـا

وفى الرثاء قال فى مصطفى كامل : [3] .

فيانيـل إن لم تجـر بعد وفاتـه دماً أحمرا لاكنت يا نيـل جاريا

وفى رثائه محمد فريد [4]

أيهـا النيـل لقد جـل الأسى كن مداداً لى إذا الدمع نفـد

ويقول :

قل لصب النيـل [5] إن لاقيتـه فى جـوار الدائم الفرد الصمـد
إن مصر لا تنى عن قصـدها رغم ما تلقى وإن طال الأمـد

وقال يرثى سعد زغلول [6]

وسهـا النيـل عن سراه ذهـولاً حين ألقى الجمـوع تبكى انتحابا
واعتراف التاميز يا سعـد مقيا س لما نال نيلنا وأصابـا

وفى الوصف نراه يصف الباخرة دندرة وقد قدم عليها سعد زغلول من مسجد وصيف إلى القاهرة سنة ١٩٢٦ [7] .

ما بال دندرة تميس تهاديـاً ميس العروس مشت على استبرق
والنيل يجـرى تحتهـا متهلـلاً والمـوج بين مهـلل ومصفق

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٩٨–٩٩ .
(٢) « « « ص ٢٤٨
(٣) « « « ج ٢ ص ١٥١
(٤) « « ج ٢ ص ١٩٧–١٩٨ .
(٥) صب النيل يقصد به مصطفى كامل
(٦) ديوان حافظ ج ٢ ص ٢٢٠–٢٢١
(٧) « « ج ١ ص ١١٨–١١٩

وكتب إلى أحد أصدقائه بانجلترا يتشوق إلى أيامهما الماضية حيث قضيا أوقاتاً سعيدة على شاطىء النيل بالجيزة [1]

لله زيـــــــــانك الجــــــــــوا ر وذلك العيش الرخــــــــيم
بالجانب الغـــــــربى فـــــــــو ق النيـــــل والدنيـــــا نعيم
والنيـــــــــل مــــــرآة تنفس فى صحيفتهـــــــــا النسيم
سلب السماء نجــــــــومهـــا فهـــــوت بلجتـــــــه تعوم
نشرت عليــــــــه غلالــــــــة بيضـــــاء حاكتهـــــا الغيـــــوم
شفت لأعيننــــا ســـــــــوى ما شابـــه منهـــا الأديم [2]
وكأننــــــا فـــــــوق السما ء وتحتنـــــا ذاك السـديم [3]

وفى قصيدته « مصر تتحدث عن نفسها » يقول بلسانها : [4]

فترابى تبر ونهــــــرى فـــــرات وسمائى مصقولة كالفـــرند [5]
أينما سرت جـــدول عنـــد كرم عنـــد زهر مـــدنر عند رند [6]

ومن أبدع ما قاله فى الوصف ، وصفه لمصر فى فصولها المختلفة مشيراً إلى خطاب عمرو السابق ذكره وذلك فى قصيدة له للملك فـــؤاد [7] .

أو لم يكن لك ملك مصر ونيلهـــا ينساب بين مروجهـــا الأفيـــاح
منضورة الجنـــــات حالية الربـــا مطلـــــــولة السرحات والأرواح
قد قال عمرو فى ثـــراها آيـــــة مأثورة نقشت على الألــــــواح
بينـــا تـــراه لآلئا وكأنمـــــــا نثرت بتربتــــه عقـــود مـــلاح

---

(١) ديوان حافظ جـ ١ ص ١٧٣–١٧٤

(٢) يقول إن هذه الغلالة تمثلت على صفحة الماء كالثوب الممزق ، وكانت الغيوم قطعاً فى السماء فما صادف من وجه الماء انعكاس غيم كان شفافاً يبين ما تحته ، وما صادف منه أديم السماء بدا غير شفاف .

(٣) السديم : الضباب الرقيق – شبه به البحر الذى يجرى من تحتهم .

(٤) ديوان حافظ جـ ٢ ص ٩٠

(٥) الفرند : السيف

(٦) مدنر : أى مختلف الألوان أو مشرق متلألىء – الرند : شجر طيب الرائحة وله حب يقال له الغار .

(٧) ديوان حافظ جـ ٢ ص ١٠١

وإذا به للناظرين زمـــــرد   يشفيك أخضره من الأتـــراح
وإذا به مسك تشـــق ســـواده   شق الأديم محارث الفـــلاح [1]

أما فى شعره الاجتماعى تراه تارة يتألم للحال الذى وصلت إليه البلاد وطوراً يستنهض الهمم ويشحذ العزائم .

فيقول حاثاً على معاضدة مشروع الجامعة المصرية (سنة ١٩٠٧) [2]

من المداوى إذا ما علـــة عرضت   من المدافـع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيـل إن جمحت   وأنذرت مصر بالويلات والحرب

ويذكر تفشى الرشوة بالبلاد قائلاً : [3] .

ومهندس بالنيـــل بات بكفـــه   مفتـــاح رزق العامل المطـــراق
تندى وتيبس للخـــلائق كفـــه   بالماء طوع الأصفر البراق [4]

ويشكو غلاء الأسعار وينعى على المصريين تقاعسهم عن الهجرة وتفضيلهم الموت جوعاً ويقول لأولى الأمر : [5]

أصلحو أنفســا أضر بهـــا   الفقر وأحيا بموتهـــا الآثامـــا
ليس فى طوقها الرحيـل ولا الجد   ولا أن تواصل الإقدامـــا
تؤثر المـــوت فى ربا النيـل جوعاً   وترى العار أن تعاف المقامـــا
وبنو مصر فى حمى النيـــل صرعى   يرقبون القضاء عاماً فعامـــا
أيهـــا النيل كيف نمسى عطاشاً   فى بلاد رويت فيها الأنامـــا
يرد الواغـــل الغريب فيروى   وبنـــوك الكـــرام تشكو الأواما [6]

---

(١) الأفياح : الواسعة – منضورة : حسنة بهيجة – حالية الربا : مكسوة المرتفعات بأنواع الزهور والنبات – مطلولة : أى أصابها الطل – السرحات : جمع سرحة وهى الشجرة العظيمة – الأرواح : الرياح – ويشير فى هذه الأبيات إلى خطاب عمرو وإلى ماذكره عن أرض مصر من أنها فى فصول السنة لؤلؤة ثم مسكه ثم زمردة .

(٢) الديوان جـ ١ ص ٢٦٦ والنشب : المال

(٣) « « ص ٢٨١

(٤) المطراق : الذى يكثر طرق أبواب الرزق – تندى : تبتل والمراد فيضان يده بالماء – يريد بالأصفر البراق : الرشوة .

(٥) ديوان حافظ جـ ١ ص ٣١٦–٣١٧

(٦) الواغل : الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم دون أن يدعى – الأوام : شدة العطش .

ومن شعره السياسى ما قاله فى حفل لتكريم لسعد زغلول : [1]

الشعب يدعـــو الله يا زغلـول أن يستقـــل على يديك النيـــل

وفيها يقول عن الإنجليز :

إنا رميناهم بنـــدب حـــول عن قصد وادى النيل ليس يحول

النيـل منبعه لنـــا ومصبـــه ما أن له عن أرضها تحويل [2]

ويقول فى حادثة دنشواى ويعرض بإبراهيم الهلباوى المدعى العام فى تلك المحاكمة :

أمـــة النيـــل أكبرت أن تعـادى من رماها وأشفقت أن تعـــادى

لا جرى النيل فى نواحيك يا مصـ ـر ولا جادك الحيا حيث جـادا [3]

ويدعو أهل مصر إلى الاتحاد وينعى عليهم تفرق شملهم فيقول : [4]

عار على ابن النيـل سبـاق الورى مهما تقلب دهـره أن يسبقـــا

أو كلما قالوا تجمـــع شملهـــم لعب الشقـاق بجمعنـا فتفرقـا

فتدفقـوا حججاً وحوطوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفقــــا

ويعتبر حافظ رائداً من رواد القومية العربية وأحد بناة وحدتها فيقول محيياً الشام [5] مخاطباً أهلها .

لى موطن فى ربوع النيـــل أعظمه ولى هنا فى حماكم موطن ثانى

النيل وهو إلى الأردن فى شغف يهدى إلى بردى أشواق ولهـــان

وقال فى قصيدة عن مصر وسوريا [6]

إذا ألمت بوادى النيـل نازلــــة باتت لها راسيات الشام تضطرب

لو أخلص النيل والأردن ودهمــا تصافحت منهما الأمواه والعشـب

بالواديين تمشى الفخـــر مشيتــه يحف ناحيتيـه الجـود والدأب

---

(١) الديوان ج ١ ص ١١٠ ، ١١٢ .

(٢) الضمير فى رميناهم يعود على الإنجليز – الندب : الماضى فى الحاجة النافذ فى قضائها الحول : الشديد الاحتيال .

(٣) الديوان ج ٢ ص ٢١

(٤) الديوان ج ٢ ص ٦٠–٦١

(٥) « ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٩

(٦) « « ص ٢٦٩

فسال هـــذا سخاء دونه ديم وسال هذا مضاء دونه القضب ١

وتختم هذه الأمثلة بذكر الرسالة التى بعث بها شوقى وهو فى منفاه بالأندلس إلى حافظ يتشوق إلى مصر ونيلها ورد حافظ عليه ٢

أرسل شوقى يقول :

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء – وإن غبنا – مقيمينا
هلا بعثتم لنـــا من ماء نهـركم شيئاً نبـل به أحشاء صادينـــا
كل المناهـل بعد النيـل آسـنة ما أبعـد النيل إلا عن أمانينـــا

فرد حافظ عليه قائلاً :

عجبت للنيل يدرى أن بلبلــــه صاد ويسقى ربا مصر ويسقينـــا
والله ما طاب للأصحاب مـورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنــه وإن فارقت شاطئــه وقد نأينـــا وإن كنا مقيمينـــا

ومن أروع ما قيل فى النيل – بل لعله أروعها جميعاً – قصيدة أمير الشعراء شوقى الذى يخاطب فيها النيل قائلاً :

من أى عهد فى القرى تتـــدفق وبأى كف فى المدائن تغـــدق
ومن السماء نزلت أم فجرت مـــن عليا الجنـــان جداولا تترقـــرق
وبأى عين أم بأية مزنـــــــة أم أى طوفان تفيض وتفهــــق
وبأى نـول أنت ناسج بـــــردة للضفتين جديدهـــــا لا يخلق
تسقى وتطعم لا إناؤك ضائـــــق بالواردين ولا خوانـــك ينفق
والماء تسكبـه فيسبك عسجـــداً والأرض تغرقهـــا فيحيا المغـــرق
تعيى منابعـــك العقـول ويستـوى متخبط فى علمهـــا ومحقـــق
أخلقت راووق الدهـــور ولم تزل بك حمأة كالمسك لا تـــــتروق
دين الأوائل فيك دين مروءة لم لا يؤله من يقوت ويـــرزق
لو أن مخلوقاً يـــؤله لم تكن لسواك مرتبـة الألوهـة تخلـــق

---

(١) الديم من السحب : جمع ديمة وهى الدائمة المطر – القضب : السيوف القواطع يشير بالشطر الأول إلى وادى النيل وبالشطر الثانى إلى وادى الأردن .

(٢) الديوان جـ ١ ص ١٨٦–١٨٧

دانــــوا ببحــر بالمكارم زاخــر	عذب المشارع مـــده لا يلحق
متقيـــد بعهـــوده ووعـــــوده	يجــرى على سنن الوفاء ويصـــدق
يتقبـــل الوادى الحيـــاة كريمـــة	من راحتيك عميمـــــة تتـــدفق
أصل الحضارة فى صعيدك ثابت	ونباتهـــا حسن عليك مخلـــــق
ولدت فكنت المهـــــد ثم ترعرعت	فأظلها منـــك الحنى المشفـــق
للأرض يـــوم والسماء قيامـــــة	وقيامـــة الوادى غـــداة تحلق

ويقول آخر مخاطباً النيل :

إيه يا نيـــل كم بنيت حيـــاة	وصحبت الزمان فى خطـــراتك
قد نبتنـــا على ثراك نباتـــاً	وطعمنـــا الجنى من ثمـــراتك
لا تـــرى الأرض ما خطـــوت مواتا	بل تسير الحياة فى خطواتـــك
أنت تهدى لنا شهيـــا فراتـــا	كل حى أنفاســـه من فراتك

صدق الشاعر فالحياة تسير فى ركابه وما نحن إلا ثمرة من ثمراته ، وصدق الله العظيم « وجعلنا من الماء كل شيء حي »

الباب الثانى

جغرافية النيل في المؤلفات العربية

- المنبع
- المجرى
- المصب
- الخلجان
- الترع والجسور

الفصل الأول

المنبع

نهر النيل أول نهر عرفته البشرية ، ولعب فى تطورها الدور الرئيسى ومع ذلك ظل مجهول المنبع ، — وهو الذى قامت على ضفتيه أقدم وأروع حضارة عرفها التاريخ — وقد أحاط ببدايته الغموض . ولعب الخيال دوره فى محاولة استجلاء مبدأ النهر فظهرت الأساطير التى زادت فى الغموض والإبهام المحيطين بمنبعه . ولم ينقطع الجدل حول منبع النيل إلا فى القرن الماضى فقط بعد الكشوف الحديثة التى قام بها الرحالة الأوربيون .

والمعلومات الجغرافية التى وردت فى مؤلفات الكتاب السابقين على الإسلام والمؤلفين العرب على السواء لم تكن مبنية على المشاهدة بل هى معلومات تخيلوها أو سمعوا بها من بعض الناس أو عثروا عليها فى كتب سابقة . فكما رأينا فى المقدمة كانت معلومات الجغرافيين السابقين على الإسلام عن منابع النيل ضئيلة وتافهة ، فيما عدا معلومات بطليموس التى أخذها من غيره . كما أن معلومات الكتاب العرب لم تكن بأوفر من معلومات السابقين فبالرغم من أن أكثر المؤلفين العرب كانوا رحالة إلا أن أحداً منهم لم يصل قط إلى منابع النيل . وقد صرح بذلك كثير من المؤلفين العرب ، فيقول أبو الفدا [1] : « ولم يتصل بنا من أخباره (أى بداية النيل) إلا ما نقل عن اليونان ونسب إلى بطليموس » . ويقول ابن فضل الله العمرى [2] : « والشائع على ألسنة الناس أن أحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة .... وإنما غالب ما يقال فى هذا — والله أعلم — مما أظهره نظر العلم لانظر العيان » . أما السيوطى [3] فينقل عن التيفاشى [4] : « أن كل الأنهار يوقف على منبعه وأصله ، والنيل لايوقف له على أصل منبع » .

والثابت من هذه الأقوال أن معلومات العرب عن مبدأ النيل ، هى معلومات منقولة عن غيرهم . وليس فى ذلك ماينقص من قدر الجغرافيين العرب الذين كان لهم فضل

---

(١) تقويم البلدان ص ٤٥

(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٧١

(٣) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٧

(٤) شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشى نسبة إلى تيفاش بإفريقية توفى سنة ٦٥١هـ-١٢٥٣م

كبير فى تطور وتقدم علم الجغرافيا ، والذين قاموا بالرحلات العلمية فى شتى أنحاء العالم وخاصة أفريقيا ، فتجولوا فى أعماقها ، وعرفوا الكثير من أجزائها وأسسوا فيها المدن والممالك ونشروا فى بعض جهاتها حضارتهم ولغتهم ودينهم . إذ أنه لم يتيسر الكشف عن منابع النيل إلا فى العصور الحديثة بعد أن تقدمت وسائل المواصلات ، وأصبحت البعثات الاستكشافية تلقى التشجيع والتمويل من جانب السلطات الحكومية والجمعيات الجغرافية .

ولقد يطرأ على أذهاننا سؤال هو : هل قامت محاولات لاكتشاف منابع النيل ؟

لا شك أن المحاولات لاكتشاف منابع النيل بدأت منذ زمان بعيد ، فكانت المحاولات المستمرة لمعرفة أسرار هذا النهر واستجلاء غوامضه ومعرفة مخرجه . والمراجع الجغرافية تعطينا فكرة عن بعض المحاولات السابقة على الإسلام والتى بذلت للوصول إلى منابع النيل .

فهيرودوت يذكر [١] قصة قيام خمسة شبان من الليبيين من سيرتس Syrtis (جنوب برقة) بالتوغل جنوباً لمعرفة نهاية الصحراء حتى وصلوا إلى مجرى مائى عظيم حيث أسرهم جنس من الأقزام السود ، وأنهم اعتقدوا أن هذا النهر هو النيل . ويظهر أن هؤلاء الشبان وصلوا إلى نهر النيجر عن طريق واحات فزان وجبال أهاجار Ahaggar [٢]

وديودور [٣] الصقلى واسترابون يقولان إن قمبيز ملك الفرس لما فتح مصر (عام ٥٢٥ ق.م) تقدم إلى الجنوب فى بلاد النوبة حتى وصل إلى جزيرة « مروى » وأنه هو الذى أطلق هذا الاسم عليها وعلى مدينة بناها هناك . هذا وإن كان بعض الباحثين [٤] يرى أنه لم يتعد الجندل الثانى وعاد إلى مصر بعد أن لقى جيشه الأهوال ؛ كما أن هيرودوت الذى يعتبر المصدر الأول لتاريخ هذه الفترة لم يذكر عند وصفه لمروى أن قمبيز هو الذى أوجدها .

وحوالى سنة ٦٠ م قام اثنان من ضباط الحرس الامبراطورى الرومانى بأمر من الامبراطور «نيرون» فى رحلة لاكتشاف منابع النيل ، وقد تمكنا من التوغل جنوباً حتى خط عرض ٥ شمالاً [٥] . وفى ذلك يقول الفيلسوف سنيكا Lucius Annaeus Seneca [٥]

«حانت لى الفرصة لسماع تقرير قائدى المائة اللذين أرسلهما الامبراطور «نيرون» إلى

---

(١) هيرودوت فى مصر ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) Crawford ; op. cit. p. 26.

(٣) ديودور فى مصر ص ٦٦

(٤) الدكتور نجيب ميخائيل « تاريخ مصر » ص ٣١٦

(٥) Hermann ; Conquest by man. p. 134

منابع النيل واللذين يقولان فى تقريرهما : وصلنا إلى مستنقعات واسعة ، وهى منطقة غير معروفة حتى لأهالى البلاد ولم يصل إليها إنسان ، فالأعشاب المائية كانت من الكثافة لدرجة لا يستطيع الإنسان معها سبر غور الماء ، كما لا يمكن اختراق هذه المستنقعات . ورأينا على بعد صخرتين يندفع النيل بينهما بقوة . ولا نعلم هل هذا رافد من روافد النيل أو أنه منبعه ؛ أو هو هنا يظهر على سطح الأرض بعد أن يكون قد اختفى تحت الأرض فترة ما . وخروج الماء بقوة بين الصخور دليل على أنه يأتى من بقعة تتجمع فيها المياه التى تجرى فى هذا الإقليم » . وإنه من المحقق أن هذين القائدين وصلا إلى إقليم لم تطأه قدم إنسان أبيض بعد ذلك مدة ثمانية عشر قرناً ، وإن كل الاحتمالات تدل على أنهما وصلا إلى بحر الغزال [1] . ويرى بعض الباحثين [2] أن هذه البعثة وصلت إلى هذا المكان عن طريق الحبشة وليس عن طريق النيل الأبيض . كما يرى البعض [3] . أيضاً أنه من المحتمل أن تكون المعلومات عن البحيرات الاستوائية قد جاءت عن طريق هذه البعثة .

أما بطليموس فقد جاء بمعلوماته — التى هى أقرب إلى الصحة بوجه عام — من كتابات جغرافى يدعى مارينوس الصورى ، وهذا بدوره يقول إن تاجراً يونانياً يدعى « ديوجين » كان يرتاد الساحل الإفريقى الشرقى وزنجبار حدثه أنه بالسير إلى الداخل غرباً لمدة خمسة وعشرين يوماً يصل الإنسان إلى بحيرتين عظيمتين وجبال تكللها الثلوج ، وأن هذه المنطقة هى منبع النيل . وربما يكون المقصود بالبحيرتين بحيرتا فيكتوريا وألبرت ، أما الجبال فالمرجح أنها جبال « رويتزورى » التى تكللها الثلوج دائماً . ويقول الدكتور همفرس [4] ، إنه يعزى إلى العرب السبئيين فضل هذا الكشف وإنهم توغلوا فى إفريقية حتى بحيرة ألبرت حيث يمكن رؤية جبال « رويتزورى » من هناك .

هذا بالنسبة للفترة السابقة على الإسلام ، أما المراجع العربية نفسها فهى خالية عن قيام أية محاولة عربية للكشف عن منابع النيل ، إلا أن ناصر خسرو الرحالة

---

(١) Herrman ; op. cit p. 134

(٢) Crowford ; op. cit p. 19 — Johnston ; op. cit. 190/191

(٣) E.I. art « Al Nil ».

(٤) Humphreys ; op. cit p. 511
Johnston ; op. cit p. 22
Ball ; op. cit. p .100.

الفارسى يقول [1] : «سمعت أن سلطان مصر أرسل بعثة لتتبع شاطىء النيل سنة كاملة ودرسه ولكن أحداً لم يعرف حقيقة منبعه » . كما أن الغزولى [2] يذكر محاولة للملك الصالح نجم الدين أيوب ، فيقول : « وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشتهى أن يعرف أصل هذا النيل فرسم أن تشترى عبيد صغار زنوج وما شاكلهم جلب لم يستعربوا وأسلمهم لصيادى السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السمك وأن يكون قوتهم من السمك لا غير ، فإذا مهروا فى ذلك تصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل » . وقصة الغزولى هذه لم ترد فى أى مرجع آخر من المراجع العربية ، كما أنه لم يذكر لنا ماذا تم فى أمر هذه البعثة . وعلى كل فإذا كانت هذه المحاولة حقيقية فإنها لم تتم نظراً لأنه فى هذه الفترة تعرضت مصر لهجوم الصليبيين ثم انتهى الأمر بزوال الدولة الأيوبية .

ومن العجيب أن تظهر فى أوائل القرن الخامس عشر وهو القرن الذى عاش فيه الغزولى قصة تشبه كثيراً قصة الغزولى فيما عدا صاحب الفكرة وبعض الاستطرادات . وهذه القصة تتلخص [3] فى أن الرحالة الأسبانى بيرو تافور Pero Tafur عند عودته إلى القاهرة من جبل سيناء سنة ١٤٣٦ م قابل الرحالة الإيطالى نقولا دى كونتى Nicola dé Conti الذى أخبره أن بريسترجون Prester John (حاكم شوا Shoa) أراد أن يكتشف منابع النيل فأحضر أطفالا حديثى الفطام وأنشأهم على السمك النىء حتى كبروا فأرسلهم لاكتشاف المنابع . وعندما وصل هؤلاء إلى منابع النيل وجبال القمر وجدوا النيل يخرج بقوة من فجوة بين الصخور ، فأرسلوا فريقاً منهم للاستكشاف ، ولكن بعضهم رفض العودة والذين عادوا رفضوا التحدث بما رأوا وانتهت الحملة بالفشل .

وجدير بالذكر أن الغزولى توفى سنة ٨١٥ هـ أى ١٤١٢ م وبذلك تكون إذاعة قصته قد سبقت هذه القصة الغربية بأكثر من عشرين عاماً ، ولا يبعد أن تكون قصة الغزولى هى أصل هذه القصة الغربية .

ويجدر بنا أن نذكر هنا رحالة عربياً آخر هو عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى ، الذى أرسله القائد جوهر الصقلى فى عهد المعز فى سفارة إلى ملك النوبة ، وقد وصل

---

(١) سفرنامة ص ٤١ ولكنه لم يذكر من هو السلطان الذى أرسل هذه البعثة وهل هو أحد الخلفاء الفاطميين .

(٢) مطالع البدور فى منازل السرور جـ ٢ ص ٧٥

(٣) Crawford; op. cit p. 24

فى رحلته حتى المنطقة التى يلتقى فيها النيل الأبيض بالنيل الأزرق وألف كتاباً أودعه تقريره عن هذه الرحلة وأسماه « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » وهذا الكتاب مفقود للأسف الشديد ، ولم يصلنا منه إلا مقتطفات يسيرة ضمنها المقريزى كتابه الخطط فى الفصل الذى تحدث فيه عن النيل وبلاد النوبة ، ويتضح مما أورده المقريزى على لسان ابن سليم أنه لم يتعد مكان اتصال النيل الأبيض بالنيل الأزرق وأنه يجهل المنطقة الواقعة جنوب هذا المكان . ولكنا نلاحظ أن المعلومات التى أوردها ابن سليم عن المنطقة الواقعة بين أسوان وموقع الخرطوم الحالية معلومات قيمة وهامة لم يسبقه إليها كاتب آخر ، ولا زالت حتى اليوم تحتفظ بقيمتها العملية الكبرى ويرجع إليها كل من كتب عن بلاد النوبة وشمال السودان من الكتاب المحدثين شرقيين وغربيين .

ويذكر ابن فضل الله العمرى [1] رواية سمعها ، عن وصول رجل عربى إلى منابع النيل حيث يقول عند ذكره للبحيرة الثالثة الشمالية من بحيرات النيل : « حدثنى قاضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوى أن الأمير أبادبوس بن أبى العلى ابى دبوس [2] ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بنى عبد المؤمن حدثه أنه وصل إلى هذه البحيرة فى أيام هربه من بنى عبد الحق ملوك بنى مرين القائمين الآن » . فإن صحت القصة يكون أول عربى مسلم وصل إلى منابع النيل .

إلى جانب ذلك ، نجد فى المراجع العربية قصصا عن وصول قوم إلى منابع النيل وهى قصص تظهر تفاهتها من الوهلة الأولى ، وإنها كما يقول ابن عبد السلام المنوفى من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين [3] .

وقد لخص ابن فضل الله العمرى هذه الروايات فقال [4] : «والشائع على ألسنة الناس أن أحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة ، وجعل كل واحد منهم سبباً لعدم الوقوف على حقيقة أوله :—

فقال بعضهم : إنه انتهى أناس وصعدوا الجبل فرأوا ما وراءه بحراً عجاجاً ، ماؤه أسود كالليل يشقه نهر أبيض كالنهار ،يدخل الجبل من جنوبه ويخرج من شماله ،

(١) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٧١

(٢) أبو هذا الأمير هو أبو العلى الواثق (أبو دبوس) آخر أمراء الموحدين وتولى الملك ٦٦٥-٦٦٧

انظر Zambaur ; Manuel de Genealogie P. 73.

(٣) مخطوط الفيض المديد نسخة أسكندرية ص ١٧

(٤) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٧١

ويتشعب على قبة هرمس المبنية هناك . وزعموا أنه هرمس الهرامسة وهو المسمى بالمثلث بالحكمة ، ويزعم بعضهم أنه إدريس عليه السلام.

وقال بعضهم : إن أناساً صعدوا الجبل ، وبقى كلما تقدم منهم واحد ضحك وصفق بيديه وألقى روحه إلى ما وراء الجبل ، فخاف البقية أن يصيبهم مثل ذلك فرجعوا . وقال بعضهم إن ملكاً من ملوك مصر الأول جهز أناساً للوقوف على أوله فانتهوا إلى جبال من نحاس لما طلعت عليها الشمس وانعكست عليهم أشعتها أحرقت غالبهم فرجع البقية وقال البعض إنما هى جبال براقة كالبلور» .

وهناك قصة شائعة فى المراجع العربية تنسب إلى الليث بن سعد [١] عن رجل يقال له حائد بن أبى شالوم بن العيصى بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام ، أراد أن يحيط علماً بمخرج النيل فسار ثلاثين سنة فى العمران وثلاثين سنة فى أراضى الخراب ، وهو لايفارق النيل إلى بحر أخضر فرأى النيل شق ذلك البحر ، فركب دابة هناك من دواب البحر سخرها الله له ، فقطع البحر ووصل إلى أرض من حديد جبالها وأشجارها من حديد ، ثم وصل إلى أرض من نحاس جبالها وأشجارها من نحاس ، ثم وقع فى أرض من ذهب جبالها وأشجارها من ذهب ، ثم وقع فى أرض من فضة جبالها وأشجارها من فضة إلى أن انتهى إلى سور عظيم منيع من ذهب وهناك قبة عالية من ذهب لها أربعة أبواب والماء ينحدر من ذلك السور ويستقر فى تلك القبة ثم يخرج من الأبواب الأربعة أربعة أنهار ، ثلاثة منها تفور فى الأرض والرابع يجرى على وجه الأرض وهو النيل ، أما الثلاثة الأول فهى سيحون وجيحون والفرات . ثم آتاه آت وأخبره بأن هذه الجنة .

ولكنا نلاحظ أن بعض الكتاب الذين أوردوا هذه القصة لم يصدقوها وإنما أوردوها كرواية متداولة . ويعلق ياقوت على هذه القصة بأنها خبر شبيه بالخرافة [٢] . كما أن ابن عبد السلام المتوفى [٣] يقول أنه لا مرية فى بطلان هذه الحكاية ، وأن الليث ابن سعد لم يؤكد هذا الخبر وإنما هو قال بلغنى ، وإن هذا يعد خبراً والخبر يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب ، واحتماله الكذب هنا أرجح .

إلى غير ذلك من قصص عن ملوك ما قبل الطوفان — أوردها المقريزى [٤] وغيره — وصلوا إلى منابع النيل حيث نظموا خروج الماء منها .

---

(١) ولد بقرية قرقشنده سنة ٩٤ ، هـ ومات سنة ١٧٥ هـ

(٢) معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦٨—٨٧٠

(٣) مخطوطه السابق ص ١٨

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٥٢ وما بعدها .

أما معلومات الكتاب العرب عن منابع النيل فيمكن إجمالها فى أربعة آراء :

رأى يشترك فيه معظم الكتاب العرب حتى الذين يذكرون منهم منابع أخرى للنيل ، وهذا الرأى يستند إلى الأحاديث النبوية التى تقول بخروج النيل من الجنة أو من سدرة المنتهى . وقد ذكرنا هذه الأحاديث بالتفصيل فى الفصل الأول من الباب الأول . وهؤلاء الكتاب لايرون تعارضاً بين خروج النيل من الجنة وبين مايذكرون من أماكن أخرى يخرج منها النهر ، وفى ذلك يقول أحمد بن عبد السلام المتوفى [1] « اعلم أنه لا خلاف بين عامة المسلمين فى أن أصل النيل يخرج من الجنة من أصل سدرة المنتهى لتصريح الأحاديث الصحيحة بذلك . وأما الخلاف المذكور فى هذا الفصل وفى غيره من الكتب المصنفة فى ذلك فإنما هو فى تعيين المكان الذى ينبع منه من الأرض بعد خروجه من الجنة» . فهو يرى أن النيل يخرج من الجنة ثم يأتى إلى الأرض بطريقة ما ليخرج منها . هذا وإن كان الدمشقى شيخ الربوة [2] يرى أن هذه الجنة أرضية لا سماوية .

ورأى ثان يعترف صراحة بأن منبع النيل غير معروف ، وهو رأى يقول به قلة من الكتاب منهم الإصطخرى [3] وابن حوقل من [4] القرن الرابع الهجرى ، فهما يتفقان أن النيل لايعلم مبتداه ، وذلك لأنه يخرج من مفاوز وراء أرض الزنج لاتسلك . ولعل هذا الاتفاق فى الرأى بين الاثنين راجع إلى ما يقال من أن ابن حوقل اتخذ من كتاب الإصطخرى ــ الذى أعطاه له ليراجعه ــ أساساً لما كتبه .

أما الرأى الثالث فنستطيع القول بأن له أصلاً تاريخياً ، وقد أورده ابن الفقيه [5] فيقول : « قال أبو الخطاب ، قال المشترى بن الأسود غزوت بلاد أنبية عشرين غزاة من السوس الأقصى فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من رمل يخرج النيل من تحته » . وهو رأى نستطيع أن نقارنه بما نقله بلنيوس عن الملك جوبا الثانى من أن النيل يخرج من جبل فى غرب موريتانيا غير بعيد من المحيط .

ولعل الرأى الرابع هو أقرب الآراء إلى الصحة بوجه عام ، وقد قالت به الغالبية العظمى من الكتاب العرب . وهو رأى يقول بخروج النيل من جبال القمر جنوب خط الاستواء . وهى معلومات أخذها العرب من جغرافية بطليموس ، وكان أول من

---

(١) الفيض المديد ص ٢٢
(٢) سبق إيضاح ذلك فى الفصل الأول من الباب الأول
(٣) الإصطخرى : مسالك الممالك ص ٥٠
(٤) ابن حوقل : صوره الأرض ص ١٤٧ ، ص ١٤٨
(٥) « مختصر كتاب البلدان » ص ٦٤

نقلها الخوارزمى . ولقد ظلت نظريات بطليموس هذه سائدة سواء لدى العرب أو الجغرافيين الأوربيين — حتى زمن الاكتشافات الحديثة . ونلاحظ بسهولة أنه خلال القرون المتعاقبة لم يضف الكتاب العرب إلى هذه المعلومات شيئاً ، بل نقل بعضهم عن بعض مع شيء من الاختصار أو الإفاضة ، حتى المؤلفات التى كانت وقفاً على النيل فقط لم تأت بجديد بل هو سرد لآراء المتقدمين .

وخلاصة هذا الرأى هو تجمع ماء النيل من جبال القمر فى أنهار تصب فى بحيرات جامعة حيث يخرج النيل منها . والخلاف الذى قد نجده فى المراجع العربية هو فى تحديد موقع جبال القمر بالنسبة لخط الاستواء ، وفى عدد البحيرات الجامعة لمياه هذه الأنهار . فبينما بطليموس يحدد موقع الجبال جنوب خط الاستواء باثنتى عشرة درجة ونصف [١] ، يحددها ابن سينا [٢] ، وابن مماتى [٣] ، والبغدادى [٤] ، وأبو الفدا [٥] ، بإحدى عشرة درجة أما الإدريسى [٦] وابن خلدون [٧] يجعلون موقعها فى الدرجة السادسة عشرة جنوب خط الاستواء . على أن ابن خرداذبة [٨] يقول إن جبل القمر فى اليمن . أما ابن رسته [٩] فيسمى هذه الجبال بجبال البين .

أما عدد البحيرات ، فالغالبية العظمى وعلى رأسهم الخوارزمى [١٠] يذكرون أنها ثلاثة بحيرات ، اثنتين منها جنوب خط الاستواء والثالثة شماله . وبعضهم وعلى رأسهم المسعودى [١١] يرى رأى بطليموس فى أنها اثنتان فقط ، ولو أن عبد اللطيف البغدادى [١٢] لم يذكر إلا بحيرة واحدة فقط . كما اختلف الكتاب العرب فى تقدير مساحة هذه البحيرات .

---

(١) Ball ; Op. Cit. p. 100

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٢

(٣) قوانين الدواوين ص ٧٣

(٤) الإفادة والاعتبار ص ٥

(٥) تقويم البلدان ص ٦٤

(٦) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٤

(٧) المقدمة (جـ ١) ص ٤١

(٨) المسالك والممالك ص ١٧٩

(٩) الأعلاق النفسية ص ٩٠

(١٠) صورة الأرض ص ١٠٦–١٠٧

(١١) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٠٥

(١٢) الإفادة والاعتبار ص ٤٧

ويرى كثير من العلماء المحدثين ١ أن البحيرتين اللتين تقعان جنوب خط الاستواء هما بحيرتا فكتوريا والبرت ، أما البحيرة الثالثة التي يطلقون عليها اسم كورى ، فبينما يرى البعض ٢ أنه ربما يكون المقصود بها بحيرة تشاد ، يرى آخرون ٣ أن هذه البحيرة كانت موجودة فعلاً في المنطقة التي يلتقي فيها النيل الأبيض بالسوباط وبحر الغزال ولم يبق من آثارها الآن سوى بحيرة نو وهو رأى له وجاهته .

إلى جانب هذه البحيرات الثلاث يذكر قلة من المؤلفين العرب بحيرة أخرى يخرج منها نهر يتصل بالنيل في أرض النوبة . والمقصود بهذا النهر بلاشك هو النيل الأزرق وإن كان بعض الجغرافيين المحدثين ٤ يرون أن هذا الرافد هو السوباط وأن البحيرة التي يخرج منها هي بحيرة جارتوك وقد استمد الخوارزمي معلوماته عن هذا النهر من جغرافية بطليموس ، ويصفه لنا الخوارزمي ٥ بقوله : « وعين مدورة مركزها على خط الاستواء ومصبها إلى النيل عند مدينة النوبة وقطر العين ثلاثة أجزاء ، ويخرج منها نهر مصبه في النيل مماس للإقليم الأول . وخليج فيما بين نهر هذه العين والنيل فوق مدينة النوبة » . وقد وقع الخوارزمي في الخطأ الذي وقع فيه بطليموس وغيره من المؤلفين اليونان والرومان ، فالخوارزمي يقصد بالخليج الذي يخرج من هذا النهر ويصب في النيل نهر العطبرة . وقد كان بطليموس ومن سبقه من المؤلفين يرون أن نهر العطبرة ويسمونه Astaboras والنيل الأزرق ويطلقون عليه Astapus نهر واحد افترق إلى هذين الفرعين قبل أن يتصل بالنيل .

وقد ذكر الإدريسي هذا النهر أيضاً وإن كان قد جعل اتصاله بالنيل عند مدينة بلاق (جزيرة فيلاى) جنوب أسوان ، وقد وصفه ٦ بأنه نهر كبير منبعه من فوق خط الاستواء وفي آخره نهاية المعمور من جهة الجنوب ، ثم يتجه شمالاً بغرب مخترقاً الحبشة حتى يصل إلى أرض النوبة فيصب هناك في ذراع النيل الذي يحيط بمدينة بلاق .

---

(١) Ball ; op. cit. p. 100

(٢) E.I. art «Al Nil».

(٣) Toussonn ; op. cit. T.I. p. 30

(٤) رزقانة : نهر النيل مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١٢ الجزء الأول مايو ١٩٥٠ ص .

(٥) صورة الأرض ص ١٠٩

(٦) صفة المغرب ص ٢٣

ويذكر أبو صالح الأرمنى [1] فى تاريخه ثلاثة أنهار فى بلاد السودان ، أحدها يعرف بالأبيض والآخر يعرف بالأسود يأتى إلى النيل من الشرق ويجاوره نهر أصفر كالزعفران . ولعله يقصد بالنهر الأبيض «النيل الأبيض» والنهر الأسود «النيل الأزرق» والنهر الأصفر «العطبرة» .

ويصف أبو الفدا [2] نهراً أسماه نهر الهو على أنه من الأنهار التى ذكرها بطليموس يخرج من جبل يمتد من جنوب خط الاستواء إلى شماله وأن النهر يلتوى كالنون ثم يصب فى النيل عند مدينة ملل التى هى من مدن الكفار المهملين . والوصف الذى ذكره أبو الفدا يطابق إلى حد كبير وصف النيل الأزرق وانحناءه كالنون قبل اتجاهه للشمال الغربى .

والخطأ الذى وقع فيه بطليموس وغيره من الكتاب العرب الذين ذكروا هذا النهر هو فى تحديد مخرجه حيث جعلوا البحيرة التى ينبع منها فى منطقة خط الاستواء ، فى حين أن بحيرة تانا التى يخرج منها النيل الأزرق تقع على خط عرض ١٢ شمالاً .

ولقد ربط الرحالة الأوربيون الذين اكتشفوا منابع النيل بين سلاسل جبال روبنزورى وقممها الثلجية والتى تقع إلى الجنوب الغربى بين بحيرتى ألبرت وإدوارد ، وبين جبال القمر ، وقد ذكرها الرحالة سبيك باسم **Unyamweza Country** ، [3] أى مملكة القمر . ولكن البعض [4] يرى أن جبال القمر ليست سلسلة روبنزورى بل هى جبال أخرى موجودة فى الحبشة وأن البحيرتين اللتين ذكرهما بطليموس على أنهما منبع النيل موجودتان أيضاً فى الحبشة وإحداهما هى بحيرة تانا أما البحيرة الأخرى فيحتمل أنها بحيرة أشانجى **Ashangi** ويحاولون تأييد رأيهم بأن منطقة وسط إفريقيا جنوب خط ١٠ شمالاً وغرب النيل الأزرق لم يكن معروفاً حتى آخر القرن الثامن عشر الميلادى .

وأول من ذكر هذه الجبال باسم جبال القمر هو بطليموس ، وقد تبعه فى ذلك المؤلفون العرب وإن اختلفوا فى تشكيل لفظة القمر . فأغلبهم أوردها بفتح القاف والميم نسبة إلى القمر وجعلوا لذلك أسباباً مختلفة . فالمسعودى [5] يرى أن سبب هذه التسمية

---

(١) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ١٢٨

(٢) تقويم البلدان ص ١٥٣

(٣) E. T. art « al Nil ».

(٤) Crawford ; op. cit. p. 17/19 — 26

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦١

هو ما يظهر من تأثير القمر فى الجبل عند زيادته ونقصانه من النور والظلام فى البدر والمحاق . أما ابن خلدون [١] فيقول إن نسبة هذا الجبل إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوءه . وقد نقل السيوطى [٢] عن التيفاشى أنه سمى بذلك لأن العين تقمر منه إذا نظرت إليه لشدة بياضه ولذلك أيضاً سمى القمر قمراً . أما القرمانى [٣] الدمشقى فيرى أن سبب هذه التسمية هو أن القمر لايطلع عليه أصلاً لخروجه عن خط الاستواء .

ولبعض الباحثين [٤] تعليل لسبب هذه التسمية ، نرى إتماماً للفائدة أن نورده لأنه إن صح يكون للعرب القدماء فضل ارتياد منابع النيل . وهذا الرأى ينحصر فى أن جبال القمر تكللها الثلوج طوال العام وأن من معانى لفظة القمر « تحير البصر من الثلج » [٥] . فالارتباط ظاهر بين لفظة القمر بهذا المعنى وبين هذه الجبال المكللة بالثلوج . ولما كان — فى رأيهم — أن لفظ القمر بهذا المعنى لم يكن شائعاً فى العصر الإسلامى الذى كتب فيه مشاهير الجغرافيين العرب ، لذلك افترض أنها كانت شائعة فى لغة العرب فى الأزمان القديمة وأن العرب السبئيين كانوا يستعملونها ، وعلى ذلك فهذا فى رأيهم دليل على ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين من أن فضل ارتياد منابع النيل فى القديم يرجع إلى العرب السبئيين الذين كانوا يستعمرون ساحل إفريقية الشرقى ويتوغلون فى داخلها للتجارة واستخراج الذهب ، وأن معلومات مارينوس الصورى ، وبطليموس ترجع فى أصلها إلى ما عرفه العرب القدماء فى رحلاتهم تلك عن البحيرات العظمى وعن الجبال التى تحير فيها بصرهم من بياض الثلج فسموها جبال القمر .

ويذكر الأستاذ تايلور [٦] — أحد العلماء البريطانيين — أن سبب تسمية جبال القمر أنه مرتفع جداً حتى يصل إلى دائرة القمر .

أما النطق الآخر للفظ فهو بضم القاف وسكون الميم . وقد أورده على هذا النحو ياقوت وابن سعيد [٧] . وجاء فى الخطط المقريزية [٨] أنه يوجد فى بحر الزنج جزيرة

---

(١) المقدمة (جـ ١) ص ٤٨
(٢) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٤
(٣) أخبار الدول ص ٤١٥
(٤) دكتور جمال مرسى بدر « نهر النيل فى تاريخ الفكر الجغرافى » المجلة عدد أكتوبر سنة ١٩٥٧ .
(٥) اللسان — وتاج العروس للزبيدى .
(٦) Crawford; op. cit p. 26.
(٧) ابن خلدون جـ ١ ص ٤٨
(٨) جـ ١ ص ٥١

يطلق عليها جزيرة القمر بضم القاف وإسكان الميم والراء المهملة ، طولها أربعة أشهر فى عرض عشرين يوماً (لعله يذكر جزيرة مدغشقر) ، بها عدة بلاد كثيرة منها قمرية وإليها ينسب الطائر القمرى . وأن هذه الجزيرة ضاقت بأهلها فبنوا على الساحل محلات يسكنونها فى سفح جبل يعرف بهم يقال له جبل القمر وينصب منه النيل .

أما ابن عبد السلام المنوفى [1] فينقل عن الحافظ ابن كثير أنه ذكر فى تاريخه الكبير أن اسم هذه الجبال تعرف بجبال القمراى — بضم القاف وسكون الميم وزيادة ألف وياء إلى آخر الكلمة — أى البيض .

وكما اختلف الكتاب العرب فى نطق اسم الجبال ، اختلفوا فى لونها ، فبعضهم كأبى صالح يقول إنها [2] حمراء وآخرون يصفونها بأنها [3] بيضاء لما غلب عليها من الثلج وفريق يرى أنها جبال سود ترى من بعيد كأن عليها الغمام [4] .

* * *

وقد أشركت العرب مع النيل أنهاراً أخرى ، على أنها تخرج من نفس منابعه ، أو أنها تتفرع منه . وهذه الأنهار مرتبة حسب التسلسل التاريخى فى المؤلفات العربية . هى :—

(١) نهر مهران أو السند

ولعل أول من زعم — من الكتاب العرب — أن نهر السند و النيل هما نهر واحد ، الكاتب العربى الشهير الجاحظ (القرنين الثانى والثالث الهجرى) . وقد نقد المسعودى رأى الجاحظ هذا فى كتابه « مروج الذهب »[5] إذ يقول : « وقد ذكر الجاحظ أن نهر مهران السند من نيل مصر ، واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه . فلست أدرى كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب « الأمصار وعجائب البلدان » ولم يعلم أن مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالى بلاد السند » .

ويشارك الجاحظ فى رأيه هذا ، ابن الفقيه [6] واليعقوبى [7] (القرن الثالث

(١) الفيض المديد ص ٧
(٢) تاريخ الشيخ أبى صالح ص ١٢٧—١٢٨
(٣) أبو الفدا تقويم البلدان ص ٦٤
(٤) العمرى مسالك الأبصار جـ ١ ص ٧٠
(٥) جـ ١ ص ٢٠٥
(٦) مختصر كتاب البلدان ص ٦٣
(٧) كتاب البلدان ص ١٢٤

الهجرى) فيرى اليعقوبى أن النيل يجرى من وراء علوة إلى أرض السند فى النهر الذى يقال له مهران كما يجرى فى نيل مصر ، ويستشهد على ذلك بأن وقت زيادتهما واحد ، وأن فى الجزيرة التى بأرض علوة مثل ما بجزائر السند من الفيلة والكركدنات ، وأن التماسيح موجودة فى نهر مهران كما فى نيل مصر . واليعقوبى يقصد – على ما يظهر . بجزيرة علوة المنطقة الواقعة بين نهرى العطبرة والنيل الأزرق والتى كانت تعرف فى المؤلفات اليونانية واللاتينية القديمة بجزيرة مروى .

ووجه العجب أن كل ما يستند إليه الجاحظ وابن الفقيه واليعقوبى هو أن وجود التماسيح فى النيل والسند دلالة على كونهما نهراً واحداً . وقد رأينا كيف فند المسعودى – وهو من رجال القرن الرابع الهجرى – هذا الرأى وذكر المنابع الحقيقية لنهر السند .

ولم يلق رأى الجاحظ هذا تعضيداً من المؤلفين العرب ، فلم يذكر بعد ذلك إلا فى المؤلفات المتأخرة فى القرن التاسع الهجرى وبعده كمؤلفات الأقفهسى [1] والسيوطى [2] وغيرهم ، على أنه رأى من الآراء المختلفة دون تأييد أو تفنيد .

أما ابن عبد السلام [3] المتوفى فقد ذكر هذا الرأى منسوباً إلى الأمام الشافعى نقلاً عن كتاب فى مناقب الإمام لأبى القاسم عبد المحسن بن عثمان بن غانم المقدسى ، من أن النيل يمر بأرض الهند واستند فى ذلك إلى وجود الخيزران والقنا فى النيل . هذا وإن كان ابن عبد السلام يشك فى نسبة هذا الكلام إلى الإمام الشافعى بل ينسبه إلى الربيع [4] .

ولعل الجاحظ ومن تبعه فى رأيه هذا أخذوا فكرة اتصال النيل بالسند عن الفرس وغيرهم من الأمم السابقة . إذ يروى الأستاذ هرمان [5] أن الإسكندر الأكبر عندما وصل إلى نهر السند (حوالى سنة ٣٢٦ ق.م) دهش هو ورجاله عندما وجدوا النهر مليئاً بالتماسيح التى – كما يعتقدون – لا توجد إلا فى النيل ، فراودتهم فكرة اتصال هذا النهر بالنيل وأنه قد يكون أحد منابعه ، وأن وجود التماسيح دليل على أن آسيا

---

(١) مخطوط نيل مصر وأهرامها – نسخة الإسكندرية ص ٤٣

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٦

(٣) الفيض المديد ص ١٢ ، ص ٢٧

(٤) هو أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادى المؤذن صاحب الشافعى وراوية كتبه والثقة الثبت توفى سنة ٢٧٠ هـ (انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكى الطبعة الأولى القاهرة – ج ١ ص ٢٥٩ ، ص ٢٦١) .

(٥) Herrmann ; op. cit. p. 116

وأفريقيا متصلتان فى مكان ما نحو الجنوب ، ثم زاد فى اقتناعهم وصولهم بعد ذلك بأسابيع إلى نهر هداسبس Hydaspes (أحد فروع السند ويعرف الآن باسم جيلوم Jhelum) ووجدوا فيه أيضا التماسيح ، عند ذلك اعتقدوا أن هذين النهرين هما المنابع المجهولة لنهر النيل وأن الثلوج الذائبة المنحدرة من تلك الجبال الهائلة إلى هذين النهرين هى نفسها المياه التى يأتى بها النيل على مدار السنين . وعلى ذلك فإنه من الممكن الوصول إلى النيل بالإبحار فى أحد هذين النهرين .

وعندما علم الإسكندر أن «أردشير الثالث Artaxerxes» (٣٥٨–٣٣٧ ق.م) أحد ملوك فارس فكر فى تجفيف نهر السند — الذى كان يعتقد أنه المنبع الحقيقى للنيل — حتى يؤدب بذلك العصاة المصريين ، أمر «أى الإسكندر» قائد أسطوله نياركوس Nearchus أن يبنى أسطولاً ليعود به إلى مصر عن طريق السند والنيل كما أنه كتب إلى أمه أنه اكتشف منابع النيل .

ولكنه سرعان ما علم أن نهرى السند وهداسبس يصبان فى المحيط وأنه لا علاقة لهما بالنيل فأدرك خطأه واستعاد خطابه إلى أمه .

لذلك فإنه من المرجح أن فكرة الفرس الأقدمين عن وجود اتصال بين السند والنيل قد وجدت طريقها إلى مؤلفات الجاحظ وغيره ، وأنه تلقاها ضمن ما انتقل إلى العرب من تراث الفرس ومعارفهم . ولعله مما زاد هذه الفكرة رسوخاً لدى الجاحظ وغيره اتصال النيل الأزرق بالنيل ، فاعتقدوا أنه نهر السند . يفسر لنا ذلك ما يراه اليعقوبى من اتصال جزيرة علوة بجزيرة السند ، وأن النيل يجرى من وراء علوة إلى أرض السند . وكما قلنا سابقاً أنه من المرجح أن اليعقوبى يقصد بجزيرة علوة ، جزيرة مروى وأنه اعتقد أن النيل الأزرق الذى يصب فى النيل فى هذه المنطقة ، ليس رافداً له ، بل هو نهر السند يخرج من هناك إلى الهند .

(ب) أما النهر الثانى فيختلف اسمه باختلاف الكتاب الذين يختلفون أيضا فى مكان خروجه . والمسعودى هو أول من ذكر هذا النهر فيقول [1] : « رأيت فى جغرافيا النيل مصوراً ظاهراً من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عيناً ، فتنصب تلك المياه إلى بحيرتين هنالك كالبطائح ، ثم يجتمع الماء منها جارياً فيمر برمال هنالك وجبال ثم يخترق أرض السودان مما يلى بلاد الزنج فيتسع منه خليج يصب إلى بحر الزنج وهو بحر جزيرة قنبلو وهى جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين إلا أن لغتهم زنجية . وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين

(١) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٠٥–٢٠٦

وهم أرباب المراكب أنهم يشاهدون فى هذا البحر فى الوقت الذى يكثر فيه زيادة النيل بمصر أو قبل الأوان بمدة يسيرة ماء يخرق هذا البحر ويشق قطعة منه من شدة جريانه يخرج من جبال الزنج عرضه أكثر من ميل ، عذباً حلواً ينكدر فى إبان الزيادة بمصر وصعيدها (١) » .

ويعنى المسعودى بجغرافية النيل «جغرافية بطليموس» ولكن بطليموس لم يذكر هذا الخليج الذى يصب فى بحر الزنج ، ولعل المسعودى اختلط عليه أمر النهر الذى ذكره بطليموس آتياً من الجنوب الشرقى ليصب فى النيل (النيل الأزرق) وخلط بينه وبين خليجه هذا ، خصوصاً وأن المسعودى يجعل مخرج هذا الخليج من النيل بعد تركه بلاد الزنج ، فربما اعتقد أن هذا النهر الذى فى مصور بطليموس خليج يخرج من النيل ليصب فى بحر الزنج . ولا نعلم بالضبط المكان الذى جعله المسعودى مصباً لهذا الخليج ، وأين تقع جزيرة قنبلو هذه . ويرجح البعض [١] أن المقصود بجزيرة قنبلو هى إحدى جزر القمر Comoro Islands (شمال غرب مدغشقر) وبالأخص الجزيرة الغربية منها وتقع تجاه مصب نهير ليفومه ، وأنها على مسيرة يوم أو يومين من الشاطىء . على أن بعض المراجع الأخرى [٢] ترجح أن يكون هذا النهر هو نهر وبى بالصومال الإيطالى .

ونلاحظ أن الربط بين النيل وهذا النهر لم يصر شائعاً فى المؤلفات العربية إلا ابتداء من القرن التاسع الهجرى ، حيث يذكره ابن سعيد ويجعل مخرجه من بحيرة كورى . كما أن الدمشقى شيخ الربوة يسميه نهر الدمادم ومقدشو الزنج ، ويتفق مع ابن سعيد فى خروجه من بحيرة كورى ، ويصفه بأنه [٣] : بحر كبير غزير الماء يخرج أيضاً من بحيرة كورى فيمر فى مجالات دم دم السودان ولملم الزنوج وقلجور وحجامى الحبش ، بين جبال شم ثم لا ينتفع به مسيرة شهر ثم ينعطف نحو الشرق بعشرة أيام ثم يمر ببلاد خاسة العليا وإبلين وأكاكى وكناور نحو من شهر ونصف شمالاً وشرقاً ثم يرجع إلى جهة الجنوب فيمر بأرض الهاوية إلى مقدشو الحمراء ، وتفترق منه فرقة تسمى نهر وبى وتسقى بلاد زيلع وباضع وزنجبار الساحل وبربرا ، فإذا قارب أرض مقدشو افترق ثلاث فرقات ، أحدها يسمى الجب الكبير والثانية الجب الصغير والثالثة بحر دمدم كما هو ، ثم يصب الثلاثة فى بحر الزنج من جهة الجنوب فيما هو خلف خط الاستواء بدرجتين أو ثلاث . »

---

(١) المسيو جيان « وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية » تعريب يوسف كمال ص ٨٠–٨١

(٢) E.I. art. «Al Nil».

(٣) نخبة الدهر ص ١١١

والدمشقى بلا شك يقصد نهر وبى ونهر الجب Juba المعروفين فى الصومال الإيطالى .
ونرى فى وصف القلقشندى ما يؤيد هذا الرأى حيث يقول [١] إن هذا النهر بعد خروجه من بحيرة كورى يذهب إلى مقدشو من بلاد الحبشة المسلمين على ساحل البحر الهندى مقابل بلاد اليمن .

أما ابن فضل الله العمرى [٢] فيجعل خروج هذا النهر من البحيرة الشرقية من بحيرتى النيل اللتين تقعان جنوب خط الاستواء ، وأنه يصب فى البحر الهندى . ويتبعه فى ذلك المقريزى [٣] الذى ينقل كلام العمرى بالنص ولو أنه لم يشر إليه . ولم يذكر المقريزى ولا العمرى اسماً لهذا النهر وإن جعلا مصبه أيضاً فى البحر الهندى . ولا نعلم هل هذا النهر الذى ذكراه هو نفس النهر الذى ذكره الدمشقى أم أنه نهر آخر .

(جـ) نيل غانة ويطلقون عليه أيضاً نيل السودان ونيل الزنج . والمقصود به نهر النيجر المعروف .

وقد ظهر هذا الخلط بين النيل والنيجر منذ القرن الخامس [٤] الهجرى (١١ م) لأول مرة فى مؤلف البكرى « المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب [٥] » . عند وصفه لبلاد السودان ومدن غانة وأنها تقع على النيل وسقيا أرضها منه ، وهو يقصد بالنيل نهر النيجر لا نيل مصر . ثم جاء الإدريسى [٦] فى القرن السادس ليزيد ذلك إيضاحاً وتأكيداً ، فجعل مخرج نيل مصر ونيل السودان من بحيرة واحدة وأنه بينما يتجه نيل مصر شمالاً يخرج نيل السودان متجهاً إلى الغرب وعليه أكثر بلاد السودان .

ثم أخذ رأى الإدريسى فى الشيوع منذ القرن السابع حيث ظهر بعد ذلك فى مؤلفات ابن سعيد ثم ذاع فى المؤلفات العربية ، فالدمشقى [٧] يصف نهر غانة وخروجه من بحيرة كورى ويجرى بين جبال من المشرق إلى المغرب حتى يصب فى البحر المحيط المغربى المسمى اقيانوس الأخضر ، وأن هذا النهر يشبه النيل فى زيادته ونقصانه وفلاحة أراضيه .

---

(١) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٠

(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٦٨

(٣) الخطط جـ ١ ص ٥٣

(٤) لعل ابن سليم الأسوانى هو أول من خلط بين النيل والنيجر إذ يذكر عند ذكره علوة أن النيل الأبيض يأتى من الغرب وأنه يجتمع فى بلد السودان وأنه سأل بعض المغاربة عن هذا النيل الذى يأتى من عندهم . انظر المقريزى الخطط جـ ١ ص ١٩٢ وما بعدها .

(٥) ص ١٧٧

(٦) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٥

(٧) نخبة الدهر ص ١١٠

وفى أول سنة (٧٥٣هـ – فبراير سنة ١٣٥٢ م) زار ابن بطوطه غرب إفريقية وارتاد المنطقة المعروفة الآن بنيجريا ورأى نهر النيجر ، وقد سماه النهر الأعظم وأنه هو النيل وأن هذا النهر عند مدينة يوفى – وهى أكبر بلاد السودان – ينحدر إلى بلاد النوبة ثم إلى دنقلة ثم إلى جنادل هى آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان . فهو على ذلك يعتقد أن النيجر والنيل نهر واحد . وفى الغالب فإن ابن بطوطه جاء بهذه الفكرة من سكان البلاد البلاد أنفسهم ، وأنهم كانوا يسمون نهرهم النيل ، يؤيد ذلك ما قاله ابن فضل الله العمرى [١] : « وحدثنى الشيخ الثبت سعيد الدكالى – وهو ممن أقام بمالى [٢] خمساً وثلاثين سنة مضطرباً فى بلادها مجتمعاً بأهلها – قال : المستفيض ببلاد السودان أن النيل فى أصله ينحدر من جبال سود تبان على بعد كأن عليها الغمائم ، ثم يتفرق نهرين يصب أحدهما فى البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمة الجنوبى ، والآخر يصل إلى مصر حتى يصب فى البحر الشامى » .

*

نرى مما تقدم أن العرب قد ربطت بين النيل وبين أنهار ثلاثة أخرى لا تمت إليه بصلة . فأما اتصال النيل بالسند فقد فنده المؤلفون العرب أنفسهم كما رأينا . وقد تأثر الذين وقعوا فى هذا الخطأ – فى الغالب – بما كانت الفرس تعتقده من اتصال النيل بالسند واتصال آسيا بافريقية ناحية الجنوب . كما أن فكرة الاتصال بين أفريقيا وآسيا ظلت عالقة فى أذهان الغربيين حتى أواخر العصور الوسطى فى الوقت الذى كان العرب يؤكدون بإمكان الدوران حول افريقية ، خصوصاً من كان منهم يقيم فى شرق إفريقية [٣] .

أما الخلط بين النيل ونهر غانة ونهر مقدشو ، فلعل للمؤلفين العرب بعض العذر فى ذلك ، فإنه إذا أخذنا بالرأى القائل بأن بحيرة كورى كانت فى المكان الذى يلتقى فيه النيل الأبيض بالسوباط وبحر الغزال وتمثلها الآن بحيرة نو ، استطعنا أن نرجح أن هؤلاء المؤلفين ظنوا أن بحر الغزال هو نيل غانة ، وأن نهر السوباط هو نيل مقدشو .

ولا يقلل هذا الربط بين النيل وغيره من الأنهار من شأن الجغرافيين العرب ، فإنه حتى القرن السابع [٤] عشر كانت خرائط إفريقيا تظهر وسطها بحيرة ينبع منها الكنغو والزمبيزى والنيل .

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٧٠

(٢) إحدى الممالك التى كانت تقع على نهر النيجر

(٣) Herrman ; op. cit. p. 422

(٤) Tousson ; op. cit. T.I. p. 29

بل إن الأوربيين أنفسهم كانوا يعتقدون أن النيل والنيجر نهر واحد، وعندما اكتشف البرتغاليون السنغال عام ١٤٤٥ م اعتقد الجميع أنهم وصلوا إلى مصب الفرع الغربى للنيل (١) .

والتبس الأمر على الرحالة الأوربيين كما التبس على ابن بطوطه من قبل وخلطوا بين النيل والنيجر ، قالرحالة الإيطالى انطونيو مالفانت (١) Antonio Malfante الذى توغل جنوب الصحراء الكبرى سنة ١٤٤٧ م — أى بعد ابن بطوطه بأقل من قرن — كتب يقول « وفى البلاد التى تقع إلى الجنوب يجرى نهر كبير يفيض فى وقت معين ، وهذا النهر يمر على تمبكتو (على نهر النيجر) ويأتى من مصر ، وهو الذى يصب فى البحر عند القاهرة وأنه كان من الممكن الوصول إلى مصر فى هذا النهر لولا الشلالات التى تعترض النهر ولا يمكن عبورها ! » .

وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى تم الكشف عن حوض النيجر من منبعه إلى مصبه ، وتبين أنه نهر مستقل لا علاقة له بالنيل.

---

(١) Herrmann, op. cit. p. 412

الفصل الثانى

المجرى

إن خروج النيل من الجنوب إلى الشمال حقيقة كانت معروفة تماماً للمراجع العربية التى تؤكد دائماً أن النيل هو النهر الوحيد فى العالم الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال مخالفاً فى ذلك سائر الأنهار التى تجرى من الشمال إلى الجنوب حيث أن الشمال – فى رأيها – أكثر ارتفاعاً عن الجنوب وأكثر مياها [1] .

ولا شك أن معلومات العرب عن مجرى النيل كانت أوضح وأدق من معلوماتهم عن منابعه فهم قد عرفوا النيل ومجراه فى مصر كما أن المسلمين قد وصلوا فى توغلهم الحربى حتى دنقلة كما استطاع بعضهم كابن سليم أن يصل حتى منطقة الخرطوم الحالية ، فهذه المنطقة بجنادلها كانت معروفة لهم .

هذا وإن اعتمدوا – فى أول الأمر على الأقل – على المراجع القديمة لتكوين فكرة كاملة عن مجرى النيل ، وخاصة وصف بطليموس ، ويمكن ملاحظة ذلك بمقارنة خريطة بطليموس بخريطة الخوارزمى . كما أن وصف المؤلفين السابقين على الإسلام لمجرى النيل خاصة فى منطقة انحناءته الكبرى والتقائه بالنيل الأزرق وعطبرة كان أكثر دقة مما أورده المؤلفون العرب .

ووصف الكتاب العرب لمجرى النيل يأخذ طابعاً أقرب إلى الصحة منذ وصوله إلى علوة متجهاً شمالاً ، أما إلى الجنوب من علوة فالمعلومات مضطربة وغير دقيقة شأنهم فى ذلك شأن المراجع السابقة على الإسلام ، بل إن الخرائط الجغرافية ظلت حتى سنة ١٨٣٩ تقف عند رسم مجرى النيل عند جنوبى موقع الخرطوم الحالى .

---

(١) يذكر بعض الكتاب العرب أنهاراً أخرى تجرى من الجنوب إلى الشمال . فابن حوقل (صورة الأرض ص ١٥٣) يذكر أن نهر الأردن مثل النيل يجرى من الجنوب إلى الشمال . والنويرى (نهاية الأرب ج ١ ص ٢٦٥) يقول إن نهر مهران السند ونهر الأرفط وهو العاصى يجريان من الجنوب إلى الشمال . والحقيقة أن نهر الأردن يجرى من الشمال إلى الجنوب ونهر السند يجرى من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى .

ولما كانت معلومات العرب عن مجرى النيل تختلف من حيث دقتها وصحتها من جزء لآخر لذلك يمكن تقسيم مجرى النيل إلى ثلاثة أقسام بحسب مقدار صدق معلوماتهم عنها :

(١) القسم الأول منذ خروج النيل من منابعه حتى وصوله علوة ، وهى منطقة معلومات العرب عنها ضئيلة ولا تعتمد على معلومات صحيحة ، وقد أغفلها كثير من الكتاب العرب . وأول من تعرض لذكرها ابن الفقيه فيقول [١] : « ومن خلف علوا أمة من السودان تدعى تكنة وهم عراة مثل الزنج وفى بلادهم يفترق النيل » . وأورد المسعودى [٢] على لسان القبطى المعمر فى قصته مع ابن طولون قوله : « ووراء علوة أمة عظيمة من السودان تدعى بكنة وهم عراة كالزنج وأرضهم تنبت الذهب وفى مملكة هذه الأمة يفترق النيل فيتشعب منه خليج عظيم ثم يخضر الخليج من بعد انفصاله عن النيل وينحدر الأكثر إلى بلاد النوبة وهو النيل لا يتغير فإذا كان بعض الأزمنة انفصل الأكثر من الماء فى ذلك الخليج وابيض الأكثر واخضر الأقل فيشق ذلك الخليج فى أودية وخلجان وأعماق مأنوسة حتى يخرج إلى خلابس الجنوب وذلك على ساحل الزنج ومصبه فى بحرهم » .

ويصف الإدريسى هذا القسم بقوله [٣] : « وفى هذا الجزء افترق النيلين أعنى نيل مصر الذى يشق أرضنا وجريه من الجنوب إلى الشمال وأكثر مدن مصر على ضفتيه معاً وفى جزائره أيضاً . والقسم الثانى من النيل يمر من جهة المشرق إلى أقصى المغرب ، وعلى هذا القسم من النيل جميع بلاد السودان أو أكثرها » . ويتفق ابن فضل الله [٤] العمرى مع الإدريسى فى وصفه هذا .

أما ابن بطوطه [٥] فيخلط بين النيل والنيجر فى هذه المنطقة حيث إنه فى رحلته الثالثة سنة ٧٥٣ هـ وصل إلى مدينة كارسخو على نهر النيجر وظنه النيل ، وذكر أنه ينحدر من كارسخو إلى بلدة كابرة فبلدة زاغة ثم إلى تمبكتو ثم ينحدر من تمبكتو إلى بلدة كوكو ثم إلى بلدة مولى فبلدة يوفى حيث ينحدر إلى بلاد النوبة ودنقلة ثم إلى مصر .

ويذكر المقريزى [٦] وصفاً لهذه المنطقة على لسان ابن سليم الأسوانى وإن كان أكثر

---

(١) مختصر كتاب البلدان ص ٧٦

(٢) المروج جـ ٢ ص ٣٨٣

(٣) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٤ .

(٤) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٦٨-٦٩

(٥) الرحلة جـ ٢ ص ١٩٣-١٩٤

(٦) الخطط جـ ١ ص ١٩٢

هذه المعلومات وصلت ابن سليم عن طريق السماع . فالنيل فى هذه المنطقة كما يقول ابن سليم يتشعب إلى سبعة أنهار ، منها نهر يأتى من الشرق كدر الماء يجف فى الصيف ويأتى من عين عظيمة تقع على جبل هناك . والنيل الأبيض ويأتى من الغرب ١ ولون مائه شديد البياض مثل اللبن ، وقد سأل ابن سليم بعض المغاربة الذين قابلهم عن النيل الذى عندهم وعن لونه فأفادوه أنه يخرج من جبال الرمل وأنه يجتمع فى بلد السودان فى برك عظام ، ثم ينصب إلى مالا يعرف وأنه ليس أبيض ، فإما أن يكون اكتسب ذلك اللون مما يمر عليه أو من نهر آخر ينصب إليه .

أما النهر الثالث فيطلق عليه ابن سليم اسم النيل الأخضر ويأتى من الشرق حيث يتصل بالنيل الأبيض عند علوة وبينهما جزيرة يصفها ابن سليم بأنه لايدرك سعتها ولا يعرف لهانهاية . وفى هذا النهر تصب الأنهار الأربعة الأخرى ، وإن هذه الأنهار تزيد فى وقت واحد نتيجة للأمطار . ولكنه عجز عن معرفة نهاية هذه الأنهار رغم كثرة سؤاله وكل ما أخبر به أنها تأتى من خراب وإن استنتج أنه بعد الخراب عمران لما يأتى فيه وقت الزيادة من أخشاب وأشياء تدل على وجود حياة .

ويقدر الكتاب العرب مسيرة النيل فى هذا الجزء الخراب أربعة أشهر وهى مسافة طويلة بالنسبة للجزء الباقى من مجرى النيل حيث يقدرونه فى النوبة ومصر بثلاثة أشهر .

(ب) أما الجزء الثانى فمن علوة (الخرطوم) حتى أسوان ، ومعلومات الكتاب العرب فى مجموعها تدل على معرفة بهذا الإقليم من حيث طبيعة أرضه وسكانه ويقدرون مسيرة النيل فى هذا الجزء بشهرين .

ويتبين من خريطة الخوارزمى للنيل ، أنه كان على علم تام بانحناءة النيل الكبرى وإن أخطأ فى رسم الموضع الذى يلتقى النيل بروافده الآتى من الشرق حيث جعله إلى الشمال كثيراً من مكان اتصاله الحقيقى . ويذكر الخوارزمى البلاد التى يمر عليها النيل فى هذه المنطقة فيذكر علوة وزغاوة وفزان والنوبة . وقد أخطأ بوضع زغاوة وفزان فى الشرق حيث إنها تقع بعيداً إلى الغرب من النيل ، وزغاوة حالياً تقع إلى شمال دارفور وإن كانوا فى القرون الوسطى يقيمون إلى الغرب من ذلك بمسافة طويلة ٢ .

ويهمل الكتاب العرب وصف انحناءة النيل فى هذه المنطقة حتى الخوارزمي الذى أظهرها فى خريطة لم يذكرها فى وصفه ، ولم يذكرها إلا ابن سليم كما سيرد فى حينه .

---

(١) لعل ابن سليم فى ذكره هذا النهر الذى يأتى من المغرب يكون أول من جمع بين النيل والنيجر .

(٢) Macmichael; A History of The Arabs in the Sudan p. 54.

ويقول النويرى [١] فى وصفه لهذا الجزء أن النيل إذا بلغ دنقلة عطف من غربيها إلى المغرب وانحدر إلى الإقليم الثانى فيكون على شطيه عمارة النوبة . ولعله بهذا الوصف يشير إلى انحناءة النيل بعد أبو حمد حيث يتجه إلى الجنوب الغربى ، فإذا كان هذا ما يقصده يكون قد أخطأ فى المكان الذى يبدأ فيه النيل فى انحنائه للغرب ، إذ إن النيل عند دنقلة القديمة يكون قد انتهى من انحناءته ويبدأ فى الاتجاه شمالاً .

ومن أهم من تعرض لوصف هذا الجزء ابن سليم والإدريسى [٢] وإن كان وصف ابن سليم الذى يعتمد على المشاهدة والاتصال الشخصى هو أهم وصف عربى لهذه المنطقة ، فابن سليم يذكر فى هذه المنطقة ثلاثة جنادل فى حين أن الكتاب الآخرين لم يذكروا إلا الجندل الأول الذى يقع جنوب أسوان وإن كان ابن حوقل [٣] المعاصر للمسعودى يذكر علاوة على الجندل الأول الجندل القريب من دنقلة ولعله يقصد الجندل الثالث .

ويذكر ابن سليم [٤] أنه عند قرى تقع على شاطىء النيل تعرف بالأبواب (كابوشيا) [٥] — وكانت تقع فى أقصى الشمال من مملكة علوة — تجتمع فروع سبعة للنيل ، ستة تأتى من الشرق أهمها النيل الأخضر الذى تتصل به بقية الفروع الستة ، والنيل الأبيض ويأتى من ناحية الغرب . وعند التقاء النيلين الأبيض والأخضر تقع جزيرة يصفها ابن سليم بأنه لا يعرف لها غاية وأن بعض متملكى علوة أراد أن يأتى نهايتها فلم يأت عليها بعد سنين ، والراجح أنه يقصد جزيرة مروى **Moroe** التى تكلم عنها اراتوستين وبلينى وبطليموس واسترابون وغيرهم من الكتاب السابقين على الإسلام . وتقع سوبة عاصمة علوة (مكان الخرطوم) عند ملتقى النيلين الأخضر والأبيض .

ويصف ابن سليم انحناءة النيل الكبرى فيذكر أن النيل ينعطف فى المنطقة بين دنقلة وأول بلد علوة إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر . كما يذكر أن المسافة بين دنقلة وأول علوة أطول من المسافة بينها وبين أسوان والتى يقدرها بخمسين مرحلة (٦٠٠ كم) . وبعد أن يترك النيل علوة يخترق أرض النوبة وفى الشرق تقع أرض البجة ، وهو يذكر أن علوة أكثر خصباً وأوفر ثروة ، كما أن الجزء الجنوبى

---

(١) نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٢
(٢) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٩ وما بعدها .
(٣) صورة الأرض ص ١٤٥
(٤) انظر المقريزى ، الخطط جـ ١ ص ١٩٠ وما بعدها
(٥)
Kirwan ; Notes on the Topography of The Christian Nubian Kingdoms.

من النوبة الذى يقع جنوب الشلال الثالث أخصب من الجزء الواقع شمال هذا الجندل والذى يمتد حتى حدود مصر . ويصف الجندل الثالث بأنه أشد الجنادل صعوبة وأنه جبل معترض من الشرق إلى الغرب فى النيل والماء ينصب من ثلاثة أبواب وربما رجع إلى بابين عند انحساره ، أما الجندل الثانى الواقع إلى شماله ويقع أيضاً فى أرض النوبة فإليه تنتهى سفن النوبة القادمة من الشمال ولا تتجاوزه ، كما أنه لم يكن من المسموح لأحد تجاوز هذه المنطقة جنوباً إلا بإذن من حاكم المنطقة .

أما الجزء الواقع إلى الشمال من الجندل الثانى – ويقع حالياً فى الأراضى المصرية – فيصفه بأنه ناحية ضيقة شطفة كثيرة الجبال التى تقترب من النيل حتى أصبحت الرقعة الزراعية ضيقة وقراها متراصة على الشاطىء وتروى مزارعها على أعناق البقر بالدواليب (السواقى) ، ومن أهم المدن فى هذه المنطقة التى يذكرها ابن سليم عدوة (الدر) وابريم ، وكان للمسلمين فى هذه الناحية أملاك خصوصاً فيما يلى حدود مصر . ويقول المسعودى [1] : « ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة ، وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الزمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس ... وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس . »

ثم تنتهى حدود النوبة عند مدينة بلاق عند الجندل الأول وهو الحد الذى ينتهى إليه سفن النوبة وسفن المسلمين . وقد جعل الإدريسى مدينة بلاق المكان الذى يلتقى فيه النيل برافده الآتى من الحبشة فيقول [2] : « ومدينة بلاق من مدن النوبة وهى بين ذراعين من النيل وأهلها متحضرون ومعايشهم حسنة ، وأرضها تسقى بالنيل وماء النهر الذى يأتى من بلاد الحبشة وهو واد كبير جداً يمد النيل وموقعه بمقربة من مدينة بلاق » .
أما ابن خلدون [3] فيجعل موقع علوة بين دنقلة وبلاق .

ويذكر الدمشقى شيخ الربوة [4] أن النيل يختفى تحت الأرض فى بلاد النوبة نحو ثلاثة مراحل ثم يظهر ويجرى شمالاً حتى يصل إلى دنقلة . وهو وصف لم يشاركه فيه أحد من الكتاب العرب اللهم إلا الإدريسى عند ذكره لنهر كوكو وخروجه من جبل يتصل رأسه بالنيل فيقول [5] : « وزعموا أن النيل يغوص تحت ذلك الجبل ويخرج من

---

(١) المروج جـ ١ ص ١٩٠
(٢) « صفة المغرب وأرض السودان ومصر » ص ١٩
(٣) المقدمة (جـ ١) ص ٤٨
(٤) نخبة الدهر ص ٨٩
(٥) المرجع السابق ص ٣٧ (صفة المغرب)

طرفه الآخر حيث يظهر خروجه ويمر حتى يتصل بكوكو ثم يمر مغرباً فى الصحراء فيغوص فى الرمال » . ووصف الأدريسى هذا يرجع دون شك إلى نيل السودان لانيل مصر . وربما أخذ الدمشقى هذا الرأى من الإدريسى وحوره وأضافه للنيل أو لعله جاء برأيه هذا نتيجة لآراء قديمة ، كما أن هذا الرأى صار أساساً — على ما يظهر — لأسطورة تقول بوجود فرع جوفى لنهر النيل يتجه إلى الواحات ، وظل هذا الفرع الجوفى يظهر فى الخرائط الجغرافية حتى سنة ١٨٦٠ م .

وتعرض كثير من المؤلفات العربية لذكر الشعوب التى تقيم فى هذه المنطقة وهى النوبة والبجة والحبشة . ويرجع الكتاب العرب — كاليعقوبى [١] والمسعودى [٢] — نسبهم إلى كوش بن حام من ولد نوح . وأن ولد كوش انقسموا فرقتين فرقة استقرت فى هذا الجزء وهى السابق ذكر شعوبها ، والفرقة الأخرى عبرت النهر إلى الغرب حيث استقرت فى منطقة نهر النيجر وبحيرة تشاد ومنهم الزغاوة وكوكو وغيرهم .

وعندما فتح العرب مصر وجدوا إلى الجنوب منها النوبيين . وأول ما ظهر لفظ النوبيين فى جغرافية ايراتستين الذى ذكرهم باسم Nabatae والأصل المصرى القديم لكلمة النوبة [٣] مشتق من لفظ أونوبو بمعنى الذهب أى أنها بلاد الذهب . ويظهر أن العرب استعملوا كلمة النوبيين [٤] التى وجدوها مستعملة فى مصر وأطلقوها على العناصر التى تقيم جنوب الشلال الأول .

وقد اختلف الكتاب المحدثون فى أصل الشعب النوبى هل هو زنجى تعرض لهجرات قوقازية من الشمال والشرق والغرب ، أو أنه شعب حامى قوقازى تأثر بهجرات زنجية . ولكن البعض [٥] يرى أن النوبيين من أصول قوقازية حامية عريقة قديمة مؤيدين بذلك ما ذكره الكتاب العرب .

وقبل ظهور الإسلام بمدة وجيزة كانت هناك ثلاث ممالك تمتد على النيل من حدود مصر الجنوبية حتى النيل الأزرق ، هى النوبة والمقرة وعلوة . وفى ذلك يقول يوحنا الأفسوسى [٦] : « إن القس جوليان — مبعوث الامبراطورة ثيودورا زوجة جستنيان —

---

(١) تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ٢١٦

(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ١٨١

(٣) الدكتور عوض محمد عوض « السودان الشمالى » ص ٣٠٢

(٤) Macmichael ; op. cit. p. 12. —

(٥) الدكتور عوض محمد عوض — المرجع السابق — ص ٢٩٣

(٦) Kirwan ; op. cit.

الذى وصل إلى الشلال الأول بين سنتى ٥٤٠ — ٥٤٨ م وجد أن البلاد جنوب الشلال الأول خاضعة للنوبيين Nobadae وأن إلى الجنوب من النوبة شعب قوى آخر هم علوة وأنه بين علوة والنوبة شعب آخر هم المقرة » . ولكن فى النصف الثانى للقرن السادس الميلادى تكونت فى شمال النوبة مملكة مسيحية تحت حكم الملك سيكو الذى أنشأ دنقلة (القديمة) التى ظلت عاصمة للنوبة لمدة سبعة قرون ، وبذلك يكون قد ضم المقرة إلى مملكته وأصبحت النوبة تمتد من الشلال الأول حتى حدود علوة . يؤيد ذلك أنه عندما قام عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر فى عهد عثمان بغزوته الثانية على النوبة سنة ٣١ هـ (٦٥١–٦٥٢ م) ودمر دنقلة ، كتب معاهدة مع ملك النوبة جاء فيها أنها معاهدة من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى عظيم النوبة ومن تحت حكمه من حدود أسوان حتى حدود علوة [١] .

بل إن المسعودى الذى زار مصر فى ولاية الإخشيد محمد بن طغج (٣٢٣-٣٣٤ هـ — ٩٣٥-٩٤٦ م) يقرر أن مملكة النوبة كانت تضم علوة أيضاً إذ يقول [٢] : « وأما النوبة فافترقت فرقتين ، فرقة فى شرق النيل وغربه وأناخت على شاطئه فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغيرها واتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعده ولحقوا بقريب من أعاليه وبنوا دار مملكة وهى مدينة عظيمة تدعى دنقلة »

والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة وبنوا مدينة عظيمة وسموها سوبة . وانتهيت من تصنيفى إلى هذا الموضع من كتابنا هذا فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢ فأخبرت أن الملك فى مدينة دنقلة إلى النوبة كبرا بن سرور ، وهو ملك ابن ملك فصاعدا ، وملكه يحتوى على أم قرية وعلوة والبلد المتصل مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس وإليه تضاف الزنج المريسية » . فالمسعودى يرى أن مملكة هذا الملك كانت تضم المريس فى الشمال والمقرة وعلوة .

ويذكر ابن سليم فى كتابه عن « النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » . ما سبق أن ذكره المسعودى من أن لبعض المسلمين من أسوان ضياعاً كثيرة بأرض النوبة يؤدون خراجها لملك النوبة ، ويذكر المسعودى [٣] أن ملك النوبة حاول أن يحتكم إلى الخليفة

---

(١) انظر المقريزى « الخطط » جـ ١ ص ٢٠٠

(٢) المروج جـ ١ باب ٣١ ص ١٨٨

(٣) مروج الذهب جـ ١ ص ١٩٠

المأمون ١ عند حضوره مصر (المحرم سنة ٢١٧ هـ – سنة ٨٣٢ م) فى أمر هذه الأملاك ولكن قضاته أقرت المسلمين على ما بأيديهم .

ويذكر ابن سليم أن بعض النوبيين الذين يقيمون إلى الشمال من الشلال الثانى تحولوا إلى الإسلام ، كما ذكر بعض المدن فى هذا الجزء الشمالى مثل نجراش (فرس) عاصمة هذا الإقليم وسماها مدينة المريس ، وقلعة ابريم وميناء أدواء (الدر) (قرب معبد أبو سمبل) ويحكم هذا الإقليم الشمالى حاكم قوى يعرف بصاحب الجبل خاضع لملك النوبة فقد وصفه ابن سليم بأنه من أجل ولاتهم لقربة من أرض الإسلام . وكان الشلال الثانى حداً لا يسمح لأحد – لا من المسلمين أو غيرهم – بتجاوزه إلى الجنوب إلا بإذن صاحب الجبل ، والظاهر أن منطقة نفوذه كانت تمتد جنوباً حتى ساى ٢ . وجنوب المنطقة التى يحكمها صاحب الجبل لم تكن النقود معروفة وكان يحدث تبادل بضائع الشمال بعبيد وماشية وجمال وحديد وحبوب. وكانت لغة المريس هى المستعملة حتى بلدة ياستو (على بعد ٣٦ ميلاً جنوب الشلال الثالث قريباً من أبى فاطمة (. وكانت ياستو الحد بين المريس والمقرة ٢ . وإلى الجنوب من هذا المكان يقع اقليمان هما بقون وسفد بقل التى تمتد جنوباً حتى دنقلة التى كانت عاصمة كل الإقليم من حدود مصر حتى حدود علوة . ويصف ابن سليم خصب وغنى الإقليم على جانبى النيل عند دنقلة . ولم يذكر ابن سليم شيئاً عن السكان الأصليين ، ولكنه يتحدث عن جنس من البجة يعرفون بالزنافج أقام فى هذه المنطقة (فيما بين أبو حمد وبربر) منقديم وقد احتفظوا بلغتهم ولا يخالطون النوبة وعليهم وال من قبل النوبة . كما أنه من هذا الموضع تخرج طرق إلى سواحل البحر الأحمر ، ويقول ابن سليم أن منها عبر من نجا من بنى أمية عند هربهم إلى النوبة بعد زوال دولتهم .

ويمتد إقليم دنقلة جنوباً حتى بلدة الأبواب التى كانت الحد الشمالى لعلوة ويحكمها ملك اسمهالرحراح تابع لملك علوة الذى كان على عهد ابن سليم يدعى سميون ٣ .

من ذلك نرى أنه عند الفتح العربى لمصر وبعده كانت توجد مملكتان على ضفتى النيل فى هذا الجزء ، الأولى جنوب أسوان وتمتد حتى كابوشيا ، يسكن فى الجزء الشمال المريس وفى الجنوبى المقرة لكل منهما لغته . ويقول المقريزى ٣ إن المريس والمقرة من اليمن ومن حمير بالذات ، وأن جد المريس يدعى سلها وجد المقرة يدعى المقرى . والمملكة الثانية

---

(١) يذكر المقريزى فى الخطط جـ ١ ص ٢٠١ أن هذه الشكوى رفعت للمعتصم .

(٢) Macmichael ; op. cit. p. 170.

(٣) انظر المقريزى الخطط جـ ١ ص ١٩٠ وما بعدها .

هى علوة وعاصمتها سوبة وأنها كانت مستقلة عن المملكة الشمالية . هذا وإن لم يمنع من أن الجزء الشمالى للمملكة كان فى بعض الأوقات يخضع لملك النوبة .

ولما فتح العرب مصر كان من الطبيعى أن يحتكوا بهؤلاء الجيران الجنوبيين . ويذكر المسعودى [1] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عمرو بن العاص بمحاربة النوبة فأرسل إليهم نافع بن عبد القيس الفهرى واستمرت المناوشات والحروب بينهم حتى عزل عمرو بن العاص فى زمن عثمان ووليها عبد الله بن سعد الذى قام بغزوة فى سنة ٣١ هـ (ابريل — مايو سنة ٦٥٢ م) وصالحهم على جزية سنوية من العبيد تعرف باسم البقط [2] وتتكون من ٣٦٥ [1] رأساً لبيت مال المسلمين وأربعين رأساً لأمير مصر ، وعشرين لخليفته المقيم بأسوان والذى كان يتسلم هذا البقط ولحاكم أسوان الذى يحضر مع هذا الخليفة قبض القبط خمسة رءوس ولاثنى عشر شاهداً عدولا من أهل أسوان يحضرون معه اثنى عشر رأساً . وكان الموضع الذى يسلم فيه هذا البقط يعرف بالقصر على بعد ستة أميال جنوب أسوان .

ويقول المسعودى [1] إن هذه الجزية ظلت تدفع سنوياً حتى أيامه [3] . وظلت سارية لمدة ستمائة سنة [4] . هذا بالرغم من أنه قد قامت بعض حملات تأديبية فى أوقات متفرقة إلى النوبة عندما كانوا ينقضون الهدنة أو يهاجمون أسوان ، أما فيما عدا ذلك كانت علاقة مصر بالنوبة يسودها السلام بوجه عام وتقوم على تبادل التجارة .

وقد أخذ المسلمون يستوطنون هذه البلاد ويقتنون بها الأراضى ، ودخل بعض النوبيين فى الجزء الشمالى فى الإسلام كما رأينا فى تقرير ابن سليم . ولا شك أن بلاد النوبة مثلها مثل مصر وباقى السودان قد تعرضت لهجرات عربية قبل الإسلام وبعده . هذا وقد دخلت المؤثرات والسلالات العربية من طريقين [5] :

الأول : من الشمال حيث انتشرت قبائل عربية أكثرها من ربيعة ما بين الشلال

---

(١) المسعودى مروج الذهب جـ ١ ص ١٩٠

(٢) كلمة البقط إما مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد أو من الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد أو اتفاق . أو أنها عربية الأصل بمعنى نبذة أو قطعة أو فرقة . انظر اللسان — سيده الكاشف « مصر فى فجر الإسلام » ص ١٥ الهامش —
Trimingham; op. cit. 62 — E.I.; op. cit

(٣) يذكر المقريزى فى الخطط جـ ١ ص ٢٠١ أن المعتصم جعل دفع البقط كل ثلاث سنوات .

(٤) Macmichael ; op. cit. p. 157.

(٥) الدكتور عوض محمد عوض المرجع السابق ص ٢٩٩ .

الأول ووادى حلفا ، وهو الإقليم الذى كان يطلق عليه اسم مريس وهى كلمة قبطية بمعنى الجنوب أو الإقليم الجنوبى .

الثانى : من الجزيرة العربية مباشرة .

والذى لاشك فيه أن استقرار العرب فى النوبة أخذ شكلاً واسعاً يتزايد باستمرار حتى إذا كان القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ، صارت المنطقة بين الشلالين الأول والثانى وربما حتى دنقلة ، فى مظهر يشبه ما هى عليه اليوم ١ .

والنوبيون فى الوقت الحاضر يحتلون مساحة من النهر قد تكون أقل من نصف المساحة التى كانوا يحتلونها من قبل ، وتمتد أوطانهم اليوم من أسوان شمالاً حتى الدبة جنوباً . وينقسمون خمس مجموعات رئيسية هى الدناقلة فى الجنوب ما بين الدبة وأبى فاطمة ، ثم المحس والسكوت فى إقليم الجنادل ، والقديجة ما بين وادى حلفا وكورسكو والكنوز فى الجزء الممتد من كرسكو حتى أسوان . والنسب العربى فى الدناقلة قوى حتى أنه ليس من السهل أن يميز المرء بينهم وبين جيرانهم من عرب البديرية . كذلك نلاحظ هذه الصلة قوية بين الكنوز الذين لا يكاد تختلف ملامحهم فى شىء عن سكان الوجه القبلى فى مصر ، وذلك لا شك راجع إلى أن هذا الإقليم قد استحال إلى مستعمرة عربية على أثر الفتح العربى لمصر ونزلت قبائل من ربيعة ومصر وبعض الجهنين ، وهو أول إقليم زالت عنه سلطة ملك النوبة المسيحى وتحول فى وقت متقدم إلى الإسلام ٢ .

أما مملكة علوة ، فكانت تمتد من الأبواب (كابوشيا) حتى سنار جنوبا ٣ ، وعاصمتها سوبة (قرب موقع الخرطوم) . ويقول بعض الباحثين (٤) إنه بعد أن أنشئت مملكة النوبة المسيحية فى القرن السادس الميلادى وصارت عاصمتها دنقلة انتشرت المسيحية بعد ذلك فى جزيرة مروى وأنشئت بعد ذلك مملكة علوة . وكانت بلاد النوبة الشمالية هى العامل الأكبر فى إنشاء هاتين الدولتين ٤ .

ويصف ابن سليم سوبة عاصمة علوة بأنه كان بها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس ، كثيرة الذهب ، وأن دين علوة النصرانية على مذهب اليعاقبة وأن أساقفتهم من قبل صاحب

---

(١) Macmichael ; op. cit. p. 188.

(٢) الدكتور محمد عوض محمد المرجع السابق ص ٣٠٣-٣٠٤

(٣) Kirwan ; op. cit:

(٤) الدكتور محمد عوض محمد المرجع السابق ص ٢٩٩

الإسكندرية كالنوبة . وأن علوة أكثر ثراء من النوبة وإن كانوا — كما يقول — أقل فهماً منهم .

وعلى شاطىء العطبرة كانت تسكن قبيلة الديجيون التى تتصل من جهة بسكان علوة ومن جهة أخرى بالبجة . ويليهم البازة على حدود الحبشة ، ولعل البازة هؤلاء هم الذين ذكرهم اليعقوبى [1] عند ذكره ممالك البجة باسم مملكة بازين وأنهم يتاخمون مملكة علوة .

وفى الجزيرة جنوب علوة يسكن قوم يعرفون باسم الكرنينا بلادهم غنية خصبة يزرعون على ماء النيل والمطر ، ومساحتها — كما يقدرها ابن سليم [1] شهرين فى شهرين ، وميزة بلد علوة من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم الحرب ، فهم بذلك خاضعين إلى حد ما للملك علوة .

وقد أخذ النفوذ العربى يتوغل فى علوة منذ زمن بعيد يرجع إلى الأقل إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، يؤكد ذلك ما قرره ابن سليم [2] عند حديثه عن سوبة أن لها رباطاً فيه جماعة من المسلمين . وفى أوائل القرن الثامن الهجرى أخذ هذا النفوذ العربى يشتد وينتشر ، وفى عام (١٤٧٤ م — ٨٨١ هـ) أنشأ العرب مدينة أربجى على النيل الأزرق . وفى سنة(٩١٠ هـ — ١٥٠٤ م) هوجمت مملكة علوة من الشمال والجنوب وقامت على أنقاضها دولة الفنج التى أنشأت عاصمة لها مدينة سنار القديمة (تقع شمال سنار الجديدة بثلاثة أميال) . ورواية الفنج عن نشأتهم الأولى تتلخص فى أن أجدادهم من بنى أمية الذين هربوا إلى الحبشة بعد قيام الدولة العباسية وأنهم صاهروا الحبشة ومن هذا التزاوج جاء الفنج ، وإن كان بعض الكتاب لم يقبل هذه الرواية لأنها تتعارض مع ما جاء فى رحلات السائح الاسكتلندى بروس ، الذى مر بهذه الجهات فى أواخر القرن الثامن عشر وقال إن الفنج من أصل شلكاوى (٣) .

أما البجة فهم تلك القبائل الرحل التى تسكن الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر والنيل من قوص شمالاً حتى حدود الحبشة . والبجة مثل النوبة معرقون فى القدم ، ولكنهم بحكم بيئتهم وانقطاعهم عن طرق المهاجرة أصفى جوهراً من النوبة ، لم يتعرضوا للاختلاط بعناصر غريبة عنهم كما تعرض النوبيون [4] ، وقد استوطنوا البلاد التى يسكنونها اليوم منذ آلاف السنين وكان يطلق عليهم فى العصور القديمة البليميز Blemyes

---

(١) تاريخ اليعقوبى ص ٢١٧

(٢) المقريزى الخطط جـ ١ ص ١٩٣

() الدكتور عوض محمد عوض المرجع السابق ص ٢٥٢-٢٥٣

(٤) المرجع السابق ص ٢٢

والبجة حاميون مثل النوبة وقد تشعبوا قبائل ، قسمهم اليعقوبى [1] إلى ست ممالك الأولى متاخمة لحدود مصر وهى مملكةنقيس وعاصمتها هجر ، ومملكة بقلين ومملكة بازين وهى التى ذكرها ابن سليم باسم بازه ثم مملكة جارين ومملكة قطعة ثم مملكة النجاشى ، فهو بذلك ينسب الأحباش إلى البجة .

ولكن المسعودى [2] لم يذكر لهم ممالك بل يقول إنهم انقسموا إلى فرق نصبت لها ملكاً واحداً . ثم جاء المقريزى [3] بعد ذلك بعدة قرون ليقرر أن البجة ليس لها ملك بل كان لها قديماً رئيس يرجع إليه رؤساؤهم ويقيم فى قرية هجر .

والبجة قوم رحل يعيشون على الرعى ويتبعون الكلأ وإقامتهم فى أخبية من جلود وأنسابهم من جهة النساء ، وهم قوم سلب ونهب فكانوا يغيرون على بلاد النوبة كما أنهم كانوا يغيرون على صعيد مصر قبل الإسلام وبعده ، إلى أن خالطهم المسلمون وتزوجوا فيهم وأغلب هؤلاء من عرب ربيعة ومضر وقحطانيين من اليمن ، ولكن الغلبة كانت لربيعة والزعامة فيهم ، وكان الجميع خاضعين — فى زمن المسعودى — لبشر بن مروان ابن إسحق من ربيعة ، وذكر أنه يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفاً من البجة من فرع يعرف بالحدارب الذين أسلموا من دون سائر البجة التى بقيت على وثنيتها [2] .

وعندما فتح العرب مصر ، أرسلت البعثات لاستغلال المناجم القديمة الواقعة فى أرض البجة ، ولكن هؤلاء قاوموا توغل المسلمين فترة ما ، ثم حدث الاختلاط بين العرب وبينهم وأقام كثير من القبائل العربية والتجار المسلمون بين البجة وتزوجوا منهم واندمجوا فيهم . ولم يكن بد من أن يتأثر البجة بالإسلام والثقافة العربية تأثيراً شديداً ، فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعاً مسلمين ، لا يدينون بدين آخر . وبلغ من أثر العرب فيهم أن خلفاءهم اليوم من البشارية والأمرار والهدندوه ، ينكرون أى نسب آخر ويؤكدون أنهم من أصل عربى ويرجحونه على نسبهم البجاوى العريق القديم [4] .

فإذا ما دخل النهر أرض مصر نجد أن صلة العرب به صارت صلة وثيقة ومعلوماتهم عن مجراه فيها مبنية على معرفة تامة ، فهم أصحاب البلاد والنيل يجرى فى أرضهم وقد عنوا به عناية كبيرة ، وأنشئت الترع والسدود للانتفاع بمياهه واهتمت كثير من المؤلفات

---

(١) تاريخ اليعقوبى ص ٢١٧

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٨٨

(٣) الخطط ج ١ ص ١٩٤

(٤) الدكتور عوض محمد عوض — المرجع السابق ص ٦٩

العربية بالأثر الاقتصادى للنيل فى مصر وأنواع الزراعات المختلفة ومواعيدها ، بل لقد فكر أحد العرب فى إنشاء خزان كخزان أسوان الحالى ، ذلك هو المهندس العربى الشهير ابن الهيثم أيام الحاكم بأمر الله ؛ ولكنا مع هذا نجد أن هيروت ودرأو استرابون قد وصف مجرى النيل فى مصر من الناحية الجغرافية — وصفاً يفوق فى دقة تعبيره كثيراً مما أورده غالبية الكتاب العرب .

فالمسعودى [1] يذكر أن النيل كان يطغى على مصر ويركب أرضها ثم نضب الماء بعد ذلك وظهرت الأرض . ولكن ما ذكره هيرودوت عن أن مصر كانت خليجاً من البحر ملأه النيل برواسبه ، والأدلة التى ساقها لتأييد قوله ، أدق بكثير مما يقوله المسعودى من أن النيل هو الذى كان يركب أرض مصر .

وأطلق العرب اسم الصعيد على المنطقة من أسوان إلى الفسطاط ، ويقول المقريزى [2] إنها سميت صعيداً لارتفاعها وطيب أرضها كما أسماها أيضاً الوجه القبلى . وهى نفس الأسماء المعروفة اليوم . كما أطلقوا اسم الريف وأسفل الأرض على منطقة الدلتا وكانت المنطقة الواقعة بين فرعى النيل تعرف باسم بطن الريف أما الجزء الواقع شرق فرع دمياط فكان اسمه الحوف الشرقى ، أما المنطقة الواقعة غرب الفرع الآخر فتعرف بالحوف الغربى .

ويذكر أبو الفدا [3] أن النيل يصل إلى أسوان عند خط عرض ٢٢ ، ويصل الفسطاط عند خط عرض ٣٠ ويصب فى البحر حيث خط العرض ٣١ ، وهو بذلك يذكر العروض الحقيقية وإن أخطأ فى خط العرض عند أسوان حيث أنه ٢٤ . أما ابن مماتى [4] والسيوطى [5] فيذكر ان خطأ أن مصب النيل فى البحر عند خط عرض ٣٠ .

ووادى النيل فى الصعيد يكتنفه جبلان فى الشرق والغرب . ويتوقف عرضه على مدى اقتراب الجبلين أو بعدهما من النهر . ويذكر الاصطخرى [6] وابن حوقل [7] والإدريسى [8] أن عرض العمارة على النيل من أسوان حتى الفسطاط يتراوح ما بين

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٧٠
(٢) الخطط ج ١ ص ١٨٩
(٣) تقويم البلدان ص ٤٥
(٤) قوانين الدواوين ص ٧٣
(٥) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٥
(٦) مسالك الممالك ص ٥٢
(٧) صورة الأرض ص ١٥٣
(٨) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٤٣

نصف يوم إلى يوم (من ١٤ إلى ٢٨ كم تقريباً) ، ثم تعرض فيصير عرضها شمال الفسطاط من الإسكندرية إلى الحوف الشرقى نحو ثمانية أيام .

أما المقريزى [١] فيذكر نقلاً عن غيره أن مسافة إقليم الصعيد مسيرة اثنى عشر يوماً بالجمال وعرضه ثلاث ساعات ، وأنه بلغ من عمارة الصعيد أيام الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها أن المسافر من القاهرة إلى أسوان لم يكن يحتاج لنفقة بل يجد فى كل بلد وناحية عدة دور للضيافة ولكن أمره آل فى زمن المقريزى إلى أن كل ذلك قد تلاشى وحل الفقر والجدب بالبلاد .

ولم يتعرض الجغرافيون السابقون على الإسلام ولا الجغرافيون العرب لانحناءة النيل عند قنا ، إلا أنه من المحتمل أن قدامه بن جعفر قد عناها بقوله عند وصف مجرى النيل فى مصر [٢] « ثم ينعرج حتى يصير إلى مدينة أسوان ماساً لها ثم يعدل معترجاً ثم يرجع ويمر ماراً إلى مصر مماساً لها » .

ونختم هذا الفصل بتقدير الكتاب العرب لطول مجرى النيل من منبعه إلى مصبه ونرى أنه بينما تتفق الغالبية إلى أن طول مجرى النيل سبعة أشهر ، شهر منها فى بلاد الإسلام وشهرين فى النوبة وأربعة فى الخراب . نجد أنهم اختلفوا فى تقدير هذه المسافة بالأميال كما يظهر من الجدول التالى .

		ميل		
قدامـــة [٣]		٢٩٣٣		
المسعـودى [٤]	من	٢٧٠٠	إلى	٣٠٠٠
الإدريسى [٥]		٥٦٣٤		
الدمشقى [٦]		٩٠٠٠		
المقريـزى [٧]	٧٤٨ فرسخاً أى	٢٢٤٤		

---

(١) الخطط جـ ١ ص ١٨٩

(٢) الخراج وصنعة الكتابة ص ٦٤ ب

(٣) الخراج وصفة الكتابة ص ٦٤ ب .

(٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٠٨ يقول المسعودى إن النيل « يجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ وقيل ألف فرسخ » والفرسخ ثلاثة أميال .

(٥) صفة المغرب وأرض السودان ومصر ص ١٦

(٦) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٨٩

(٧) الخطط جـ ١ ص ٥٣

		ميل
السيوطى[1]	عن صاحب مرآة الزمان	٩٠٠٠
	عن صاحب سجع الهديل	٨٦١٤
القرمانى الدمشقى[2]	١٧٤٨ فرسخاً أى	٥٣٤٤

ويتبين أن أحداً لم يصل إلى التقدير الحقيقى وهو أربعة آلاف ميل إلا أن المسعودى أقرب الجميع إلى الرقم الصحيح :

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤–١٨٥

(٢) أخبار الدول ص ٤٨٢

الفصل الثالث

المصب

إذا تتبعنا نهر النيل منذ دخوله مصر نجده يجرى فى واد ضيق ، تحده من الشرق والغرب هضبتان مرتفعتان ، تنفرجان عن القاهرة وتتلاشيان فى الصحراء ، وعندئذ يتسع الوادى فجأة مكوناً الدلتا ، وهى سهل فيضى كان خليجاً من البحر اكتسبه النهر وغمره بغرينه .

والدلتا أشبه بمثلث قاعدته فى الشمال عند ساحل البحر ورأسه فى الجنوب حيث قمة الدلتا ومكان تفرع النهر . وقد أطلق اليونان عليها هذا الاسم لأنها تشبه رابع حروف الهجاء اليونانية [١] . ويتوقف اتساع الدلتا شرقاً وغرباً على مدى ما تصل إليه مياه النيل .

فهاتان الهضبتان تحددان مجرى النيل فى الصعيد فلا يجد مفراً من أن يسير بينهما فى خط يكاد يكون مستقيما ، حتى إذا وصل إلى القاهرة وجد المجال قد اتسع أمامه فلا عوائق ولا حواجز فكان أشبه بسجين انطلق من عقاله ووجد باب الحرية مفتوحاً على مصراعيه فانطلق يعربد يمينا ويساراً ، ويمد فروعه فى كل اتجاه .

ولم تكن الدلتا قبيل العصر التاريخى وفى بدايته قد اتخذت شكلها النهائى ، بل كانت مليئة بالمستنقعات [٢] . ولا شك أن فروع النهر حينئذ كانت كثيرة ومتغيرة باستمرار . وفى غضون السنين والقرون المتعاقبة اختفت المستنقعات واختفى معها كثير من أفرع النهر وظلت هذه الفروع تنقص من عصر لآخر حتى استقرت على فرعين اثنين هما الآن فرعا رشيد ودمياط .

وكما تغير مظهر الدلتا وعدد فروع النيل ، تغير كذلك مكان قمة الدلتا من عصر

---

(١) استرابون فى مصر . وهيب كامل ص ٤٨ : والدلتا فى شكلها تشبه حرف دلتا اليونانى

(٢) انظر جزأين : البيئة والموقع الجغرافى ص ٥

وهيرودوت فى مصر وهيب كامل ص ٢٦

لآخر ويذكر الدكتور رزقانة [1] أن قمة الدلتا فى تغير مستمر منذ تكوينها حتى الوقت الحاضر فنى بدء العصر التاريخى وقيام الحكم الملكى المصرى أو قبله بقليل كان رأس الدلتا عند منفيس [2] ثم انتقل إلى الشمال حتى صار فى عهد الدولة الحديثة عند مدينة« خرى عحا » [3] حيث كان يخرج فرع دمياط الحالى [3] .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد ذكر هيرودوت أن النيل يتفرع عند مدينة كركاسوروس [4] ويحدد استرابون المسافة بين منفيس وقمة الدلتا بثلاث شوينات [5]، ويقدرها بليني باثنين وعشرين كيلو متراً ، وبطليموس الجغرافى بعشر دقائق عرضية أى عشرون كيلو متراً [3]

أى أن قمة الدلتا انتقلت منذ بداية العصر التاريخى حتى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح إلى الشمال هذه المسافة ،فصارت عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق قبالة روض الفرج [1] .

فإذا انتقلنا إلى القرون الأولى للهجرة ، وتتبعنا وصف الكتاب العرب ، نجد أن الخوارزمى [6] يذكر أن النيل يفترق من مصر (أى الفسطاط) إلى البحر فى خلجان سبعة ولا شك أن الخوارزمى نقل ذلك عن بطليموس ، ولا تدل على حقيقة الحال فى عصره هـــو .

أما ابن عبدالحكم فبالرغم من عدم ذكره مكان تفرع النيل إلا أنه ذكر [7] سبعة خلجان هى منف ، المنهى ، الفيوم ، سخا ، دمياط ، الإسكندرية ، سرودس ، أما عن خليج منف فمن « المرجح أنه لم يكن يجرى فى العصر العربى وإنما كانت آثار مجراه ظاهرة فى ذلك العصر [8] » . أما خليجا المنهى والفيوم فيخرجان فى الصعيد بعيداً عن الدلتا ،

---

(١) مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد الرابع سنة ٩٤٨ مقال « قمة دلتا النيل » دكتور إبراهيم رزقانة .

(٢) مكانها الحالى « ميت رهينة » جنوب القاهرة .

(٣) « مصر العتيقة حالياً » – انظر رزقانه المرجع السابق .

(٤) قرية الوراق الحالية – قبالة الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق – انظر رزقانه المرجع السابق وكذلك « هيرودوت فى مصر » حاشية ص ٣٤ .

(٥) استرابون فى مصر – وهيب كامل ص ٩٣ والشوين – ٨٦٥٢ متراً أى أن المسافة حوالى ٢٦ كم .

(٦) صورة الأرض ص ١٠٩

(٧) ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ص ٦

(٨) رزقانه المرجع السابق

ولا يبقى إلا الخلجان الأربعة الباقية وهذه تخرج فى الدلتا . ولما كان خليج سردوس موجوداً فى عصر ابن عبد الحكم لذلك يمكن القول إن قمة الدلتا كانت فى ذلك الوقت عند سردوس [1] » ومعنى هذا أن كلا الموضعين جنوب جزيرة الوراق وشمالها يعنيان قمة الدلتا القديمة ، وإنما فى عصرين مختلفين ، الأول فى القرون الأولى من الميلاد والثانى فى القرون الأولى من الهجرة » .

أما ابن سيرابيون ، فيذكر [2] أربعة رءوس للدلتا ، الأول جنوبى منف عند أهرام يوسف [3] (بالقرب من الفيوم) حيث يخرج فرع يتجه إلى الإسكندرية . ويرى عمر طوسون [4] أن هذا الفرع هو خليج منف الذى ذكره ابن عبد الحكم وغيره .

أما القمة الثانية فيذكر أنها أسفل مدينة مصر ، حيث يخرج خليجان ، أحدهما يتجه يسرة ليمر على سردوس والآخر يتجه يمنة إلى الفرما ويسميه عمود النيل [5] وبذلك يكون هذا المكان هو نفس المكان الذى ذكره هيرودوت من قبل ، أى عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق [6] .

أما القمة الثالثة التى ذكرها ابن سيرابيون فعند سردوس نفسها ، إذ يقول إنه يخرج من خليج سردوس عند هذه المدينة خليج يصب فى البحر أسفل الإسكندرية .

ثم يذكر أنه عند شطنوف يخرج خليج من خليج سردوس الكبير ويصب عند دمياط .

ويتضح لأول وهلة أن أماكن التفرع الأربعة لم تكن كلها موجودة فى زمن ابن سيرابيون

---

(١) مكانها الآن قرية بسوس فى مواجهة الطرف الشمالى لجزيرة الوراق — رزقانة المرجع السابق

(٢) ابن سيرابيون — كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة ص ١٤٠ وما بعدها

(٣) يذكر القلقشندى ما يفيد أن أهرام يوسف عند البدرشين حيث يقول فى صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٨ : موضع المقياس بمنف إلى الآن معروف على القرب من الأهرام اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبدرشين .

(٤) Tousson ; op. cit. I p. 177

(٥) ابن سرابيون المرجع السابق الذكر ص ١٤٢ : ويقول ابن سيرابيون عن تفرع فرعى سردوس والفرما ما يأتى : — ويخرج الخليج الثانى من النيل أسفل مدينة مصر ويمر إلى سردوس ثم إلى بنا ثم إلى بوصير ثم إلى شطيوف وهذه القرى كلها شرقية ثم يصب إلى البحر عند طول لخ ه (٥٣٨) مع مدينة سمنود وهى غربيه ... فأما الخليج السابع فهو الذى يقاسم خليج سردوس فيمر خليج يسره إلى سردوس ويمر هذا يمنة على سمته وهو عمود النيل يمر من مصر بتنيس وهى شرقيه إلى جرجير وهى شرقيه ثم إلى نو غربيه ثم إلى الفرما .

(٦) رزقانه « قمة الدلتا » ص ٣١

وإنما خلط بين المعلومات التى ذكرها من سبقوه . وكما ذكرنا سابقاً لم يكن فرع منف موجوداً فى ذلك الوقت . أما القمة الثانية فلم يذكرها من سبقه من الكتاب العرب إنما ذكرها كتاب العصر اليونانى والرومانى ، كما أن فرع الفرما لم يذكره أى كاتب عربى سابق أو لاحق لابن سيرابيون [1] .

أما قمتا سردوس وشطانوف فيمكن « أن يفهم على أنه تصوير صادق للحالة القائمة فى عهده أى أنه كان للدلتا فى ذلك العهد قمتان ، قمة رئيسية عند سردوس ، وقمة ثانوية أو مشروع قمة عند شطانوف » [2] .

وعلى أى حال فقد صارت قمة الدلتا الرئيسية عند شطنوف منذ منتصف القرن الرابع الهجرى (آخر العاشر الميلادى) ونرى الكتاب العرب ابتداء من ابن حوقل لا يذكرون إلا هذه القمة على أنها المكان الوحيد الذى يتفرع عنده النهر ، وظلت كذلك قروناً عدة حيث ذكرها ابن عبد السلام المنوفى فى القرن العاشر الهجرى [3] .

ثم أخذت تتراجع بعد ذلك نحو الجنوب حتى صارت عند موضعها الحالى ، أى أنها تراجعت فى غضون هذه المدة نحو الجنوب بمقدار عشرة كيلو مترات . ويرى الدكتور رزقانه [4] أن الظواهر تشير إلى أن قمة الدلتا ستظل فى التراجع جنوباً حتى تصل إلى شمال جزيرة الوراق كسابق عهدها فى القرون الأولى للهجرة ، بل يتوقع أن يكون التراجع أكثر من ذلك حتى تعود إلى المكان الذى ذكره هيرودوت من قبل ، أى عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق .

وعلى ذلك تكون قمة الدلتا مرت فى دورين ، دور تقدم نحو الشمال بلغ أقصى مداه فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) حيث أصبحت عند شطنوف ، ودور تراجع مرة أخرى نحو الجنوب حيث أصبحت قمة الدلتا فى الوقت الحاضر جنوب شبه جزيرة الشعير ، وما زال هذا الدور مستمراً [5] .

ولما كانت قمة الدلتا هى أول ما تكون منها ، كان من المؤكد أن فروع الدلتا القريبة

---

(١) يذكر الدكتور بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » عند ذكره الفرما ص ١٨٥–١٨٦ ما يأتى : — « ومدينة بلوز اسمها بالقبطية يرمون ويسميها العرب الفرما ، وكان فرع النيل اسمه الفرع البلوزى يهوى إلى البحر بقربها » ولا نعلم هل يقصد أن الفرع كان موجوداً عند الفتح العربى .

(٢) رزقانة « قمة الدلتا » ص ٣٣

(٣) مخطوطة « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » . نسخة بلدية اسكندرية ص ٨

(٤) رزقانه المرجع السابق ص ٣٤–٣٧

(٥) رزقانه المرجع السابق ص ٣٨

من القمة هى التى وجدت أولاً . وإذا ألقينا نظرة إلى فروع النيل فى الدلتا ، نلاحظ أن عددها وأماكنها وأسماءها قد تغير من وقت لآخر .

ويتبين مما ذكره الجغرافيون والمؤرخون اليونانيون والرومانيون أن فروع النيل كانت كثيرة ومنتشرة فى الدلتا من الشرق إلى الغرب . وقد ذكروا بعض هذه الفروع وأهملوا البعض الآخر فهيرودوت يذكر [1] ثلاثة فروع رئيسية تخرج من كركا سورروس ، أحدها يتجه شرقاً إلى بيلوز (الفرما) وهو الفرع البيلوزى ، والثانى وهو الكانوبى يتجه غرباً إلى كانوب (كوم سمعدى جنوب أبى قير) والثالث ويعتبره أكبرها وأبعدها شهرة – يخترق وسط الدلتا ويسمى السبنيتى [2] ويتفرع منه فرعان آخران أقل أهمية هما السايس [3] [5] والمنديس [4] كما يذكر فرعين آخرين على أنهما صناعيان ليسا طبيعيين هما البوكولى والبولبيتى .

ولكن الفيلسوف اليونانى أرسطو (٣٨٤–٣٢٢ ق . م) يرى أن الفرع الكانوبى وحده هو المجرى الطبيعى ، وأن الفروع الباقية حفرها الإنسان لتجفيف الدلتا [6] .

وفى القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعده ، كانت فروع النيل فى الدلتا التى ذكرها ديودور [7] الصقلى واسترابون [8] ، هى نفس الفروع التى ذكرها هيرودوت من قبل ، فيما عدا أنهما أطلقا على الفرع السايس اسم الفرع التانيس [9] . كما ذكر الفرع البولبيتى على أنه فرع أساسى كما اتحد البوكولى مع الجزء الجنوبى من مجرى السبنيتى وكونا مجرى

---

(١) هيرودوت فى مصر ص ٣٤

(٢) نسبة إلى سبنتيوس وهى سمنود

(٣) قد يكون نسبة إلى سايس وهى صا الحجر – ولو أن ذلك يتعارض مع الهامش –٥ وانظر الهامش – ٩

(٤) نسبة إلى منديس أى تل الربع جنوب شرق المنصورة

(٥) مكانه الآن بحر مويس . ويقول على مبارك أنه يغلب على الظن أنه هو البحر المردوسى أنظر على مبارك نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر ص ٥٣ .

(٦) عمر طوسون « تاريخ خليج اسكندرية » ص ٤

(٧) ديودور الصقلى فى مصر – وهيب كامل ص ٦٥ وما بعدها .

(٨) استرابون فى مصر ص ٧٨

(٩) نسبة إلى تانيس وهى صان الحجر . وقد ذكر استرابون ص ٧٨ أن البعض يطلق عليه أيضاً اسم الفرع السايس .

واحد ، أطلقا عليه اسم الفرع القاتنيقى [١] ، وقد اعتبره استرابون [٢] الثالث فى الضخامة بالمقارنة بالفرعين الكانوبى والبيلوزى .

وقد ذكر بطليموس فى القرن الثانى الميلادى فروعا سبعة تختلف أسماؤها عن الأسماء السابقة فى حين أن إميان مارسلان Ammien Marcellin الذى زار مصر فى القرن الرابع الميلادى يذكر نفس الأفرع التى ذكرها استرابون [٣] .

فإذا وصلنا إلى العصر العربى نجد أن الوضع قد تغير واختفت بعض الفروع وصار من المرجح أن عددها أصبح أربعا فقط [٤] .

ولكن الخوارزمى [٥] الذى ينقل عن بطليموس — يذكر أن النيل يتفرع من مصر (الفسطاط) سبعة أفرع تصب فى البحر فيما بين الاسكندرية ودمياط ، وبذلك يختلف موقع هذه المصبات عما كانت عليه فى العصور السابقة للإسلام ، كما أن عددها يختلف عن عدد فروع الدلتا فى العصر الإسلامى .

وذكر ابن عبد الحكم [٦] كذلك ، سبعة أفرع أو خلجان كانت موجودة قبل الإسلام وهذه الخلجان وإن ظل بعضها فى العصر العربى ، إلا أنها لا تصور تماما فروع النيل فى الدلتا ومصاباته فى ذلك الوقت .

أما ابن سيرابيون [٧] الذى ينقل عمن تقدموه — فقد ذكر هو أيضاً سبعة أفرع فى الدلتا هى من الغرب إلى الشرق ، فرع يصب فى البحر عند الإسكندرية وفرعان يصبان إلى الشرق من الاسكندرية وفرع دمياط وفرع سردوس وفرع بوصير وفرع الفرما .

ولما كانت معلومات ابن سرابيون خليطاً من المعلومات التى استقاها من المصادر السابقة ، فلا يمكن أن نتقبل بسهولة معلوماته هذه على أنها تصور الحالة التى كانت عليها الدلتا فى وقته . خصوصا وإنه فى نفس القرن الذى عاش فيه ابن سيرابيون عاش كاتب

---

(١) أى الفرع الأوسط لأنه كان يشق وسط الدلتا . انظرعمر طوسون — تاريخ خليج إسكندرية ص ٤

(٢) استرابيون فى مصر ص ٧٨

(٣) Tousson ;op. cit. I p. 147

(٤) رزقانه : « نهر النيل » مخطوط ابن سيرابون ص ٢٠٣ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مايو ١٩٥٠ .

(٥) صورة الأرض ص ١٠٩ .

(٦) فتوح مصر وأخبارها ص ٦

(٧) كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة ص ١٤٠ — ١٤٢

آخر هو اليعقوبى الذى يذكر [1] فرعين فقط للنيل هما فرعا رشيد ودمياط . ومنذ ذلك الوقت لم يعد يذكر إلا هذان الفرعان علاوة على فروع أخرى تخرج منهما .

ويمكن تقسيم فروع النيل فى الدلتا إلى قسمين ، قسم لم يعد له وجود فى العصر العربى ، أو على الأقل لم يعد يعمل كمصب للنهر ، وقسم آخر يمثل الأفرع التى تعتبر مصبات للنهر .

ويدخل تحت القسم الأول الأفرع الآتية :

فرع منف : ذكره ابن عبد الحكم ، وعنه نقل غيره من الكتاب العرب ، ولكنهم لم يوضحوا لنا شيئاً عن هذا الفرع يدلنا عن بدايته أو مجراه أو مصبه ، ويرجح أنه الفرع الذى ذكره ابن سيرابيون ووصفه بأنه يخرج عند طول ناك (٢٠َ,٥١°) فوق أهرام يوسف عليه السلام بشىء يسير ، ثم يمر إلى قصر يوسف وهو غربى ويسمّى ما عليه من الضياع ، ويصب فى البحر مع مدينة الإسكندرية [2] . وهو من الأفرع القديمة التى اختفت فى ذلك الوقت .

فرع سخا : ذكره ابن عبد الحكم وغيره ونسبوا حفره إلى أحد ملوك مصر القدماء [3] ومن اسمه يرجح أنه كان يمر بسخا . ويرى عمر طوسون [4] أنه يمثل فرع الترمتياك Thermutiaque الذى ذكره بطليموس إما كله أو جزءاً منه ، وأنه كان موجوداً فى العصر العربى أو على الأقل الجزء الجنوبى منه الذى صار يعرف فيما بعد باسم بحر ابيار .

ويذكر ابن مماتى [5] ضمن جسور وترع الغربية ، جسر سخا الذى يفتح فى الثامن من بابه وأنه يسمّى ترعة اسمها السخاوية ، لعلها الجزء الشمالى من هذا الفرع .

فرع سردوس : ذكره المؤلفون العرب نقلاً عن ابن عبد الحكم ، ولكن بن سيرابيون [6] هو الوحيد الذى يصف مجراه ، وأنه يخرج أسفل مدينة مصر ويمر إلى سردوس ثم نيا وبوصير وشطيوف وتقع جميعها شرقى هذا الفرع ، ويصب فى البحر عند طول (لح ٥) أى ٣٨° مع مدينة سمنود . ويخرج منه فروع أخرى تتجه إلى أماكن مختلفة .

---

(١) كتاب البلدان ص ١٢٦

(٢) ابن سيرابيون « المرجع السابق ص ١٤٠-١٤١

(٣) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٧٠

(٤) Tousson; op. cit. 5 p. 185

(٥) قوانين الدواوين ص ٢١٨

(٦) المرجع السابق ص ١٤٢ : « كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة »

ويصف عمر طوسون [1] مجرى هذا النهر بقوله « إنه بعد سردوس (بسوس) يتبع مجرى قناة زيتون الحالية التي تمر غرب قليوب ثم يتبع بعد ذلك قناة إسكندر ثم يتحد مع القرطامية حتى كفر فرنسيس حيث يدخل في فرع دمياط ، (وإن هذه المسافة كانت تمثل جزءاً من الفرع السبنيتي الذى عرف فيما بعد باسم الفاتنيتي) ، وبعد بنها يتبع فرع دمياط حتى بانا ثم يمر بأبي صير وشطيوف (بلد غير معروف) ثم سمنود وبعد ذلك يتحد مع فرع تنيس ليصب في بحيرة تنيس » .

ويذكر المؤلفون العرب أن الذى حفر هذا الخليج هو هامان وزير فرعون ، وأنه جمع مالاً وفيراً من أهل القرى التي يمر عليها ، ولذلك فهو أكثر الخلجان عطوفاً .

وقد بقي الخليج إلى وقت متأخر حيث وصفه المسعودى بأنه من أمهات الترع التي بالبلاد [2] ولكنه فقد أهميته بحفر خليج أبي المنجا في عهد الأفضل شاهنشاه وزير المستعلي سنة ٥٠٦ هـ ولم يعد غير ترعة ذكرها ابن مماتي باسم « بحر قليوب المعروف بالسردوس » [3] .

وقد وصفه ابن دقماق عند ذكره قليوب « وبها (قليوب) خليج السردوس ، وهو أحد نزهات الدنيا ، وهو خليج يسار فيه بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة وفواكه دانية ، وهذا الخليج حفره هامان وزير فرعون ١ ٥٠ » [4] .

ولكن هذا الوصف لا يدل على ما كان عليه الخليج في الوقت الذى عاش فيه ابن دقماق ويظهر أنه نقله عن ابن الأثير حيث إن القلقشندى وهو معاصر لابن دقماق يذكر هذا الوصف بنصه نقلاً عن ابن الأثير ثم استطرد [5] : « قلت : (أى القلقشندى) أما الآن فقد ذهب ذلك وبطل الخليج وعوض ببحر أبي المنجا » .

فرع الفرما : وهو الفرع البيلوزى أحد الفروع الرئيسية القديمة ، ولم يذكر هذا الفرع إلا ابن سيرابيون [6] وسماه عمود النيل ، ويتجه من مصر يميناً ليمر بتانيس (صان

---

(١) Tousson ; op. cit. I p. 188

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٣

(٣) قوانين الدواوين ص ٢٠٦

(٤) كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ٤٧

(٥) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٠٤

(٦) المرجع السابق ص ١٤٢ . ومما يدل على أن فرع الفرما لم يكن موجوداً في العصر العربي ما قاله ياقوت (معجم البلدان جـ٣ ص ٨٨٣) عن الفرما : « وليس بها ترع ولا ماء يشرب لا ماء المطر فإنه يخزن في الجباب ويخزنون أيضاً ماء النيل يحمل إليهم في المراكب من تنيس » كما أنه لم يذكر أى كاتب عربي أنه كان موجوداً خصوصاً ابن عبد الحكم .

الحجر) وجرجير [1] وتقعان إلى الشرق منه ونوو إلى الغرب منه ثم إلى الفرما حيث يصب فى البحر عند طول ندل (٣٠ َ ٥٥٤) . ولا يمكننا أن نتقبل بسهولة وجود هذا الفرع فى ذلك الوقت ، حيث إن أحداً من المؤلفين العرب لم يتعرض لذكره .

فرع بوصير : لم يذكره إلا ابن سيرابيون كذلك ، حيث يصفه بقوله [2] : « ويخرج من خليج سردوس الكبير ، أوله بإزاء بوصير يمر حتى يصب فى البحر عند مدينة اسرودات وهى غربيه » . ولما كانت مدينة اسرودات هذه غير معروفة فلا نعلم شيئاً عن مجرى هذا الفرع أو مصبه .

أما القسم الثانى من الفروع فيشمل فرعى رشيد ودمياط وما يتفرع منهما :

فرع رشيد : ويتفرع عند شطنوف [3] ، وهذا الفرع لم يأخذ شكله الحالى إلا فى عصر متأخر .

وقد ذكره هيرودوت على أنه قناة صناعية أطلق عليها اسم البولبيتى ، وكانت تخرج من الفرع الكانوبى عند زاوية البحر (٤) (٦) (التابعة لمركز كوم حمادة بحيرة) . ثم صارت من فروع النهر التى ذكرها ديودور الصقلى واسترابون .

وفى خلال القرن الخامس الميلادى ، فقد الجزء الشمالى للفرع الكانوبى أهميته كفرع وصار مجرد ترعة [4] ، وكون البولبيتى مع الجزء الجنوبى للكانوبى فرعاً واحداً هو الذى أطلق عليه العرب اسم فرع رشيد ووصفوه بأنه عمود النيل [5] ، كما كان الكانوبى من قبل هو الفرع الرئيسى فى الدلتا .

---

(١) جنوب شرق بحيرة المنزلة .

(٢) انظر الهامش ٦ فى الصفحة السابقة .

(٣) أطلق عليه الإدريسى اسم شنطوف . انظر : صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ص ١٤٩ وهى قرية لا زالت موجودة بمحافظة المنوفية .

(٤) عمر طوسون « تاريخ خليج اسكندرية ص ١٠–١١

(٥) الدمشقى شيخ الربوة : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٥٩ – النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٢ – المقريزى الخطط جـ ١ ص ٥٤ .

(٦) يذكر على باشا مبارك فى موضع أن الفرع الكانوبى كان يفرع عند فوة ويذكر فى موضع آخر أنه يتفرع عند الرحمانية حيث يتجه فرع إلى كانوب والفرع الآخر هو بحر رشيد . وهو بذلك يجعل مكان التفرع إلى الشمال شيراً من المكان الذى يتفرع منه وهو زاوية البحر أو الرافقة والتى ذكر قدامة أن عندها يخرج اسكندرية . وأرى أن على باشا مبارك أخطأ فى تعيين مكان تفرع هذا الفرع – أنظر : الخطط التوفيقية جـ ١٥ ص ٢

نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر ص ٥١

قدامة ابن جعفر ... الخراج وصفة الكتابة ص ٢٢٠

وكانت تخرج من هذا الفرع فروع أخرى نجد وصفاً دقيقاً لها فى المؤلفات العربية وعلى الخصوص مؤلفات ابن حوقل والإدريسى. ومن هذه الفروع :

ا – خليج الإسكندرية : وسنذكره فى الفصل الرابع الخاص بالخلجان .

ب – بحر ابيار : ذكره ابن حوقل والإدريسى والقلقشندى وإن كان القلقشندى هو الذى أطلق عليه هذا الاسم [١] . ويتفرع عند بلدة أبو يحنس (أو أبو نشابة كما يقول القلقشندى) ويتجه شمالاً بشرق ، ثم يعطف مرة أخرى إلى الغرب ليتصل بالفرع الرئيسى عند ببج كما يذكر ابن حوقل [٢] والإدريسى [٣] أو الفرستق كما يقول القلقشندى [١] .

ويسمى الإدريسى الأرض المحصورة بين هذا الفرع والفرع الرئيسى جزيرة بيار [٣] ولكن ابن مماتى [٤] والقلقشندى [١] يطلقان عليها اسم جزيرة بنى نصر .

وبحر ابيار هذا يمثل الجزء الأعلى لفرع الترمتياك الذى ذكره بطليموس ، أو خليج سخا الذى ذكره ابن عبد الحكم ، كما تحتل قناة البتانونية حالياً الجزء الأكبر من مجراه[٥] .

حـ – فرع فرنوه : ذكره ابن حوقل [٢] فقط ، وحسب وصفه ، أن النهر عند ببج ، ينقسم إلى فرعين يتصلان مرة أخرى عند بلهيب (العطف) أما الفرع الغربى فيمر على فرنوه ومحلة مسروق (محلة نصر) ومحلة أبى خراشة وفيشة وسندبيس وسنبازه ، ثم ينتهى عند بلهيب حيث يجتمع مع الفرع الشرقى .

ء – فرع صا : وهو الفرع الشرقى الذى يخرج عند ببج ليمر على «صا» . ولم يذكر ابن حوقل [٢] أى بلاد أخرى غير «صا» .

هـ – نهر شابور : ذكره ابن حوقل والإدريسى [٦] ، وإن كان الأخير هو الذى أطلق عليه هذا الاسم ، ويخرج عند أبى يحنس ويتجه إلى شابور ثم يتبع بعد ذلك مجرى خليج إسكندرية .

ويتابع الإدريسى [٦] وصف فرع رشيد ، فيذكر أنه عند فوة ينقسم إلى قسمين يحصران بينهما جزيرة الراهب ثم يتصلان عند سنديون شمال فوة بخمسة عشر ميلاً .

---

(١) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٢

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٨٣–٨٥

(٣) الإدريسى صفة المغرب ص ١٦٠

(٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢١٩

(٥) 5 — Tousson ; op. cit I.P. 185

(٦) صفة المغرب ص ١٦٠–١٦١

وتقابل سنديون على الضفة الغربية قرية سمديس ويخرج إلى الشمال منها فرع [1] يصب فى بحيرة مارة [2] بين رشيد والإسكندرية ، وقد أطلق عليها أبو الفدا اسم بحيرة نسترو ة خطأ إذ أن نسترو ة تقع بين دمياط ورشيد [3] وهى المعروفة ببحيرة البرلس .

ثم يتابع النيل مجراه فى ذلك الفرع ليصب عند رشيد [4] حيث تعرف فوهته بالأشتوم .

فرع دمياط : مثل فرع رشيد ، ناله كثير من التغيير والتبديل حتى اتخذ وضعه الحالى وكان فى أول أمره — مثله فى ذلك مثل فرع رشيد أيضاً — قناة صناعية أطلق عليها هيرودوت اسم البوكولى ، تخرج من الفرع السبنيتى عند مدينة سمنود [5] .

ولكن سرعان ما اتحدت هذه القناة مع الجزء الجنوبى من مجرى السبنيتى فى مجرى واحد أطلق عليه ديودور الصقلى واسترابون اسم الفرع الفاتنيتى .

ثم ناله بعض التغيير منذ ذلك الوقت حتى الفتح العربى ، فأطلق عليه الكتاب العرب اسم الفرع الشرقى وفرع تنيس ودمياط ثم فرع دمياط فقط .

وأول من ذكرهذا الفرع ، الخوارزمى وابن عبد الحكم وغيرهما وإن لم يذكروا مكان تفرعه حتى جاء ابن سيرابيون فى القرن الثالث فحدد مكان خروجه عند شطنوف .

ثم يتوسع اليعقوبى فى وصف هذا الفرع فيذكر أنه يفترق فرقتين إحداهما تجرى إلى دمياط والأخرى تتجه إلى تنيس [6] .

والإدريسى هو الذى أعطانا وصفاً دقيقاً لهذا الفرع فيذكر [7] ، أنه عند شطنوف يخرج فرعان أحدهما إلى الغرب والآخر يتجه إلى الشرق نحو تنيس ودمياط .

---

(١) أطلق عليه عمر طوسون اسم قناة فزارة

(٢) لعله يقصد بحيرة أدكو وهو الأصح ولم يذكر ياقوت فى معجمه ، بحيرة بهذا الاسم. وقد سماها القلقشندى باسم بحيرة أبو قير (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧) ويقول : وقد وقع للسلطان عماد الدين صاحب حماة وهم فجعل هذه البحيرة هى بحيرة نسترو ه .

(٣) انظر ياقوت « معجم البلدان » ج ٤ ص ٧٨٠

(٤) يذكر على باشا مبارك : أن فرع بولبتين سمى فرع رشيد بعد وضع هذه المدينة عليه وأنها أخذت فى الظهور فى خلافة المتوكل على الله العباسى سنة ثمانمائة ونحو السبعين ميلادية . انظر : الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٧٥ .

(٥) « ديودور الصقلى فى مصر » — وهيب كامل حاشية ص ٦٥ .

(٦) كتاب البلدان ص ١٢٦ .

(٧) صفة المغرب ص ١٤٩ و ١٥١ .

وشمال أنتوهى يتفرع – هذا الفرع الشرقى – إلى فرعين ، يمر الشرقى [1] منهما على منية عطار (ميت عطار) التى تقع قبالة أنتوهى ثم يمر على عدة قرى لعل من أهمها – والتى لا تزال موجودة للآن – صحرشت الكبرى (صهرجت الكبرى) على الضفة الشرقية وصحرشت الصغرى (صهرجت الصغرى) على الضفة الغربية ، ومنية غمر (ميت غمر) على الضفة الشرقية ويقابلها على الضفة الغربية منية زفته (زفتى) ، ثم إلى قرية دمسيس .

أما الفرع الغربى فيتجه من أنتوهى إلى مليج ثم إلى طنطة والجعفرية والسنطة وسنباط ثم إلى شبرة [2] .

وعند شبرة ودمسيس يلتقى هذان الفرعان فى مجرى واحد إلى أن ينقسم مرة أخرى عند طرخا (طلخا) إلى فرعين أحدهما يتجه إلى تنيس والثانى إلى دمياط حيث يصب فى البحر فى موضع يقال له الأشتوم عرض النيل هناك نحو مائة ذراع [3] .

ويظهر أن الفرع من طلخا إلى دمياط كان أقل شأناً من الفرع المتجه إلى تنيس ،حيث إن الإدريسى يقول إن ذراع النيل الذى ينصب إلى دمياط يخرج من الذراع النازل إلى تنيس [4] ولكن سرعان ما فقد الأخير أهميته فنجد أن الدمشقى شيخ الربوة ومن جاء بعده يذكرون الفرع الشرقى باسم فرع دمياط فقط ، ثم يؤكد القلقشندى هذا المعنى فى قوله [5] : « فأما الفرقة الشرقية فتمر فى الشمال حتى تأتى على قرية تسمى المنصورة من عمل المرتاحية فتتشعب شعبتين ، وتمر الغربية منهما وهى العظمى إلى دمياط وتصب فى بحر الروم ، وتمر الشرقية منهما على أشموم طناح من غربيها حتى تجاوز بلاد المنزلة وتصب فى بحيرة شرقى دمياط وهى بحيرة تنيس » .

ولقد لعبت فروع النيل دوراً كبيراً فى التقسيم الإدارى للدلتا [6] ، وقد كان الكتاب

---

(١) هذا الجزء الشرقى يكون جزءاً من فرع دمياط الحالى .

(٢) هذا الفرع مكانه الآن بحر شبين . وشبرا المقصودة هى شبرا ملس (انظر خريطة فى الولاة والقضاة للكندى) .

(٣) ياقوت معجم البلدان جـ ١ ص ٢٧٧ ، جـ ٢ ص ٦٠٢ .
ويلاحظ أن فم فرع رشيد كان يعرف أيضا بالأشتوم .

(٤) المرجع السابق ص ١٥٧ (صفة المغرب) .

(٥) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩١–٢٩٢ .

(٦) E. I. art «Al Nil».

السابقون على الإسلام يطلقون لفظ الدلتا على المنطقة المحصورة بين فروع النيل فقط ، أما المنطقة الواقعة إلى يسار الدلتا فأطلقوا عليها اسم ليبيا بما فى ذلك الإسكندرية ، والمنطقة التى على يمين الدلتا سموها بلاد العرب [1] .

أما فى العصر العربى ، فكانت المنطقة الواقعة شمال القاهرة تسمى « أسفل الأرض » و « الريف » كما يطلق اسم الحوف الشرقى على كل ما يقع شرقى فرع دمياط والحوف الغربى على ما يقع غرب فرع رشيد .

---

(١) استرابون فى مصر - ص ٩٢ ١٧ : ٣٠

الفصل الرابع

الخلجان والترع والجسور

عنى المصريون من قديم بحفر الترع وإقامة السدود لضمان الانتفاع بمياه النهر ، سواء أكان الفيضان مرتفعاً أو منخفضاً . وفى ذلك يقول استرابون [1] إن انصراف المصريين إلى شئون النهر قد وصل إلى حد أنهم يقهرون الطبيعة بالجد ، وأن النهر يروى من الأرض فى الفيضان المنخفض مثل ما يروى منها فى الفيضان المرتفع بواسطة الترع والجسور .

ويتكلم ابن عبد الحكم عن مصر فى أيام الملوك القدماء فيقول [2] « وكانت مصر قناطر وجسوراً بتقدير وتدبير ، حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا . فذلك قول الله عز وجل فيما حكى عن قول فرعون . « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون [3] » .

وسأل عمرو بن العاص المقوقس عن مصر ، بم تكون عمارتها ، فكان من أول هذه الأسباب « حفر خلجانها ، وسد جسورها وترعها ، لما فى ذلك من تحكم فى رى الأراضى على اختلافها من حيث ارتفاعها وانخفاضها وأن يكون فى أوقات محددة تضمن خلو الأرض من مزروعاتها . »

وأكثر الخلجان والترع التى ذكرها الكتاب العرب توجد فى الوجه البحرى .

أما الخلجان فهى أمهات الترع التى تغذى غيرها من الترع الأخرى الأصغر منها . وكلمة خليج مأخوذة من فعل خلج أى انتزع ، والخليج لغوياً معناه نهر يقتطع من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به فيه [4] .

وقد اشتركت معظم المراجع العربية فى ذكر سبعة خلجان هى ، سخا ودمياط ومنف والفيوم والمنهى والسردوس وخليج الإسكندرية . وهى كلها كانت موجودة قبل

---

(١) « استرابون فى مصر » ص ٤٦ ١٧ : ٣

(٢) « فتوح مصر وأخبارها » ص ٦ .

(٣) سورة الزخرف آية ٥١ .

(٤) اللسان .

الإسلام . أما خليج أمير المؤمنين ، فإنه وإن جدد حفره بعد الفتح العربى ، إلا أنه حفر قبل الإسلام . كما ذكرت بعض هذه المراجع خلجاناً أخرى حفرت فى العهد الإسلامى

والمرجع الرئيسى الذى اعتمد عليه الآخرون فى ذكر الخلجان هو ابن عبد الحكم ، فقد ذكر فى فتوح مصر (1) وهو يتكلم عن فضائل مصر فى أيام الملوك القدماء « وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره فى الجانبين جميعاً ما بين أسوان ورشيد ، وسبع خلج خليج الإسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى وخليج سردوس وكان جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما قدروا من قناطرها وخلجها وجسورها » . ثم ذكر بعد ذلك خليج أمير المؤمنين .

وأربعة من هذه الخلجان السبعة التى ذكرها ابن عبد الحكم وغيره قد تعرضنا لذكرها فى الفصل السابق وهى خلجان دمياط وسخا والسردوس ومنف :

أما الخلجان الثلاثة الباقية فهى المنهى والفيوم وإسكندرية .

المنهى والفيوم : من الخلجان القديمة ، وكان من أغراضه علاوة على رى إقليم الفيوم توصيل المياه الزائدة أيام الفيضان إلى بحيرة موريس (قارون) ثم إعادة هذه المياه إلى النهر مرة أخرى عند الحاجة ، ولذلك فقد عملت على طرفية أهوسة لضبط خروج ودخول المياه . وكان هذا الخليج يخرج حينئذ من الإقليم الهرقلى (أهناسية المدينة) (2) (3) .

ويذكر ابن عبد الحكم وغالبية المؤلفين العرب أن الفيوم والمنهى حفرهما يوسف النبى عن طريق الوحى . فيقول ابن عبد الحكم (4) « أوحى إلى يوسف صلى الله عليه وسلم أن تحفر ثلاثة خلج ، خليجاً فى أعلى الصعيد من موضع كذا إلى موضع كذا وخليجاً شرقياً من موضع كذا إلى موضع كذا ، وخليجاً غربياً من موضع كذا إلى موضع كذا ، فوضع يوسف العمال فحفر خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون ، و أمر البنائين أن يحفروا اللاهون ، وحفر خليج الفيوم وهو الخليج الشرقى ، وحفر خليجاً بقرية يقال لها تنهمت من قرى الفيوم وهو الخليج الغربى . فخرج ماؤها من الخليج الشرقى فصب فى النيل ، وخرج من الخليج الغربى فصب فى صحراء تنهمت إلى الغرب ، فلم يبق فى

---

(1) ص ٦ .

(2) استرابون فى مصر — وهيب كامل ص ٩٧ ، ١٠١ ١٧ : ٣٥ — ١٧ : ٣٧

(3) يذكر ديودور الصقلى أن الملك موريس حفر هذه البحيرة على بعد ١٠ سخينوس من جنوب منف (أى حوالى ١١١ كم) لتخزين المياه الزائدة حتى لايغمر النهر البلاد بتياره القوى فى غير أوان الحاجة ، واحتفر فيما بين النهر والبحيرة قناة . وظلت البحيرة تفى بحاجات المصريين إلى وقته (اى وقت ديودور انظر : ديودور الصقلى فى مصر — وهيب كامل ص ٩٩ — ١٠٠ ويذكر المعرب ان موريس ربما يكون امنمحت الثالث من الأسرة ١٢)

(4) فتوح مصر ص ٤٥ .

الجوبة ماء . ثم أدخلها الفعلة فقطع ما كان فيها من القصب والطرفاء وأخرجه منها ، وكان ذلك ابتداء جرى النيل . وقد صارت الجوبة أرضاً ريفية برية وارتفع ماء النيل فدخل فى رأس المنهى فجرى فيه حتى انتهى إلى اللاهون فقطعه إلى الفيوم فدخل خليجها فسقاها » .

ويصف الإدريسى [1] خليج المنهى بأنه « يخرج إلى جهة الغرب عند مدينة صول ويسمى هناك المنهى ، فيمر جارياً نحو المغرب والشمال فيصل إلى مدينة البهنسا على أربعة مراحل وهى بالجهة الغربية من هذا الخليج ، وينزل هذا الخليج مع الشمال إلى مدينة اهناس وذلك مرحلتان ومنها إلى اللاهون مرحلتان ومنها إلى مدينة دلاص وهى فى الضفة الشرقية من معظم النيل ، وينتهى هذا الخليج إلى الفيوم ويصل إلى بحيرة اقنى وتنهمت » .

ويحدد الإدريسى مكان صول هذه بأنها تبعد عن أخميم مسافة يوم . ويرى عمر طوسون [2] أنها مدينة سوهاج الحالية ، وأن المنهى كان يتبع فى مجراه ترعة السوهاجية الحالية حتى ديروط حيث يسير فى مجرى بحر يوسف إلى اللاهون .

ولكنى اعتقد أن الإدريسى أخطأ أولاً فى تعيين مكان صول ، وثانياً فى مكان خروج الخليج . فمدينة صول تقع إلى الشمال كثيراً من المكان الذى ذكره الإدريسى ، فياقوت [3] يذكر أنها قرية فى أول الصعيد ، وابن الجيعان وابن دقماق [4] يذكران أنها تابعة تابعة للأعمال الأطفيحية . علاوة على ذلك يوجد حاليا بلدة بهذا الاسم تقع جنوب أطفيح على الجانب الشرقى للنيل وتتبعان محافظة الجيزة . كما أنه لم يرد فى المراجع أى ذكر لبلد آخر بهذا الاسم تكون هى المقصودة فى رواية الإدريسى .

أما عن مكان خروج الخليج فإننا نعتمد على رواية النابلسى الشافعى الصفدى الذى تولى النظر فى بلاد الفيوم سنة ٦٤١ هـ وهو بذلك ثقة فيما يقول — فقد ذكر [5] بعد الإدريسى بأقل من قرن من أن المنهى يخرج من النيل عند قرية دروة سريام .

وقد ذكر ابن عبد الحكم من قبل أن المنهى أخرجه يوسف من أعلى أشمون .

---

(١) صفة المغرب ص ٥٠–٥١ .

(٢) op. cit. T.I. p. 174)

(٣) معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٣٥ .

(٤) ابن الجيعان «التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية» ص ١٥٠ .
ابن دقماق «الانتصار لواسطة عقد الامصار» جـ ٤ ص ١٣٦

(٥) تاريخ الفيوم وبلاده ص ٣ .

ولا شك أن المقصود الأشمونين ، التى ذكر ابن مماتى [1] أن بها الجبل المعروف بكرسى الساحرة الذى يخرج عنده المنهى . ولما كانت دروة سربام هذه من أعمال الأشمونين ، فنرجح أنها المكان الذى عناه ابن عبد الحكم وابن مماتى .

والقلقشندى [2] والمقريزى [3] يحددان أيضا خروج المنهى من دروة سريام هذه والتى صارت تعرف وقتئذ باسم دروة الشريف [4] .

ويهاجم النابلسى الصفدى رواية المؤرخين العرب عن حفر هذين الخليجين بالوحى فيقول [5] : « المسافة من عهد يوسف عليه السلام إلى الآن بعيدة . وشروط الموثوق بروايته عزيزة شديدة ، ولعمرى لو كان هذا الأمر جرى لضرب فى قصصه الواردة فى القرآن بحصة بل بحصص » . ويرى أن حفر المنهى هو نتيجة للتفكير الإنسانى والتصميم الهندسى [6] .

ويصف النابلسى الخزان الذى بنى عند اللاهون بقوله [7] . « وعند منتهاه جعل بناء محكم على وضع هندسى متقن بتماسيح الرصاص وزير الحديد مابين الأحجار ، يعلو هذا البناء على أرض الخليج المحتفر خمسة عشر ذراعاً ، يرد هذا البناء الماء الذى يصل إليه من النيل فى البحر المنهى عن أن يخرج فى منخفض وراءه إلى النيل » .

ثم يتبين الإهمال الذى تعرض له هذا الخليج فيقول [7] « وقد كان رأس هذا البحر المنهى فيما سلف يجف كل سنة أربعة أشهر ويمد الفيوم ماؤه الحاصل فيه والنزر بقية السنة وهى ثمانية أشهر ، فانعكس الحال فيه لإهمال حفره وعدم العناية به ، فصار يجف الآن ثمانية أشهر ويمده النيل أربعه أشهر . ومن دليل إهماله أنه لم يوجد

---

(١) قوانين الدواوين ص ٢٣٠ : لا شك أن ابن مماتى يقصد أن هذا الجبل قريب من انصنا التى تقع على البر الشرقى للنيل وهى قريبة لدروه سربام هذه . ومعنى كرسى الساحرة أى عاصمتها وربما يشير بذلك إلى دلوكة العجوز التى يقال إنها بنت مقياسا بانصنا . أو ربما كانت الألف زائدة فى الساحرة ويكون المقصود كرسى السحرة ، أى عاصمتهم حيث يذكر العرب أنها كانت مدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون — وعلى كل فان ابن عبد الحكم وابن مماتى يتفقان مع النابلسى وغيره ممن أتوا بعده أن المنهى يخرج من هذه النواحى وليس من صول كما ذكر الإدريسى .

(٢) صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٠١ .

(٣) الخطط جـ١ ص ٧١ .

(٤) تعرف الآن باسم ديروط الشريف من أعمال أسيوط وعندها يخرج بحر يوسف .

(٥) انظر الهامش ٥ فى الصفحة السابقة

(٦) تاريخ الفيوم وبلاده ص ٥ .

(٧) المرجع السابق ص ٣ .

للاهتمام بحفره ذكر فى الديوان ولا حساب يشهد به من مدة تزيد على مائة سنة » وهو قول رجل مسئول يدل على مدى الإهمال الذى تعرضت له البلاد والذى كان من نتائجه انحطاط ثروة البلاد الزراعية . ولكنه يذكر أن نجم الدين أيوب أمر بالعناية به .

وقد صار المنهى وخليج الفيوم يعرفان منذ عهد المقريزى على الأقل باسم بحر يوسف [1] ، ويصفه المقريزى بأنه نهر لا ينقطع جريانه فى جميع السنة . ويذكر قصة حفر يوسف له وخروج الملك ليرى هذا العمل الذى تم فى سبعين يوماً ، فتعجب وقال إنه عمل ألف يوم وبذلك سميت الفيوم [2] .

وقد أجمع المؤلفون سواء قبل الإسلام وبعده ، على أن هذا الخليج قد جعل من الفيوم بلداً خصباً لا يعادله إقليم آخر بمصر . وأنه الاقليم الوحيد الذى يروى طيلة العام [3] .

٢ — خليج الإسكندرية : ارتبط تاريخ هذا الخليج بتاريخ الإسكندرية . فالإسكندر الأكبر عندما بنى مدينته سنة ٣٣١ ق.م ، رأى أن يوفر لها الماء فمد قناة من الفرع الكانوبى عند مدينة شديا [4] إلى الإسكندرية [5] .

وقد وصف استرابون [6] هذه القناة بأنها تقع على يمين الخارج من الإسكندرية عن طريق البوابة الكانوبية ، وأنها تمتد من البحيرة (بحيرة مارية أو ماريو طيسى وهى مريوط الحالية) إلى شديا على الفرع الكانوبى والتى تبعد عن الإسكندرية أربع شوينات (٣٤,٥ كم تقريبا) . وعند شديا مرسى المراكب التى يستقلها الحكام عند إبحارهم إلى الجنوب ، ودائرة جمركية للبضائع القادمة من الشمال والجنوب .

---

(١) المقريزى الخطط جـ١ ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٢٤٥ .

وهو قول أجمع عليه أكثر المؤلفين العرب . وهناك تعليلات أخرى لهذه التسمية ، منها ما جاء فى كتاب «الاستبصار فى عجائب الأمصار» لمؤلف مراكشى مجهول نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ص ٩١ «قال عبد الملك بن حبيب إنما سميت الفيوم لأن إخراجها ألف دينار كل يوم ٥٠١» ويذكر الدكتور جونستون أن الفيوم هى تعريب كلمة بى يوما Piyuma أى النهر الذى يطلقه المصريون على النيل انظر p. 7

(٣) استرابون ص ٩٧ — قلقشندى المرجع السابق جـ٣ ص ٣٠١ — المقريزى الخطط جـ١ ص ٧١ .

(٤) أى القنطرة ومكانها اليوم قرية النشو البحرى مركز كفر الدوار .

(٥) عمر طوسون «تاريخ خليج الاسكندرية» ص ٩ ويذكر أن رأس هذه الترعة وفمها لا يزالان إلى اليوم بالحالة التى كانا عليها فى عصر إقامتهما على ترعة الناصرى القديمة التى تمثل مجرى الفرع الكانوبى القديم .

(٦) استرابون فى مصر ص ٧٦ .

وهذه القناة كانت صالحة للملاحة طيلة السنة ، إذ أن استرابون [1] يذكر أن أكبر مميزات الإسكندرية ، أنها المدينة الوحيدة فى مصر كلها ذات الموقع الصالح للتجارة الخارجية لوجود الميناء والداخلية لأن « النهر يحمل وينقل بسهولة كل البضائع إلى هذا الموقع » .

ولقد ظل هذا الخليج على الحالة التى وصفها استرابون – أى من شديا إلى إسكندرية – حتى القرن الخامس الميلادى حيث فقد الفرع الكانوبى أهميته وأصبح مجرد ترعة [2] ، تخرج من فرع رشيد عند الرافقة (زاوية البحر) ، فإذا ما وصلت إلى الكريون تفرعت فرعين فرع ظل كما كان الحال قديماً يتجه شمالاً فى المجرى الكانوبى ، والفرع الآخر هو قناة الإسكندرية القديمة من شديا حتى الإسكندرية .

فلما فتح العرب مصر ، كان الجزء الممتد من الكريون إلى خليج أبى قير قد زال من الوجود ، وبمعنى آخر أصبح خليج الإسكندرية عند الفتح العربى يمتد من زاوية البحر إلى الكريون فى مجرى الفرع الكانوبى القديم ثم يتبع مجرى قناة شديا الذى حفره الإسكندر [3] .

وقد أخطأ ابن عبد الحكم وغيره من المؤلفين العرب ، إذ نسبوا إلى كليوبتره إنشاء هذا الخليج ، وأنها ساقته من النيل من قرية كسا قبالة الكريون [4] ولكن المسعودى يذكر أن الخليج كان موجوداً عند إنشاء الإسكندرية فيقول [5] « وقد كان الإسكندر ابن فيلبيس المقدونى بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل وكان يفجر إليه معظم ماء النيل ويسقى بلاد الإسكندرية وبلاد مريوط » .

وقد تغير مكان خروج هذا الخليج منذ الفتح عدة مرات .

فكان يبتدئ أولاً عند الرافقة ، [6] وظل الحال على ذلك حتى أوائل القرن الرابع الهجرى على الأقل حيث كان قدامة بن جعفر آخر مؤرخ يقول بخروج الخليج

---

(١) استرابون فى مصر ص ٧١ .
(٢) عمر طوسون : المرجع السابق ص ١١ .
(٣) انظر عمر طوسون . تاريخ خليج الاسكندرية ص ١٥ .
(٤) ابن عبد الحكم المرجع السابق ص ٤١ – ابن دقماق المرجع السابق جـ ٥ ص ١٢١ – المقريزى الخطط جـ ١ ص ٧١ ، ١٦٩ .
(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٩ .
(٦) انظر ابن خرداذبة المسالك والممالك ص ٢٢٠ .

من ذلك المكان [١] . وقد طهر الخليج فى هذه الفترة مرتين على الأقل ذكرهما المؤرخون العرب ، أولاهما على يد الحارث بن مسكين أثناء تولية قضاء مصر من قبل الواثق بالله سنة ٢٣٩ هـ [٢] . والثانية فى عهد أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ [٣] .

ولكن سرعان ما طمثته الرمال ، إذ إن المسعودى يذكر أن النيل انقطع عن الإسكندرية وأنه فى سنة ٣٣٢ هـ زاد النيل إلى ثمانية عشر ذراعاً ومع ذلك لايعلم هل دخل الماء خليج الإسكندرية أم لا . وفى ذلك دليل على مدى الإهمال الذى تعرض له هذا الخليج [٣] .

ويذكر ابن حوقل بعد ذلك بسنين قليلة ، مكاناً آخر إلى الشمال من الرافقة يخرج عنده الخليج وهو مدينة شابور [٤] . ولكن لم يذكر هو أو غيره التاريخ الذى حدث فيه هذا التغيير أو الشخص الذى أمر به .

ويصف [٥] الإدريسى — الذى جاء بعد ابن حوقل بقرنين — مجرى الخليج وصفاً مطابقاً لما ذكره ابن حوقل ، ولكن فى الصفحات التى تسبق ذلك [٦] يصير أنه عند قرية ببج يتفرع خليج يصل إلى الإسكندرية [٦] .

ويرى عمر طوسون أن فم الخليج فى هذه الفترة كان عند ببج فعلاً ، وأن ذلك التغيير حدث فى زمن الحاكم بأمرالله سنة (٤٠٤ هـ — ١٠١٣ م) [٧] . ويستند فى ذلك على ما ذكره المقريزى نقلاً عن أبى الحسن المخزومى [٨] (من القرن السادس الهجرى) « أما خليج الإسكندرية فإنه من فوهة الخليج إلى ترعة بودزة ليس على شىء منها سد . بومنجرج (أبومنجوج) ، محلة تبوك (آتبوك) ، أسينه (أسهانية) ، أورين محلة فرنوى ، محلة حسن ، منية طراد وتعرف بالقاعة ، محلتا مسروق ونصر » .

---

(١) الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٢٠ .
(٢) الكندى « الولاة والقضاة » ص ٤٦٩ .
(٣) المقريزى الخطط جـ ١ ص ١٧١ .
(٤) صورة الأرض ص ٨٢—٨٣ .
(٥) صفة المغرب ص ١٦٠ .
(٦) « « « ١٤٩ .
(٧) عمر طوسون تاريخ خليج الإسكندرية ص ٢٠—٢١ .
وفى ذلك يقول المقريزى فى الخطط جـ ١ ص ١٧١ نقلاً عن المسبحى « إن الحاكم بأمر الله أطلق لحفر خليج الإسكندرية فى سنة ٤٠٤ خمسة عشر ألف دينار فحفر كله » .
(٨) الخطط جـ١ ص ١٦٩ والمخزومى عاش فى القرن السادس الهجرى أى القرن الذى عاش فيه الإدريسى .

ويؤكد – أى عمر طوسون – أن هذا المجرى هو مجرى فرع فرنوه الذى ذكر ابن حوقل خروجه عند ببج ، ولكن بدلاً من أن ينعطف من محلة نصر إلى الشرق ليلتقى بفرع رشيد عند فوه ، يظل متجهاً إلى الشمال الغربى إلى الإسكندرية . وأن الغرض الذى دعا إلى هذا التغيير هو فتح باب جديد لتغذية ترعة الإسكندرية [1]

وعلى كل فقد أكد ابن مماتى [2] بما لا يدع مجالاً للشك ، أن فتحة هذا الخليج كانت عند ببج وأن طوله ٣٠٦٣٠ قصبة حاكمة أى ١١٨ كم [3] .

ويظهر أن فتحة شابور ظلت تعمل إلى جانب فتحة ببج ، إذ يروى المقريزى [4] : «وفى سنة ٦٦٢ بعث الملك الظاهر بيبرس الأمير عليا أمير جاندار لحفر خليج الإسكندرية وقد امتلأت فوهته بالطين وقل الماء فى الإسكندرية ، فابتدأ الحفر من النقيدى وأنشأ هناك مسجداً ، ثم بعث السلطان فى سنة ٦٦٤ لحفر هذا الخليج الأمير علم الدين سنجر المسرورى ، ثم سار بكافة الأمراء والأجناد وباشر الحفر بنفسه، وعمل فيه الأمراء وجميع الناس إلى أن زالت الرمال التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج .»

وللمرة الرابعة ينتقل فم الخليج إلى الشمال ، فيذكر القلقشندى أن خليج الإسكندرية يخرج من العطف المقابلة لفوة ، وأن فوهته كانت فيما تقدم عند الظاهرية [5] . ولم يذكر القلقشندى من قام بهذا التغيير ، ولكن المقريزى [6] يذكر أنه فى سنة ٧١٠ أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بحفر هذا الخليج . وعلى ذلك يكون الناصر محمد بن قلاوون هو الذى نقل فتحة الخليج إلى العطف ، وأن الجزء الجديد الذى حفره يمتد من العطف حتى يلتقى بمجرى الخليج القديم عند كفر الحمايدة (شمال دمنهور) وسمى هذا الجزء الجديد الخليج الناصرى [7].

---

(١) عمر طوسون المرجع السابق ص ٢١ .
ويظهر أن الخليج رغم هذا العمل قد انقطع عن الإسكندرية بعد ذلك بمدة قصيرة حيث يذكر الرحالة الفارس ناصر خسرو علوى أن ماء الشرب فى الإسكندرية من المطر سفرنامه ص٤٣)

(٢) قوانين الدواوين ص ٢٢١ .

(٣) عمر طوسون المرجع السابق ص ٢٥ . كما يذكران طول هذه المسافةحسب ما تدل عليه خرائط المساحة ١١١ كم .

(٤) الخطط جـ١ ص ١٧١ .

(٥) صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٠٤ .

(٦) الخطط جـ١ ص ١٧١ .

(٧) عمر طوسون المرجع السابق ص ٢٦–٢٨ وارجع الخريطة الملحقة بالكتاب .

وظل الماء يجرى فى الخليج طيلة العام إلى مابعد سنة ٧٧٠ هـ حيث انقطع دخول الماء فيه إلا أيام الزيادة ، ولذلك أمر الملك الأشرف برسباى بحفره فى سنة ٨٢٦ هـ وانتهى فى تسعين يوماً ١ وعلى ما يذكر عمر طوسون أن الأشرف برسباى نقل فتحة الخليج من العطف إلى الجنوب عند الرحمانية ، وسميت الترعة الجديدة الأشرفية ٢ .

ولكن بالرغم من هذه الإصلاحات والتطهير ، سرعان ما تعذر سلوك هذا الخليج بالمراكب إلا فى أيام النيل . وظل الخليج مهملاً حتى حفر محمد على ترعة المحمودية وكان الرأى أولاً أن تتبع مجرى الأشرفية وتبدأ من الرحمانية ثم عدل عن ذلك وجعل بدايتها عند العطف ٣ ، وبذلك تكون فتحة خليج الإسكندرية قد عادت إلى الشمال مرة أخرى. وظلت ترعة المحمودية تتبع مجرى خليج الإسكندرية مع بعض التعديلات٣ .

٣ — خليج أمير المؤمنين : بعد أن استتب الأمر لعمرو بن العاص فى مصر ، قام بعمل يعد من أروع أعماله الإدارية ، ذلك حفره خليجاً يربط بين النيل والبحر الأحمر . ولقد أصبح هذا الخليج مرتبطا بتاريخ الفسطاط والقاهرة بوجه خاص وبتاريخ مصر بوجه عام حتى ردم منذ عهد غير بعيد .

فالعيد الذى كان يقام كل عام لكسر سده — أو كما يقولون جبر الخليج — ظل من أهم أعياد القاهرة وأروعها التى يشترك فيها ذوو السلطان والعامة على السواء . كما كان هذا الحفل بمثابة إعلان عن وفاء النيل وإيذان ببدء جمع الخراج .

وهو خليج قديم ، كان يعرف باسم قناة تراجان تخرج من النيل شمال بابليون وتمر بعين شمس ثم تسير فى وادى الطيلات ، وإن خط سيرها هو مجرى قناة الإسماعيلية الآن

---

(١) المقريزى الخطط جـ١ ص ١٧٢ .

(٢) عمر طوسون المرجع السابق ص ٢٨–٢٩ .
ومما يؤيد رأى عمر طوسون من أن مخرج الأشرفية كان عند الرحمانية مذكرة الجبرتى فى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٤ ص ٢٦٥ فى حوادث شهر جمادى الثانى سنة ١٢٣٢ هـ وأن محمد على رأى حفر ترعة إلى الإسكندرية ومبدؤها من مبدأ خليج الأشرفية عند الرحمانية . ويذكر على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية جـ١ ص ١٣ أن الناصر محمد بن قلاون أمر بحفر خليج الإسكندرية من عند قرية الرحمانية حتى انتهوا به إلى الخليج الأصلى فسمى الخليج الناصرى من ذلك الوقت ولا شك أنه أخطأ فى ذكر مكان ابتداء الحفر ، فكما رأينا ذكر القلقشندى أن الخليج يبتدىء من العطف المقابلة لفوة ولم ينتقل إلى الرحمانية إلا بعد ذلك . وقد عاد على باشا مبارك وأيد هذا الرأى حيث يذكر فى جـ ١٤ ص ٥٢ عن العطف : أن فم الخليج الناصرى القديم واقع بينها وبين ترعة الاتكاوية وللآن تشاهد جوانبه مرتفعة عن أرض الشارع نحو مترين.

(٣) انظر الجبرتى المرجع السابق حوادث شعبان سنة ١٢٣٢ وانظر على مبارك الخطط جـ ٧ ص ٤٥ ، ص ٥٠–٥١ ونخبة الفكر ص ٨٤ و كلوت بك لمحة عامة إلى مصر جـ ٢ ص ٧٠٢–٧٠٣

من العباسة حتى الإسماعيلية ثم يتجه جنوباً فى مجرى قناة السويس الحالية من بحيرة التمساح مخترقا البحيرات المرة حتى يصب فى خليج السويس عند السويس [1] .

ولكن هذه القناة أقدم من زمن تراجان بكثير ، وإن نسبت إليه لأنه أعاد تطهيرها ونقل مخرجها إلى بابليون . فقد ذكرها هيرودوت [2] وديودور [3] الصقلى واسترابون [4] باسم قناة البحر الأحمر وتخرج من الفرع البيلوزى إلى أرسنوى Arsinoe (السويس) وأن نيخو بن بسماتيك (نكاو الثانى من الأسرة ٢٦ عام ٦٠٩–٥٩٣ ق.م) هو الذى بدأ حفرها ولكنه سرعان ما تركه لظهور نبوءة تقول بأن الذى سيستفيد منها أجنبى ، وباشر العمل بعده فى حفرها دارا الأول الذى لم يتمها هو الآخر لاقتناعه برأى خاطىء بأن مستوى البحر الأحمر أعلى من مستوى أرض مصر ، ثم استأنف البطالمة الحفر فأتمها بطليموس الثانى وسميت القناة باسمه .

وقد جدد حفر هذه القناة مرات بعد ذلك ، لعل أهمها التجديد الذى حدث فى عهد تراجان ونقله مخرجها من بوباسطيس (تل بسطه قرب الزقازيق) إلى بابليون حتى سميت باسمه .

وكما فعل تراجان فعل عمرو بن العاص بعد ذلك بعدة قرون . فقد أعاد حفر القناة وأصلحها بعد أن كان الرمل قد سدها ، حتى قيل إن عمرا «احتاج إلى من يدله على موضعها من القبط فأجازه برفع الجزية عنه [5] . ولكن السرعة التى تم بها الحفر تدل على أن أجزاء منها كانت ظاهرة ويذكر بتلر [6] « قيل إن عمرا كان ينوى حفر خليج بين بحيرة التمساح ، والبحر الأبيض المتوسط ، فيكون بذلك قد قطع البرزخ بالبحر كما هو اليوم . ولكن عمر بن الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره ، قائلاً أنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج وليس فى هذه القصة شبهة تمنع من تصديقها » [7] .

---

(١) بتلر «فتح العرب لمصر» ص ٢٩٩ .
عمرطوسون op. cit. T.I. p. 230

(٢) هيرودوت فى مصر ص ١٢٩ .

(٣) ديودور الصقلى فى مصر ص ٦٧–٦٨ .

(٤) استرابون فى مصر ص ٨٦–٨٧ ١٧ : ٢٥ – ٢٦ .

(٥) ابن عبد الحكم ص ١٦٦ – بتلر المرجع السابق ص ٢٩٩ .

(٦) بتلر : المرجع السابق ص ٣٠١ .

(٧) يظهر أن خليج أمير المؤمنين كان مع ذلك يربط بين البحر الأبيض والأحمر إذ ينقل السيوطى فى مخطوطه كوكب الروضة «ص ٩١ عن ابن زولاق : وكان خارج البحر يركبون فيه من ساحل تنيس يسيرون منه ثم ينتقلون بالقازم إلى المراكب الكبار» .

أما سبب حفر خليج أمير المؤمنين أو على الأصح إعادة حفره هو المجاعة التى حدثت فى الحجاز والتى تعرف بعام الرمادة ، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص يسأله القوت ويقول له « إنه قد ألقى فى روعى أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة [1] » . وأما تاريخ حفره فيجمع الكتاب العرب على ما ذكره الكندى من أن عمراً بدأ الحفر سنة ٢٣ هـ (٦٤٣–٦٤٤ م) [2] ، وفرغ منه فى ستة أشهر وجرت السفن فى الخليج ووصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع . وظلت التجارة والأقوات تحمل إلى الحجاز عن طريق هذا الخليج حتى بعد زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز ثم أهملته الولاة وطغت عليه الرمال وصار نهايته بحيرة التمساح . وقيل إن الخليفة أبو جعفر المنصور هو الذى أمر بردم هذا الخليج ليقطع عن الحجاز الطعام ، وذلك عندما ثار عليه بها محمد بن عبد الله أحد أحفاد على من بنى الحسن سنة (١٥٨ هـ – ٧٧٥ م) .

أما المقدسى فيعطينا وصفاً لخليج أسماه أيضا خليج أمير المؤمنين ، ولكنه يختلف تماماً عما أجمع عليه الكتاب العرب ، فيذكر عند وصفه للفسطاط [3] « وهو (الفسطاط) نحو ثلثى فرسخ طبقات بعضها فوق بعض ، وكانت جانبين ، الفسطاط والجيزة . ثم شق بعض الخلفاء من ولد العباسى خليجاً على قطعة منها فسميت تلك القطعة الجزيرة لأنها بين العمود والخليج وسمى خليج أمير المؤمنين منه شربهم » . ويظهر أن الأمر اختلط عليه فظن أن مجرى النيل بين الفسطاط وجزيرة الروضة هو خليج أمير المؤمنين ، وأن الذى حفره أحد خلفاء بنى العباس .

ويعتقد الرحالة الفارسى ناصر خسرو علوى أن الذى حفر هذا الخليج خليفة فاطمى – لعله يقصد الظاهر بن الحاكم – فيقول [4] « ويرى السائر خارج المدينة (القاهرة) ناحية الغرب ترعة كبيرة تسمى الخليج حفرها والد السلطان وله على شاطئيها ثلثمائة قرية ، ويبتدئ فم الخليج من مدينة مصر ويمر بالقاهرة ويدور بها أمام قصر السلطان ، وقد شيد على رأسه قصران أولهما قصر اللؤلؤة وثانيهما قصر الجوهرة » .

وقد أطلقت أسماء مختلفة على الخليج ، فيذكر المقريزى [5] أنه سمى خليج

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٦٣ .

(٢) يرى بتلر أن الأصح هو أن عمر ابتدأ الحفر فى شتاء ٦٤١–٦٤٢ م . انظر المرجع السابق ص ٢٩٩ .

(٣) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٨ .

(٤) « سفر نامة » ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٥٠ .

(٥) الخطط ج ٢ ص ١٤٠ .

أمير المؤمنين وخليج مصرثم صار يعرف بخليج القاهرة بعد بنائها على يد جوهر ، وفى أيامه هو أطلق عليه اسم الخليج الحاكمى ، وزعمت العامة أن الحاكم هو الذى حفره ، ومن العامة من يطلق عليه أيضاً خليج اللؤلؤة .

وينسب المقريزى [1] حفره قبل الإسلام إلى أحد ملوك منف اسمه طوطيس ابن ماليا ، وذلك إن إبراهيم الخليل لما حضر إلى مصر أهداه هذا الملك هاجر ، فلما تركها إبراهيم مع ابنها وحيدين فى الحجاز ، استغاثت بالملك فحفر لها هذا الخليج ليحمل إليها فيه الطعام . وجدد حفره بعد ذلك أحد ملوك الرومان أسماه اندرومانوس . ويقول أيضاً إن فم الخليج كان فى ذلك الوقت عند عين شمس حيث كان النيل يمر هناك ثم انتقل إلى موضعه عند الفسطاط ، وقد أيده فى ذلك على باشا مبارك [2] . ولكن الحقيقة أن مأخذ الخليج انتقل من بوباسطيس إلى بابليون فى عهد تراجان — كما سبق القول — وعندما جدد عمرو حفر هذا الخليج جعل مخرجه من النيل شمال الفسطاط ، ولا يبعد أن يكون هو نفسه المكان الذى كان يخرج منه قناة تراجان .

وقد جدد المأمون البطائحى حفر هذا الخليج [3] سنة ٥٠٢ هـ فى وزارة الأفضل شاهنشاه وزير المستعلى بالله الفاطمى ، وجعل حفره بأبقار البساتين التى عليه وأقام عليه والياً بمفرده ومنع الناس من أن يطرحوا فيه شيئاً .

وقد بنى عبد العزيز بن مروان قنطرة على فم هذا الخليج ، وقام ببنائها سعيد أبوعثمان سنة ٦٩ هـ وجددت أكثر من مرة كان آخرها أيام العزيز بالله الفاطمى وهى التى كانت تفتح عند وفاء النيل فى زمن الفاطميين . فلما انحسر النيل عن الساحل أهملت هذه القنطرة ودثرت ، وأنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب قنطرة أخرى حيث كان النيل ينتهى وهى التى كانت تعرف بقنطرة السد [4] .

ولكن المقدسى يذكر [5] أن السد الذى كان على خليج أمير المؤمنين كان عند

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٧١ .

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٨ ص ٦١٣ وما بعدها .

(٣) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ٣ ص ٣٠٢ .
المقريزى الخطط جـ ٢ ص ١٤٤ .
السيوطى حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٠٤ .

(٤) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ١٤٦ .
ابن تغرى بردى «النجوم الزاهرة» جـ ٤ ص ٤٣—٤٥ .
السيوطى المرجع السابق جـ٢ ص ٢٠٤ .

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٦ .

عين شمس وأن السلطان كان يخرج إلى هناك لقطعه . ولم يذكر مؤلف آخر – غير المقدسى – أن السد كان بعين شمس فكل الاحتفالات التى ذكرها المؤلفون العرب بوفاء النيل وكسر الخليج كانت تقام عند فمه على النيل .

ويصف على باشا مبارك [١] ، الخليج فى عصره بأنه لم يعد كما كان فى الماضى ، وزالت البساتين وبنيت على جانبيه المبانى . وأن فمه كان قبلى القصر العينى ومجرى السبع سواقى ويصب فى مصرف الشبينى ، فلما حفرت ترعة الإسماعيلية صار نهايته قبل أبى زعبل . ويذكر أنه كان عليه عشرون قنطرة بالقاهرة وست بمديرية القليوبية . كما ظل مهرجان جبر الخليج من أعياد القاهرة المشهورة ولذلك – كما يروى – قلق الناس مما يقال من التفكير فى ردمه بسبب ما يلقى فيه من القاذروات ، ويرى أنه لو ملئ بالماء على الدوام وشدد فى منع إلقاء القاذورات به ، لبقى لأهل البلد فرحها الذى ألفته من قديم .

ولكن الخليج ردم فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٧–١٨٩٩) .

٤ – خليج أبى المنجا : وكانت العامة تسميه بحر أبى المنجا . حفره الأفضل وزير المستعلى الخليفة الفاطمى ، بناء على نصيحة أبى المنجا بن شعيا اليهودى الذى كان مشرفاً على البلاد الشرقية التابعة لديوان الخلافة ، وذلك لأن الماء لم يكن يصل لهذه الجهات إلا من خليج السردوس وغيره من الأماكن البعيدة .

وابتدأ الحفر فيه يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ٥٠٦ هـ ، وتم فى سنتين . ويقال إن الأفضل ركب فى النيل مع حاشيته بعد أن رمى فيه حزمة من البوص وأخذ يتتبعها حتى رماها الماء فى المكان الذى ابتدأ الحفر منه .

وكان هذا الخليج سبباً فى ازدهار هذه البلاد التى يرويها ، وقد غلب على الخليج اسم أبى المنجا بالرغم من محاولة الأفضل تسميته باسمه [٢] .

وفى وزارة المأمون البطائحى فى عهد الآمر بالله الفاطمى ، جعل فتح هذا الخليج فى احتفال كبير كاحتفال قطع خليج القاهرة ، وبنى على سده منظرة متسعة . وظل هذا الاحتفال معمولاً به أيام الدولتين الفاطمية والأيوبية ، ثم أهمل الاحتفال بفتحه بعد ذلك حيث يذكر المقريزى «وتلاشى فى زمننا أمر الاجتماع فى يوم فتح سد أبى المنجا وقل الاحتفال به لشغل الناس بهم المعيشة» [٣] .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٨ ص ١٢٣ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٨٧ .

(٣) « « جـ ١ ص ٤٨٨ .

وذكر المقريزى جـ ١ ص ٦٠ عن القاضى الفاضل أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين كسر بحر أبى المنجا فى شوال سنة ٥٩٢ هـ .

ويقع ابن إياس فى خطأ كبير ، إذ يعتقد أن الذى حفر الخليج هو الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى بن خمارويه بن أحمد بن طولون [1] .

ويذكر على باشا مبارك [2] أن مبدأ الخليج الذى يطلق عليه أيضاً اسم بحر الطينة كان عند قرية بسوس . كما أورد [3] ضمن الترع الموجودة فى عصره « ترعة أبى المنجا » وتخرج من النيل شمال دمنهور (قليوبية) وتصب فى ترعة القرطامية النيلية بالقليوبية .

ويصف عمر طوسون [4] مجرى هذا الخليج بأنه كان يحتل مجرى الفرع البيلوزى حتى شبين القناطر (قناة الشرقاوية الحالية) ثم يتجه شرقاً إلى بلبيس متتبعاً قناة شبين الحالية .

وهناك خلجان وترع أخرى ذكرها البعض وأهملها آخرون ومنها :

٥ — خليج الذكر : ذكره المقريزى ، وينسب حفره إلى كافور الإخشيدى ، وأنه كان يروى بستان المقسى . فلما حول هذا البستان فى أيام الخليفة الظاهر الفاطمى إلى بركة أمام قصر اللؤلؤة كان الماء يصل إليها من هذا الخليج .

وكان الخليج يستمد ماءه من خليج فم الخور ، حتى حفر الخليج الناصرى بعد ذلك فصار الماء يدخل إليه من تحت قنطرة الدكة (بين الأزبكية وباب الحديد) .

وفى سنة ٧٢٤ هـ أوصله الناصر محمد بن قلاوون بخليج أمير المؤمنين فكادت القاهرة تغرق .

وقد فقد هذا الخليج أهميته قبيل زمن المقريزى حيث يقول « وأنا أدركت آثاره وفيه ينبت القصب المسمى بالفارسى ، وأخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسين بن عمر الشهرزورى أنه يعرف خليج الذكر هذا وفيه الماء ، وسبح فيه غير مرة وأرانى آثاره ، وكان الماء يدخل إليه من تحت قنطرة الدكة [5] » .

أما الاسم الذى عرف به الخليج وهو « الذكر » فينسب إلى أحد أمراء الظاهر بيبرس اسمه شمس الدين الذكر الكركى « كان له فيه أثر من حفره فعرف به [6] » .

---

(١) «بدائع الزهور» المطبعة الأميرية ص ٤١ . والظاهر أنه خلط بينه وبين أبى العساكر جيش ابن خمارويه تولى سنة ٢٨٢ هـ .

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٦ ص ٣

(٣) المرجع السابق جـ١٩ ص ٤٣ .

(٤) op. cit. T.I. p. 195

(٥) الخطط جـ ٢ ص ١٤٤–١٤٥ .

(٦) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ١٤٥

٦ — الخليج الناصرى : لما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه بسرياقوس (مركز الخانكة) أمر بحفر هذا الخليج سنة ٧٢٥ هـ لتوصيل الماء إليها ، وحفر فى مدة شهرين ١ وقيل فى أربعة أشهر ٢ .

ويصف المقريزى مجراه بأنه « يبتدئ من النيل عند موردة البلاط من أراضى بستان الخشاب إلى الميدان الظاهرى الذى أنشأه الملك الناصر بستاناً ، ويمر من البستان إلى بركة قرموط حتى ينتهى إلى ظاهر باب البحر ويمر من هناك على أرض الطبالة ليصب فى الخليج الكبير (خليج أمير المؤمنين) » . أى أن مجراه يبتدئ عند قرب قنطرة السد (شمال مصر العتيقة) ويتجه إلى ميدان التحرير وأبى العلا وبولاق ثم يتلاقى مع الخليج الكبير بقرب جامع الظاهر ٣ . ويذكر على باشا مبارك أن جزءاً منه ظل باقياً إلى عهده ٣ .

٧ — ترعة بلقينة : ذكرها المسعودى ٤ على أنها من أمهات الترع التى بالبلاد وأنها تفتح إذا كان الماء زائداً فى عيد الصليب فى الرابع عشر من توت . ولكنه لم يذكر لنا مكانها أو يصف مجراها .

والإدريسى هو الوحيد الذى وصفها ، بأنها تخرج من خليج المحلة عند بلقينة وتتجه غرباً فى خط مستقيم إلى صخا (سخا) مارة على دار البقر والمعتمدية ومتيول حتى تنتهى عند صخا فى البرية ٥ .

ويذكر ابن مماتى ٦ تاريخاً لفتح هذه الترعة يخالف التاريخ الذى ذكره المسعودى حيث أورد أنها تفتح فى عاشر بابة .

٨ — ترعة ذات الساحل : لم يذكرها إلا المسعودى ٧ على أنها أيضاً من أمهات الترع ولكنه لم يذكر لنا ما يفيد مكان خروجها أو مجراها .

(١) السيوطى المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) أبو السرور البكرى الصديقى .. الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة . مخطوط مصور بمكتبة بلدية الإسكندرية ص ١٢٨ .

(٣) على مبارك الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٣٣ .

(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٣ .

(٥) الإدريسى : «صفة المغرب» ص ١٥٨ وبلقينة كما ذكرها ياقوت معجم البلدان جـ ١ ص ٧٢٩ قرية من حوف مصر من كورة بنا يقال لها البواب إيضا . ويذكر ابن الجيعان ، التحفة السنية ص ٧٣ أنها من الأعمال الغربية وكانت قرية من سمنود .

(٦) قوانين الدواوين ص ٢١٨ .

(٧) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٣ .

٩ — خليج المحلة : وصفه الإدريسى [١] بأنه يخرج من فرع مليج (قسم من فرع دمياط) عند طنطى [٢] ، ويصب فى فرع دمياط عند شرمساح .

١٠ — خليج شانشا : يخرج من فرع دمياط عند منية بدر (ميت بدر حلاوة) ويتجه شرقاً إلى مدينة شنشا والبوهات وسفناس حيث يصب فى بحيرة الزار المتصلة ببحيرة تنيس قرب الفرما [٣] .

١١ — خليج دمياط : ذكر ابن عبد الحكم خليج دمياط ، ولعل ابن عبد الحكم يقصد بذلك فرع دمياط . أما ياقوت [٤] فيذكر أنه كان يخرج من النيل عند دمياط خليج يصفه بقوله : « ومن قبلها (أى دمياط) خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تنيس » ثم يقول « ومن طريف أمر دمياط فى قبليها على الخليج مستعمل فيه غرف تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل الثياب الشرب فلا تكاد تنجب إلا بها .. الخ » .

إلى غير ذلك من الترع الكثيرة التى ذكر ابن مماتى [٥] عدداً كبيراً منها ومواعيد فتحها يقصر المجال عن ذكرها .

ثانياً — الجسور :

أما الجسور فهى لضمان رى الأراضى فى الوقت المناسب وبالقدر المناسب أيضاً : فتعمل فى مناطق معينة تضم مساحات خاصة من الأرض حتى لا يركبها النيل إلا فى موعد محدد تفتح السدود فيه فيروى هذا الجزء ، حتى إذا استكمل ريه قطعت الجسور فى مناطق معينة معروفة وفى أوقات محددة كذلك حتى ينصرف الماء إلى ما يليها من جهات علاوة على ما يأتيها من ماء آخر ، وهكذا يتناوب فتح الجسور حتى تستكمل أرض البلاد كلها ريها .

ويقول المقريزى « وأراضى مصر أقسام كثيرة منها عال لا يصل إليه الماء إلا من زيادة كبيرة ومنها منخفض يروى من يسير الزيادة . والأراضى متفاوتة فى الارتفاع والانخفاض تفاوتاً كثيراً . ولذلك احتيج فى بلاد الصعيد إلى حفر الترع وفى أسفل الأرض إلى عمل الجسور حتى يحتبس الماء ليروى أهل النواحى على قدر حاجتهم إليه عند الاحتياج [٦] » .

---

(١) انظر الهامش ٥ فى الصفحة السابقة .

(٢) ذكر الإدريسى بلدين على هذا الفرع هما طنطة وطلطى . ولا نعلم بالضبط هل يقصد بالمكان الذى يخرج عنده الخليج طنطة أو طلطى . وإن كان عمر طوسون يذكر أنها طنطة انظر : Tousson ; Op. Cit TI p. 229

(٣) الإدريسى : صفة المغرب ص ١٥٤ .

(٤) معجم البلدان جـ٢ ص ٦٠٢–٦٠٣ .

(٥) قوانين الدواوين ص ٢٠٥ .

(٦) الخطط جـ١ ص ٥٥ .

كما يذكر ما للترع والجسور من فوائد لو أحسن صيانتها فيقول [1] :

« لولا إتقان ما هنالك من الجسور وحفر الترع والخلجان لقل الانتفاع بماء النيل ، كما قد جرى فى زماننا هذا . وقد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم فى القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها رى البلاد الذى به مصالح العباد » .

وليس أدل على أهمية الجسور ، ما وصلت إليه حال البلاد من سوء نظراً لإهمال جسورها. فالقلقشندى يعلق على ما ذكره المسعودى من أن النيل إذا بلغ سبعة عشر ذراعاً عم جميع البلاد بقوله : « هذا ما كان عليه الحال فى زمانه وما قبله وكان الحال جارياً على ما ذكره فى غالب السنين إلى ما بعد السبعمائة » .

« أما فى زماننا فقد علت الأرض مما يرسب عليها من الطين المحمول مع الماء فى كل سنة وضعفت الجسور . وصار النيل بحكمة الله تعالى إلى ثلاثة أقسام : متقاصرة وهى ست عشرة ذراعاً فما حولها ، ومتوسطة وهى سبع عشر ذراعاً إلى ثمان عشرة ذراعاً فما حولها وعالية وهى ما فوق الثمان عشرة وربما زادت على العشرين » [2] .

بل وزادت الحالة سوءاً فى زمن المقريزى فيقول [3] : « قال (القاضى الفاضل) وفى تاسع عشرة يعنى شوال سنة ٥٩٢ كسر بحر أبى المنجا .... وزاد النيل فيه إصبعاً وهى الإصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعاً ، وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى فانظر كيف يسمى القاضى الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى ، وأنه والعياذ بالله لو بلغ ماء النيل فى سنة هذا القدر فقط لحل بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس ، وما ذاك إلا لما أهمل من عمل الجسور » .

ويقول أيضاً [4] « وأدركت الناس يقولون نعوذ بالله من إصبع من عشرين وكنا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين ذراعاً فاض ماء النيل وغرق الضياع والبساتين وفارت البلاليع وها نحن فى زمن منذ كانت الحوادث بعد سنة ٨٠٦ إذا بلغ الماء فى سنة إصبعاً من عشرين لا يعم الأرض كلها لما قد فسد من الجسور » .

وللجسور عمل آخر علاوة على تنظيم الرى ، هو ضمان ربط البلاد المختلفة بعضها ببعض فكانت تستخدم كطرق زراعية ساعدت على سهولة المواصلات وأصبحت وسيلة للانتقال ونقل البضائع إلى جانب المواصلات النهرية فى النيل . وكانت الجسور التى تحف

(١) الخطط جـ ١ ص ٦١ .
(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٠٠ .
(٣) الخطط جـ ١ ص ٦٠-٦١ .
(٤) خطط جـ ١ ص ٥٩-٦٠ .

مجرى النيل من الجانبين طرقاً رئيسية للمواصلات تعنى الدولة بها مثل الطريق بين العاصمة وأسوان والذى كان يستعمله التجار والحجاج على السواء كذلك الطريق بين العاصمة والإسكندرية [1] .

والجسور نوعان : جسور عامة وجسور بلدية .

١ — جسور عامة : وهذه تسمى الجسور السلطانية ، وتضم بلاداً كثيرة وتكون صيانتها والاهتمام بأمرها على نفقة ولى الأمر أى الديوان السلطانى . ويشبهها ابن مماتى [2] بسور المدينة التى يجب على السلطان الاهتمام بعمارته والنظر فى مصلحته وكفاية العامة أمر الفكرة فيه .

ولهذه الجسور جراريف ومحاريث وأبقار مرتبة على البلدان المستفيدة منها . ويرتب على كل ناحية إما تقديم ما يقرر عليها من مؤنة وعلوفة وأتبان وحشيش أو دفع عشرة دنانير عن كل قطعة . ويذكر ابن مماتى [3] « ومضت الأيام على ذلك حتى صار لازماً للفلاحين كأنه من بعض الخراج ويجرى فيما بينهم بنسبة ما يزرعه كل منهم » .

وكان لكل عمل من الأعمال أمير ينظر فى عمارة جسوره يسمى « كاشف الجسور بالعمل الفلانى » ، وقد يضاف النظر فى أمر الجسور إلى والى المنطقة . وتحت إمرة كاشف الجسور المهندسون والخولة يقومون بعمارتها .

كما كان لها كاتب خاص فى الديوان السلطانى ليكتب المرسلات السلطانية لكشاف الجسور ويعرف ما على كل بلد من الجراريف والأبقار . [4]

٢ — الجسور البلدية : وهى جسور خاصة لا تدخل فى المنافع العامة . وهذه يتولى أمر العناية بها أصحاب الاقطاعات من أموال إقطاعاتهم ، فإذا ما أنفق شيئاً من المال فى صيانة هذه الجسور فى سنة ما وخرج الإقطاع من يده لغيره فى هذه السنة جاز له استرداد ما أنفق من المقطع الجديد [5] .

ويشبهها ابن مماتى [5] بالدور والمساكن داخل سور المدينة ، كل صاحب دار منها ينظر فى مصلحتها ويلتزم تدبير أمره فيها.

---

(١) انظر « كتاب فى مصر الإسلامية » مقالة المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى صفحات ٤٣ ، ٤٨

(٢) قوانين الدواوين ص ٢٣٢

(٣) « « ص ٣٤٢ .

(٤) القلقشندى صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٩ — ٤٥٠

(٥) ابن مماتى قوانين الدواوين ص ٢٣٣ .

كما يقرر أيضاً [1] أن الديوان كان يعنى بالجسور التى فى أعمال الغربية وجزيرة قويسنا والشرقية فقط ، وما عدا ذلك يتولاه المقطعون والمزارعون .

ويروى المقريزى عن ابن عبد الحكم [2] أنه قبل الإسلام كان مقرراً لحفر الترع وعمارة الجسور مائة وعشرون ألف رجل معهم المساحى والطوريات ، يعملون طول العام ، وأن ربع خراج البلد كان يخصص لذلك .

ولكن انتهى الأمر فى العهد الإسلامى خصوصاً فى عصر متأخر — نتيجة لنظام الإقطاع — أن أهملت الجسور البلدية وترك عمارة أكثرها لضمن أصحاب الإقطاعات ببذل المال فى سبيل صيانتها ، واقتصر الأمر على العناية بالجسور السلطانية ، وحتى هذه لم يعد يعن العناية بها الكافية . وفى ذلك يقول القلقشندى [3] « وقد أهمل الاهتمام بأمر الجسور فى زماننا وترك عمارة أكثر الجسور البلدية واقتصر فى عمارة الجسور السلطانية على الشىء اليسير الذى لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما منّ الله تعالى به على العباد من كثير الزيادة فى النيل من حيث إنه صار يجاوز تسع عشرة ذراعاً فما فوقها إلى ما جاوز العشرين ، لفات رى أكثر البلاد وتعطلت زراعتها . »

أما طريقة الانتفاع بالخلجان والترع والجسور فيجملها المقريزى [4] بأنه عند ما يرتفع النيل وتخلو الأرض من الزرع ، ويكون ذلك غالباً أثناء شهر مسرى ، تفتح سدود الخلجان حتى يجرى الماء فى كل خليج إلى حد معلوم يحجز الماء عنده حتى يروى ما مر عليه من أراض ، ثم يفتح هذا الحد فى يوم النيروز حتى يجرى إلى حد آخر يقف عنده ليروى ما تحت هذا الحد الثانى من الأراضى . ثم يفتح هذا الحد فى يوم عيد الصليب بعد النوروز بسبعة عشر يوماً حتى يجرى الماء ويقف على حد ثالث حتى يروى ما تحت هذا الحد من الأراضى ، ثم يفتح هذا الحد فيجرى الماء ويروى ما هنالك من الأراضى ويصب فى البحر .

إلى جانب هذه الجسور التى من عملها تنظيم رى البلاد ، ذكر المقريزى [5] بعض الجسور التى عملت لحماية مدينة القاهرة منها .

---

(١) ابن مماتى قوانين الدواوين ص ٣٤٢

(٢) انظر المقريزى الخطط جـ١ ص ٧٤ .

(٣) صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٤٨ .

(٤) الخطط جـ١ ص ٥٥ .

(٥) الخطط جـ٢ ص ١٦٦–١٦٧ .

(ا) جسر بين بولاق ومنية الشيرج :

أقامه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ هـ ، إذ أن النيل فى هذه السنة أغرق نواحى بستان الخشاب ١ ، وبولاق وباب اللوق ووصل إلى منية الشيرج ٢ .

وامتد الجسر بين بولاق ومنية الشيرج ، وتم فى عشرين يوماً ، وكان ارتفاعه أربع قصبات فى عرض ثمانى قصبات .

(ب) الجسر بوسط النيل :

ويمتد بين بولاق وناحية أنبوبة (امبابة) ، وقد أمر ببنائه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ ، وجلب له المهندسين من دمشق وحلب والبلاد الفراتية علاوة على مهندسى مصر .

وسبب إنشائه أن تيار النيل كان شديداً على ساحل بولاق حتى هدم أجزاء منه . فرأوا عمل هذا الجسر ليرد قوة التيار عن البر الشرقى إلى البر الغربى . وأشرف على العمل الأمير أقبغا عبد الواحد والأمير برصبغا الحاجب ، وبدئ فيه فى العاشر من ذى القعدة وتم فى منتصف ذى الحجة . كما حفر خليج فى الجزيرة ليمر الماء فيه أيام الفيضان فلا يتأثر الجسر من قوة التيار .

(جـ) الجسر بين الجيزة والروضة :

لما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الجسر بين بولاق وأنبوبة ابتعد النيل عن ساحل القاهرة وانكشفت أراضى كثيرة وصار الماء يخاض من بر مصر إلى المقياس ولقى الناس مشقة لبعد الماء عن القاهرة .

فلما شكا الناس إلى الأمير أرغون العلائى وإلى السلطان الملك الكامل شعبان بن الملك الناصر ، ابتدأ فى عمل جسر بين الجيزة وجزيرة الروضة ولكنه لم يتم وهدمه النيل . ولم يتم عمله إلا فى عهد الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٩ هـ بعد أن لقى الناس مشقة عظيمة فى إقامته .

وحفر خليج يجرى الماء فيه عند زيادة النيل لتضعف قوة التيار عن الجسر ، وذلك من رأس موردة الحلفاء إلى بولاق .

---

(١) كان بستان الخشاب واقعاً فى المنطقة المحدودة الآن بشوارع قصر العينى ومجلس الأمة وعمر بن العزيز والخليج المصرى . انظر «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى جـ٤ ص ٤٥ . الحاشية .

(٢) جاء فى معجم البلدان لياقوت عن منية الشيرج : بليدة ذات سوق بينها وبين القاهرة فرسخ أو أكثر قليلاً على طريق القاصد إلى الإسكندرية .

الباب الثالث

الفيضان والنظم الاقتصادية

- الفيضان
- النظم الاقتصادية

الفصل الأول

الفيضان

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن فيضان النيل هو الذى أوجد لنا هذا الوطن الذى نعيش فيه ، أو على الأقل جزءاً كبيراً منه . فالغرين الذى يحمله فى فيضانه كان سلاحه القوى فى صراعه الأبدى مع البحر والذى مكنه من أن يكتسب لمصر رقعة كبيرة من الأرض هى الدلتا . ونظرة سريعة إلى خريطة مصر ترينا مقدار اتساع الدلتا بالنسبة لأرض الوادى .

وقد كان لفيضان النيل — ولا زال — أثره فى حياة المصريين ونظمهم الاقتصادية ، فمساحة الرقعة الزراعية وكمية المحصول تتوقف على مدى ما يغمره ماء الفيضان من الأرض وعند ما يغمر الماء البلاد تصبح أشبه ببحر تبدو فوقه المدن والقرى [1] كالجزائر وتكون وسيلة الاتصال الرئيسية بينها المراكب [2] . وقد وصف العرب مصر فى هذا الوقت بأنها تكون كاللؤلؤة البيضاء .

وقد استرعى الفيضان الأنظار وتعجب الناس من أن النيل — كما يقولون — يفيض فى وقت يختلف عن فيضان غيره من الأنهار . فيقول ديودور الصقلى [3] إن فيضان النيل « ظاهرة غريبة للذين يرونها رأى العين ، وغير معقولة لمن تصله عن طريق السماع فقط فبينما تبدأ كل الأنهار العالم فى الهبوط فى الانقلاب الصيفى يبدأ نهر النيل وحده فى الارتفاع فى ذلك الوقت » .

ويقول ابن مماتى [4] : « وليس فى الدنيا نهر يجرى فى أشد ما يكون من الحر غير

---

(١) شبه هيرودوت قرى مصر ومدنها فى ذلك الوقت بجزر بحر إيجه — أنظر هيرودوت فى مصر ص ٨٢ .

(٢) ابن حوقل « صورة الأرض » ص ١٣٧ .

(٣) ديودور الصقلى فى مصر ص ٨٠ .

(٤) قوانين الدواوين ص ٧٣ .

النيل وليس فى الدنيا نهر يزيد وينقص على ترتيب إلا النيل ، وليس فى الدنيا نهر يجرى إذا نقصت مياه الدنيا إلا النيل » .

أولاً — أسباب الفيضان :

أما عن أسباب الفيضان فقد اختلفت فيه الناس وساقوا لذلك تعليلات كثيرة ، ولكن الذى لاشك فيه أن الجغرافيين قبل الإسلام عرفوا تماماً أن فيضان النيل نتيجة أمطار تسقط على بلاد أثيوبيا صيفاً .

ولما جاء العرب مصر ورأوا أن النهر يفيض فى وقت يحترق فيه غيره من الأنهار وتجف فيه الينابيع ، ربطوا بين الظاهرتين وقالوا إنما فيضان النيل نتيجة لما تمده به الأنهار الأخرى والينابيع مع مائها .

فيروى ابن عبد الحكم [1] عن عبد الله بن عمرو بن العاص « نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده ، فأمدته الأنهار وفجر الله له الأرض عيوناً . فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . » ويروى أيضاً [1] « أن معاوية ابن أبى سفيان سأل كعب الأحبار هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله خبراً قال أى والذى فلق البحر لموسى إنى لأجده فى كتاب الله أن الله يوحى إليه فى كل عام مرتين ، يوحى إليه عند جريه أن الله يأمرك أن تجرى فيجرى ما كتب الله له ثم يوحى إليه بعد ذلك يا نيل غر حميداً » .

ولكن منذ القرن الثالث على الأقل عرف العرب أن فيضان النيل نتيجة أمطار تسقط فى الصيف [2] ، وأن هذه الأمطار تقع فى الجنوب وخاصة بلاد الحبشة .

وبالرغم من أن هذه الحقيقة أصبحت معروفة إلا أن قلة من المؤلفين العرب أوردوا أسباباً أخرى بعيدة عن الواقع .

فالقضاعى [3] والقزوينى [4] وابن الوردى [5] يرون أن الفيضان يكون نتيجة هبوب رياح شمالية تهيج البحر الملح فيقف أمام النيل كالسد فيزيد ماؤه . ولهذا الرأى

---

(١) فتوح مصر ص ١٤٩ .
(٢) اليعقوبى «كتاب البلدان» ص ١٢٨
(٣) ياقوت معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٦١ — والقضاعى من القرن الخامس الهجرى .
(٤) عجائب المخلوقات ص ١٦٤ والقزوينى من القرن السابع الهجرى
(٥) خريدة العجائب ص ١٤٢ وابن الوردى من القرن التاسع الهجرى

أصل قديم إذ أن تاليس الجغرافى اليونانى من القرن السادس قبل الميلاد أول من قال ذلك [1] .

والتيفاشى [2] يربط بين هذين السببين — أى سقوط الأمطار فى الجنوب ووقوف البحر فى وجه النيل — ويرجعهما إلى سبب واحد ، فيقول [3] : « إن سبب زيادة النيل هبوب ريح يسمى الملتن وذلك لأنها أولاً تحمل السحاب الماطر خلف الاستواء فتمطر ببلاد الحبشة والنوبة وثانياً أنها تأتى فى وجه البحر الملح فيقف ماؤه فى وجه النيل فيتراجع حتى يروى البلاد » .

ويقول البعض إن الفيضان سببه ذوبان الثلوج فى الصيف [4] .

ومن الغريب أن يأتى الغزولى [5] فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ليذكر أن هنالك من يعتقد أن سبب الفيضان مجهول لا يعلمه أحد .

هذا ولم يفت المؤلفون العرب ما يحدث لماء النيل قبيل الفيضان من تغير فى لونه وطعمه ورائحته ويسمون ذلك « توحم النيل » وأن الشرب منه وقتئذ مضر . ويعللون سبب هذا التغيير أن البطيحات التى يخرج منها النيل يتغير ماؤها فى ذلك الوقت لقلته وكثرة ما يردها من وحوش ، فإذا نزلت الأمطار دفعت أمامها هذه المياه المتغيرة ، ثم يعقبها الماء الأحمر الحامل للطمى [6] .

وموسم الفيضان يزيد قليلاً عن ثلاثة أشهر هى أبيب (يوليو) ومسرى (أغسطس) وتوت (سبتمبر) وأيام من بابه (أكتوبر) وتتناهى زيادته فى ٨ بابه ويظل على هذا المستوى حتى ٢٠ منه ثم يأخذ فى النقصان تدريجياً بعد ذلك [7] .

---

(١) Ball ; op. cit. p. 8 — وانظر هيرودوت فى مصر ص ٣٥ وما بعدها وقد رفض هيرودوت هذا الرأى وقال إن الرياح الموسمية كثيراً ما تكون ساكنة ومع ذلك لايتأثر فيضان النيل .

(٢) شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشى ٦٥١ هـ — ١٢٥٣ م

(٣) السيوطى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٥ .

(٤) النويرى «نهاية الأرب» جـ١ ص ٢٦٣ — ولهذا الرأى أصل قديم نادى به المؤلفون القدماء انظر « هيرودوت فى مصر» ص ٣٥ وما بعدها .

(٥) مطالع البدور فى منازل السرور جـ٢ ص ٧٤ .

(٦) البغدادى الإفادة والاعتبار ص ٤٥ وما بعدها — ياقوت معجم البلدان جـ٤ ص ٣٦٢ ، المقريزى الخطط جـ ١ ص ٥٥

(٧) ذكر هيرودوت من قبل مايؤيد ذلك إذ قال إن الفيضان مائة يوم — انظر هيرودوت فى مصر ص ٣٥ .

ويصف القلقشندى تطور الزيادة منذ ابتدائها فيقول [1] « وقد جرت عادته (أى النيل) أنه من حين ابتداء النداء بزيادته فى السابع والعشرين من بؤنه إلى آخر أبيب تكون زيادته خفيفة ما بين إصبعين فما حولهما إلى نحو العشرة وربما زاد على ذلك . فإذا دخلت مسرى اشتدت زيادته وقويت فيزيد العشرة فما فوقها وربما زاد دون ذلك . وأعظم ما تكون زيادته على القرب من الوفاء حتى ربما بلغ سبعين إصبعاً . ومن العجيب أنه يزيد فى يوم الوفاء سبعين إصبعاً مثلا ثم يزيد فى صبيحة يوم الوفاء إصبعين فما حولهما ، ويتم على ذلك . وله فى آخر بابه زيادة قليلة يعبر عنها بصبة بابه لما ينصب إلى النيل من ماء الإملاق [2] .

ثانياً — التنبؤ بالفيضان :

ولما كانت اقتصاديات البلاد مرتبطة بالفيضان ، حاول المصريون أن يسبقوا الحوادث ويتنبئوا بما سيكون عليه الفيضان قبل حلوله ، وهم إن اختلفوا فى طرق تنبئهم إلا أن غايتهم جميعاً الاطمئنان على مقدار الزيادة فى الماء .

كذلك لم يقتصر اهتمامهم على عصر دون عصر بل ظل هذا الاهتمام قوياً فى كل وقت وحين [3] .

---

(١) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) يذكر الأستاذ Popper أنه يمكن الخروج من قوائم زيادات النيل فيما بين سنتى ١٣٨١ ، ١٥٢٢ م أن النيل يزيد فى مدة ٤٥ يوماً من ٣٠ يونيو إلى ١٥ أغسطس وهو تاريخ الوفاء ١٩٧,٧ بوصة ثم يزيد مرة أخرى مقدار ٥٧ بوصة فى ٤٦ يوماً من ١٥ أغسطس إلى ٣٠ سبتمبر وأن القلقشندى ذكر بقوله المذكور حوالى سنة ١٤١٥ م كما حدد الإصبع $\frac{3}{4}$ بوصة

Popper; The Cairo Nilometer, p. 228

(٣) ذكر ديودور الصقلى واسترابون ما يدل على أن المصريين منذ القدم كانوا يحاولون استنتاج مقدار ارتفاع النيل فيقول ديودور الصقلى : ويعرف سلفاً مقدار المحصول القادم بالضبط وذلك بأن المصريين يحتفظون بسجلات أثبتت فيها ملاحظاتهم فى ذلك الأمر مدى حقب طويلة انظر ديودور الصقلى فى مصر ص ٨٢ — ويذكر استرابون وأنهم (المصريين) يستنتجون من هذه العلامات (علامات القياس) ومن حساب الأيام الارتفاع القادم قبل ميعاده بكثير ويعلنونه » . انظر استرابون فى مصر ص ١١٦ — ويذكر النويرى وغيره قصة وإن تكن خرافية إلا أنها تشير إلى اهتمام المصريين بالتنبؤ بالفيضان فيقول : إن المصريين القدماء كانوا يعرفون مقدما ما سيكون عليه حال الفيضان وذلك إن أحد ملوكهم قبل الطوفان ويدعى خصيلم بنى بيتا فى وسطه بركة من نحاس بها ماء مقدر وعلى حافتها تمثالا عقابين ذكر وانثى ، وفى وقت معين يدخل الكهان فى هذا المكان ويتلون تعاويذ خاصة حتى يصفر أحد العقابين فإذا صفر الذكر كان الماء زائدا وإن صفرت الأنثى كان العكس فاتخلوا أهبتهم لذلك . انظر نهاية الأرب جـ ١٥ ص ١١ .

وبنى المصريون تنبؤهم إما على الظواهر الفلكية أو على تجارب عملية أو يعتمدون على ظواهر ومشاهدات يستنتجون منها بطول التجربة ما سيكون عليه الفيضان .

ففي مخطوط ابن رضوان[1] نراه يقرن حال النيل بالكواكب ومنازلها فيقول مثلاً « إذا كان المريخ فى سيره الأكبر عند الإنتقال الصيفى يكون النيل تلك السنة عالياً ، وإن كان فى سيره الأوسط كان متوسطاً ، وإن كان فى سيره الأصغر كان محترقاً .

وإذا قارن المريخ عطارد فى أيام الزيادة فذلك يدل على نقص الفيضان[2] .

ويذكر أن كواكب الأمطار ثلاثة ، القمر والزهرة وعطارد . وبروج الأمطار خمسة : السرطان والعقرب والحوت والأسد والدالى . وخسوف القمر فى أحد هذه البروج فى أيام الزيادة خصوصاً فى مسرى يدل على نقص النيل . وإن اتصال القمر بالزهرة من بيت عطارد دليل على زيادة النيل حينئذ .

وذكر المقريزى[3] : « إنه عند حلول الشمس برج السرطان ، ينظر إلى الزهرة وعطارد ، والقمر فإن كانت فى سيرها الأكبر فالفيضان مرتفع ، وإلا فالفيضان مقصر أو متوسط بحسب حالها » .

ويذكر المنوفى فى مخطوطه[4] نقلاً عن صاحب الأصل[5] : « إنه عند نزول الشمس برج الحمل ينظر إلى القمر فإن كان نازلاً فى برج الحمل أو الأسد أو القوس دل على قلة الماء ، وإن كان القمر فى برج الثور أو السنبلة أو الجدى كان النيل متوسطاً . وإن نزل القمر فى برج السرطان أو العقرب أو الحوت كان النيل عالياً ويخشى على البلاد من خطر الاستبحار ، وإن كان القمر فى برج الجوزاء أو الميزان أو الدالى فيكون النيل كثير المنافع »[6] .

---

(١) انظر ما ذكر عنه فى الفصل الخاص بالمخطوطات .

(٢) علق ناسخ هذه النسخة من مخطوط ابن رضوان على ذلك القول بما يلى « وقد خرق الله تعالى العادة فى قران المريخ وعطارد فى سنة ١١٤٨ وزاد النيل زيادة إلى الغاية ولم يحصل توقف بإذن الله تعالى » .

(٣) الخطط جـ ١ ص ٦٨ .

(٤) «الفيض المديد» نسخة الإسكندرية ص ٣٠-٣١ .

(٥) زين الدين أبو محمد عبد الرحمن الرشيدى – انظر الفصل الخاص بالمخطوطات .

(٦) يرد المنوفى على ذلك بقوله إنه من قبيل الخوض فى المغيبات الذى لايعلمه إلا الله سبحانه إذ حساب الأفلاك فى ذلك غير معتمد شرعاً وقد ينعكس الأمر فيما قاله كما شوهد فى كثير من السنين .

وفى مخطوط لمؤلف مجهول [1] يقرن فيضان النيل بوقت نزول النقطة فإذا نزلت ليلة الأحد كان النيل فى هذا العام عشرين ذراعاً وأصابع ، وإذا نزلت ليلة الاثنين كان النيل ٢٢ ذراعاً وبعض أصابع بالفرد ، فإذا نزلت ليلة الثلاثاء كان ١٩ ذراعاً ونصف ، وفى نزولها ليلة الأربعاء معناه أن النيل متوسط حيث يكون ١٨ ذراعاً ونصف وثمن ذراع ، فإن وافق نزول النقطة ليلة الخميس يكون النيل ٢٢ ذراعاً وبعض الأصابع أما نزولها ليلة الجمعة دليل على أن النيل يكون على ١٨ ذراعاً وبعض أصابع. فإذا نزلت ليلة السبت يزيد النيل إلى ٢٣ ذراعاً إلا أصابع .

وقد وجد العرب أن القبط يستعينون على معرفة ما سيكون عليه الفيضان بطين يكون قد مر عليه ماء النيل يزنونه ليلة الثانى عشر من بؤنه ثم يعاد وزنه عند طلوع شمس الغد فمقدار الزيادة من الخراريب يكون مقدار ما سيزيده النيل من الأذرع ، ويذكر المقريزى أنه جرب ذلك بنفسه ووجده صحيحاً [2] .

ومن المشاهدات التى بنوا عليها تنبؤاتهم أنه إذا كان الماء فى اثنى عشر يوماً من مسرى اثنتى عشرة ذراعاً فهى سنة ماء ، وإلا فالماء ناقص [3] .

ويقول المسعودى [4] « والفرس الذى يكون فى نيل مصر إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع من الأرض علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه ولا يختلف ذلك عندهم لطول العادات والتجارب » .

إلى غير ذلك من التكنهات [5] الكثيرة التى تدل على مقدار اهتمام الناس بأمر الفيضان وتلهفهم على معرفة ما سيكون عليه من زيادة أو نقص وحتى تطمئن قلوبهم على مصدر رزقهم [6] .

---

(١) مخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية — انظر الفصل الخاص بالمخطوطات .

(٢) الخطط ج ١ ص ٦٧ .

(٣) المقريزى الخطط ج ١ ص ٥٩ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٣ .

(٥) انظر المقريزى الخطط ج ١ ص ٦٨ .

(٦) ذكر ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» ج ١ ص ٣٥-٣٦ فى ترجمة لأحمد بن اسماعيل النحاس النحوى المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ هـ عن سبب وفاته أن شخصاً رآه جالساً على سلم المقياس يقرض شعراً ، فظنه يسحر النيل حتى لايزيد فدفعه فى النيل فغرق — وترينا هذه الحادثة مقدار الهلع الذى يصيب المصريين لكل مايظنونه متعلقاً بنقص الفيضان حتى يصل الأمر إلى حد القتل على الشبهة .

ثالثاً – المقاييس :

عنى المصريون منذ أقدم العصور بإقامة المقاييس فى مختلف أنحاء البلاد ليرافبوا مقدار ارتفاع النيل لما فى ذلك من علاقة برى الأرض وتحصيل الخراج .

وعندما جاء العرب إلى مصر وجدوا مقياساً فى منف وهو من أقدم المقاييس المصرية ١ ، وينسب ابن عبد الحكم هذا المقياس إلى يوسف الصديق . كما ذكر أن دلوكة العجوز أنشأت مقياسين أحدهما فى أنصنا والآخر بأخميم ٢ .

وبنى الرومان مقياساً عند حصن بابليون بقيسارية الأكسية ، ويذكر القضاعى أنه ظل حتى ابتنى المسلمون أبنيتهم بين الحصن والبحر ٣ . وكان لهم أيضاً مقياس داخل القصر ظلت آثاره إلى عهد متأخر ٤ .

وعرف العرب مالهذه المقاييس من أهمية فظلوا يستعملونها واعتنوا بها إلى أن أنشأوا مقاييسهم المعروفة ، بل لقد ظلوا يستعملون مقياس منف إلى جانب المقاييس الإسلامية حتى أواخر القرن الثانى الهجرى على الأقل . فيقول ابن عبد الحكم ٢ : « حدثنا يحيى بن بكير قال : أدركت القياس يقيس فى مقياس منف ويدخل بزيادته الفسطاط » وإن بكير هذا توفى سنة (٢٣١ هـ – ٨٤٦ م) ٥ ٦ .

أما عن المقاييس الإسلامية فيذكر القضاعى أن عمرو بن العاص بعد فتحه مصر ابتنى مقياساً بأسوان وآخر بدندره ، ثم بنى معاوية مقياساً بأنصنا ٧ . كما ينسب إلى عمرو

---

(١) يقول ديودور الصقلى عنه ما يلى « ولقد كان ما يتعلق على ارتفاع النيل من أهمية حافزاً للملوك على إقامة مقياس للنيل فى منف ، وعهد فى ادارته إلى خبراء يقيسون ارتفاعه بالضبط ١٠٥ » ديودور الصقلى ص ٨٠ .

(٢) فتوح مصر ص ١٦ .

(٣) ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٦١١ .

(٤) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٥٧ – ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣١٠

(٥) أمين باشا سامى : تقويم النيل المقدمة جـ ١ ص ٤٣ –

(٦) بل ويعتقد أمين باشا سامى (المرجع السابق ص ٩٢–٩٣) أن مقياس منف ظل مستعملاً حتى منتصف القرن الثامن الهجرى . وهو اعتقاد لاتؤيده المراجع العربية بل إن ابن تغرى بردى يؤكد (النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣١١) أنه بعد المقياس الهاشمى أبطل استعمال جميع المقاييس الموجودة بمصر سواء فى الوجه القبلى أو البحرى .

(٧) ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٦١١ – القلقشندى صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٨٩ – المقريزى الخطط جـ ١ ص ٥٧ .

أيضاً إنشاء مقياس في حلوان [1] .

ومن المحتمل أن عمراً ومعاوية أعادا إصلاح المقاييس القديمة في هذه الجهات ليس إلا . فمن المعروف أنه كان هناك مقياس بأسوان ذكره استرابون [2] . كما ذكر الكتاب العرب وجود مقياس بأنصنا قبل الفتح [3] . علاوة على أن ابن عبد الحكم — وهو أقدم مرجع عربي يعتني بذكر المقاييس — لم يذكر قيام عمرو أو معاوية بإنشاء مقاييس جديدة .

ولكن الذي لا شك فيه أن أول مقياس عمل في الإسلام — وذلك بإجماع الكتاب العرب — أنشأه عبد العزيز بن مروان بحلوان عندما اتخذ منها مقراً له في ولايته على مصر (٦٥—٨٦ هـ ٦٨٥—٧٠٥ م) وهو مقياس صغير [4] .

ثم أنشأ أسامة بن زيد التنوخي عامل الخراج مقياساً في جزيرة الصناعة (الروضة) . وقد اختلف المؤرخون العرب في عهد من أنشئ هذا المقياس . فالبعض كابن عبد الحكم [4] يقول بإنشائه في عهد الوليد والبعض الآخر كالمسعودي [5] يرى أنه بني في عهد سليمان ابن عبد الملك .

ويظهر أن الاختلاف جاء نتيجة لبناء هذا المقياس مرتين على يد أسامة . المرة الأولى سنة (٩٢ هـ — ٧١١ م) [6] في عهد الوليد . ثم لما تولى سليمان الخلافة بعد أخيه الوليد كتب إليه أسامة ببطلان هذا المقياس فأمره (أي سليمان) بأن يبني مقياساً آخر فبناه سنة (٩٧ هـ — ٧١٥ م) [7] .

ويصف الشهاب الحجازي المقياس بقوله [8] : «ثم عمل أسامة بن زيد التنوخي عامل خراج مصر في خلافة سليمان بن عبدالملك مقياساً بالجزيرة ، وقد ذكر أن المقياس المذكور

---

(١) المقريزي الخطط جـ ١ ص ٥٩ .

(٢) استرابون في مصر ص ١١٦ .

(٣) ذكر ابن دقماق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ١٧ أن الآثار مقياس انصنا كان موجوداً في عصره .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ١٦ .

(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٦) E.I. ; art. Al Nil.

(٧) ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٦١١ — قلقشندي «صبح الأعشى» جـ ٣ ص ٢٩٨ — المقريزي الخطط جـ١ ص ٥٧ — ابن تغرى بردى «النجوم» جـ٢ ص ٣١٠ .

(٨) مخطوط «نيل الرائد في النيل الزائد» نسخة مصورة عن مخطوط بلدية الإسكندرية وهذه النسخة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم بلدان تيمور ١٨٨ — ص ٥ أ ، ٥ ب .

كان فى مكان القرابيص الظاهرة من البحر بالجزيرة الآن . وذكر فى كتاب أخبار مصر وعجائبها : « أن أسامة بن زيد التنوخي وضع مقياساً فى الجزيرة وهو أكبرها ولما بعد الماء فى أيام اليازورى ظهر هذا المقياس على الحجر الذى تقول العامة أنه حائط العجوز ، وحمل عموده وفيه الأذرع والأصابع وهو عمود مدور وعمل أسفل تحت حائط المقياس الذى عمله المتوكل وهو باق إلى الآن » .

وينسب للمأمون بناء مقياس عند ما حضر إلى مصر سنة (٢١٧ هـ – ٨٣٢ م [١] .

وفى سنة (٢٤٧ هـ – ٨٦١ م) أمر المتوكل على الله العباسى بإنشاء المقياس المعروف بالهاشمى ، وهو أشهر المقاييس الإسلامية على الإطلاق إذ صار الاعتماد عليه بعد ذلك وأبطل العمل بالمقاييس الأخرى [٢] .

ولم يذكر ابن عبد الحكم هذا المقياس مع أنه أنشئ قبل وفاته بحوالى عشرة سنوات ، وربما يرجع السبب فى ذلك أن مؤلف ابن عبد الحكم قد تم فى الغالب قبل بناء المقياس .

أما المسعودى فيذكر [٣] خطأ أن المقياس الذى أقامه أسامة بن زيد هو الذى ظل العمل عليه حتى سنة ٣٣٢ هـ وهى السنة التى ألف فيها كتابه مروج الذهب . وقد اتبع جلال الدين المحلى ، المسعودى فى خطأه فيقول [٤] : « والمقياس اتخذه أسامة بن زيد التنوخى لسليمان بن عبدالملك بالجزيرة بين الفسطاط والجيزة والعمل عليه إلى وقتنا هذا » .

كذلك أخطأ بعض الكتاب المتأخرين فى نسبة هذا المقياس للمأمون . فالقلقشندى [٥] يقول : « ثم بنى المأمون مقياساً أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة (الروضة) فى سنة ٢٤٧ فى ولاية يزيد بن عبد الملك » . والخطأ الذى وقع فيه القلقشندى ظاهر ، إذ إن سنة ٢٤٧ هـ تقع فى خلافة المتوكل وأن المأمون قد توفى سنة ٢١٨ هـ .

---

(١) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٥٩ ويذكر أن المأمون بنى مقياسه فى البروزات – أما ابن أيبك « درر التيجان ص ٩٩ » يذكر أن المقياس أنشىء فى الشروزات فى حين أن على باشا مبارك الخطط التوفيقية جـ ١٨ ص ٦ يقول « إن المأمون عمل مقياسين أحدهما بقرب بلد فى محل يعرف باسم صورات وعمل الثانى فى اخميم » .

(لم أستطع تحديد مواقع البروزات أو الشروزات أو الصورات) .

(٢) يقول ابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » جـ ٢ ص ٣١١ عن هذا المقياس « وبطل بعمارته كل مقياس كان بنى قبله من الوجه القبلى والبحرى باعمال الديار المصرية » .

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٤) مبدأ النيل على التحرير ص ٤ .

(٥) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٨ .

وينقل السيوطى [١] عن صاحب « مرآة الزمان » [٢] : « المقياس الظاهر الآن بناه المأمون ، وقيل إنما بناه أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة سليمان بن عبد الملك ودثر فجدده المأمون . » .

وينقل أيضاً [١] (أى السيوطى) عن التيفاشى : « ثم هدم المأمون مقياس الجزيرة وأسسه ولم يتم فأتم المتوكل بناءه وهو الموجود الآن » .

أما ابن تغرى بردى [٣] فيذكر : « إن المأمون عمر المقياس وجسراً آخر بالجزيرة تجاه الفسطاط [٤] . » .

ويقال إن الذى بنى المقياس الهاشمى مهندس عراقى استقدم خصيصاً لهذا الغرض اسمه محمد بن كثير الفرغانى [٥] وذلك فى ولاية يزيد بن عبد الملك التركى وبإشراف أحمد بن محمد الحاسب [٦] . وقد اختير لبنائه الطرف الجنوبى الشرقى لجزيرة الروضة تجاه مصر القديمة .

وقد كانت النصارى حتى ذلك الوقت تحتكر الإشراف على المقياس ولكن ورد

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٢) من القرن ٦ هـ – ١٢ م Popper ; op. cit. p. 18

(٣) النجوم جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٤) ويقول كلوت بك أيضا ؛ لمحة عامة إلى مصر جـ ١ ص ٢٠١ «إن مقياس الروضة أنشىء فى أيام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ وجدده فى سنة ١٩٠ هـ المأمون الخليفة العباسى ونقش فى عموده ما يشير إلى ذلك وأمر بترميمه من بعده المستنصر بالله العباسى – وهو بذلك لم ينسب للمتوكل أى عمل بالمقياس » . ويرى الأستاذ Popper أن هذا الخطأ له علاقة بما ذكره الكندى ص ١٩٢ فى قوله « وركب أمير المؤمنين (المأمون سنة ٢١٧ هـ) فنظر إلى المقياس وأمر بإقامة جسر آخر فعمل له هذا الجسر القائم بالفسطاط اليوم وترك القديم » وأن الكتاب ربما نقلوا عن الكندى أو من مصدر آخر نقل عنه وأضافوا بناء المقياس إلى المأمون . كما يرى (أى Popper)
أن المأمون لم يقم بأى عمل أو تجديد فى المقياس .

(٥) ابن أيبك « درر التيجان » ص ٩٩ – ابن تغرى بردى النجوم جـ ٢ ص ٣١١ ولكن الشك والغموض يحيطان هذا المهندس وحقيقة وجوده – انظر

Popper ; op. cit. p. 24

Ghalib ; Le Mikyas p. 12 et Seq.

(٦) يرى الأستاذ بوبر (Popper ; op. cit. p. 22/24) أن أحمد بن محمد الحاسب هو احمد بن محمد بن المدبر وان ابن المدبر بدأ عمله فى مصر خلال سنة ٢٤٧ هـ وهى السنة التى نقش فيها ابن الحاسب المقياس ، لذلك فهو يربط بين الاثنين ويجعلهما شخصاً واحداً .

أمر المتوكل بعزلهم وتعيين مسلم للقيام بذلك ، فاختير عبد الله بن عبد السلام بن الرداد ، وبقى هذا العمل فى ذريته من بعده [1] . فيقول الكندى [2] : « وورد كتاب المتوكل بابتناء المقياس الهاشمى للنيل ، وبعزل النصارى عن قياسه . فجعل يزيد عليها أبا الرداد المعلم وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج [3] سبعة دنانير وذلك فى سنة ٢٤٧ » .

ولكن ابن عبد السلام المنوفى [4] يذكر : « أن القاضى بكار هو الذى كاتب المتوكل فى ذلك وأنه لا ينبغى أن يتولاه إلا من يوحد الله تعالى . فكتب إليه افعل ما شئت ، وول من أردت فولاه عبد السلام الرداد [5] » .

ومقياس المتوكل من أهم الآثار الإسلامية التى احتفظت إلى الآن بكثير من معالمها وحظيت بعناية المهتمين بدراسة التاريخ والآثار الإسلامية من شرقيين وغربيين . وقد تناولته يد الإصلاح والتجديد طوال العصور المختلفة ، وكان أول هذه الإصلاحات على يد أحمد بن طولون سنة (٢٥٩ هـ ° – ٨٧٩ م) وآخرها على يد المهندس كامل عثمان غالب وكيل وزارة الأشغال السابق الذى ألف كتاباً عن المقياس يعتبر أوفى مرجع عنه [6] .

وقد اختلفت الآراء بخصوص عمود هذا المقياس وعمود مقياس أسامة ، فالبعض مثل

= ولكن المقريزى « الخطط جـ ١ ص ١٠٣ » يذكر أن ابن المدبر ولى الخراج بعد سنة ٢٥٠ هـ . وابن اياس يحدد سنة تولى ابن المدبر سنة ٢٥٤ هـ (ابن اياس بدائع الزهور طبعة المطبعة الأميرية ص ٣٦) .

(١) ينقل الأستاذ بوبر عن Vansleb (Popper ; op cit. p. 58.) أن الكتاب المسلمين لم يذكروا سبب جعل النظر فى المقياس وراثى فى أسرة ابن الرداد ولكن حسب رأى الأقباط المتأخرين أن الرداد هذا كان قسيسا قبطيا يدعى ردات Raddat أسلم فكوفىء على إسلامه بأن جعل أمر المقياس خاصا بذريته وهو قول ظاهر الخطأ فالكتاب العرب أجمعوا على أن ابن الرداد كان فقيها من البصرة وكان مسلماً تقياً . وربما كان أمر المقياس من قبل وراثياً فى أسرة قبطية ، فجعل وراثياً فى أسرة ابن الرداد ، وربما كانت قراءة المقياس تحتاج إلى خبرة يتوارثها الخلف عن السلف مما جعل من الأوفق حصرها فى أسرة واحدة .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٠٣ .

(٣) يذكر ناصر خسرو – سفرنامه ص ٤٢ – أن عامل المقياس كان راتبه ألف دينار وهو قول ظاهر المبالغة .

(٤) الفيض المديد ص ٦٧–٦٨ .

(٥) ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٦١١ وانظر على مبارك الخطط التوفيقية جـ ١٨ ص ١٥ وما بعدها عن التجديدات التى حدثت فى العهود المختلفة .

(٦) Le Mikyas ou le Nilometre du l'Ile de Rodah

على باشا مبارك [1] يرى أن عمود مقياس الروضة هو نفسه عمود مقياس أسامه ، في حين أن الأستاذ بوبر Popper [2] يشك في أن عمود المقياسين واحد .

أما عمر طوسون فيظهر أنه يعتقد أن مقياس أسامة هو نفسه مقياس المتوكل فيقول [3] عن أسامة : « وهذا العامل هو الذى أقام فى عهد هذا الخليفة (سليمان بن عبد الملك) بناء مقياس النيل الذى بالروضة الآن . »

ولكنا أوردنا عند الكلام عن مقياس أسامة ما ذكره الشهاب الحجازى من أن عمود مقياس أسامة مدور فى حين أن عمود مقياس المتوكل مثمن .

وكان فى واجهة بناية المقياس الشرقية المطلة على الفسطاط شباك كبير يعلق عليه ستر عند وفاء النيل . وكان هذا الستر يختلف فى لونه من عهد لآخر فهو أسود فى عهد العباسيين [4] ، وأصفر فى العهد المملوكى [5] ثم من الأخضر والأصفر فى عهد العثمانيين [6] .

ولقد بنيت مقاييس أخرى بعد هذا المقياس الهاشمى وإن ظل الاعتماد الكلى عليه . ومن هذه المقاييس مقياس أحمد بن طولون بجزيرة الروضة ، وذكر المسعودى [7] أنه كان يستعمل « عند كثرة الماء وترادف الرياح » كما ينسب السيوطى [8] لابن طولون بناء مقياس آخر فى قوص .

وجاء فى معجم البلدان لياقوت [9] نقلاً عن القضاعى « وبنى الخازن فى الصناعة مقياساً وأثره باق لا يعتمد عليه » .

وقد نقل المقريزى [10] وابن تغرى بردى [11] هذه الجملة أيضاً عن القضاعى مع إحلال اسم الحارث بدلاً من الخازن .

---

(١) على مبارك الخطط التوفيقية جـ ١٨ ص ١٥ .

(٢) op. cit. p. 16

(٣) عمر طوسون مالية مصر ص ٤٨

(٤) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ١٨٥ .

(٥) ابن دقماق — الانتصار جـ ٤ ص ١١٤ .

(٦) ابن أبى السرور البكرى — الكواكب السائرة ص ص ١٣٩ ا

(٧) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٨) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٩) جـ ٤ ص ٦١١ .

(١٠) الخطط جـ ١ ص ٥٧ .

(١١) النجوم جـ ٢ ص ٣١١ .

ولما كان الثلاثة ينقلون عن القضاعى فأرجح أن الذى بنى هذا المقياس هو الخازن .

أولاً — لأن ياقوت أقرب إلى عصر القضاعى من المقريزى وابن تغرى بردى .

ثانياً — لم يذكر أى مرجع أن الحارث بنى مقياساً ، فى حين يذكر ابن دقماق [1] أن الخازن بنى مقياساً بالأهراء على ساحل الفسطاط [2] .

أما عن طريقة القياس ووقته وكيفية النداء على الزيادة فقد اختلفت من عصر لآخر . ففى أول الأمر كان ينادى على زيادة النيل كل يوم وذلك منذ أواخر بؤنة (أوائل يوليو) ويرجح أن الإعلان اليومى كان يذاع فى المسجد الجامع [3] .

ولما كان فى إباحة الإعلان عن الزيادة دفع لبعض الناس — إذا توقف النيل عن الزيادة أو كانت زيادته قليلة — إلى احتكار الأقوات أو تخزينها مما يسبب الغلاء ، فإن المعز لدين الله الفاطمى أمر فى شوال سنة (٣٦٢هـ — ٩٧٢ م) بإبطال النداء والاكتفاء بكتابة رقعة للخليفة وأخرى للوزير بزيادة النيل اليومية حتى إذا تمت زيادته ستة عشر ذراعاً أبيح النداء [4] .

ولا نعلم تماماً هل ظل هذا التقليد سارياً طيلة الدولة الفاطمية ، إذ بينما يرى القلقشندى أن الخلفاء الفاطميين اتبعوا هذه السياسة ، فإن ناصر خسرو وقد أقام بمصر فى المدة من ٤٣٩-٤٤٢ هـ (١٠٤٧-١٠٥٠ م) يقول [5] : إنه ، منذ أول يوم للفيضان يطوف منادون فى المدينة بأن الله تعالى قد زاد النيل كذا إصبعاً ويذكرون مقدار زيادته كل يوم . وحين تبلغ الزيادة ذراعاً كاملاً تضرب البشائر ويفرح الناس ١٠٥ » .

كما ذكر ابن مماتى [6] أن النيل « يقاس فى الخامس والعشرين منه (بؤنة) وينادى

---

(١) الانتصار ج ٤ ص ٩٩ .

(٢) الخازن هو محمد بن عبد الله الخازن المتوفى سنة ٣٥٨ هـ . ويذكر الأستاذ بوبر أنه لما كان مقياس الروضة مستعملاً فى ذلك الوقت فإن الغرض من إنشاء مقياس الخازن هو احتياج صناعة بناء السفن لمعرفة ارتفاع النهر فى أى وقت من العام . كما يحتمل استعماله لمقارنة ومراجعة ما يذكره حراس مقياس الروضة خصوصاً وأن السنين من ٣٥٢-٣٥٦ هـ (٩٦٣-٩٦٧ م) كان النيل فيها ناقصاً والمجاعة تخيم على البلاد . Popper ; op. cit. p. 11 & 15

(٣) انظر ابن رسته الأعلاق النفسية ص ١١٦ .

(٤) القلقشندى — صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٦ .

المقريزى الخطط ج ١ ص ٦١ .

(٥) سفر نامة ص ٤٢ .

(٦) قوانين الدواوين ص ٧٥ .

به ». ولما كان ناصر خسرو يعتبر شاهد عيان لما يروى وابن مماتى رجل مسئول من رجال الدولة الأيوبية وأنه على علم بما كان يتبع فى هذا الشأن ، فإننا نرجح أن تقليد المعز لم يدم طويلاً بعده وأن النداء العلنى أبيح بعد ذلك .

أما عن كيفية ووقت القياس فى العصر المملوكى فنعتمد على رواية القلقشندى إذ باعتباره من كتاب الإنشاء الذين يلمون بمثل هذه الأمور بحكم عملهم ، يمكن أن نتقبل كلامهم بثقة ، وقد ذكر القلقشندى [1] أنه ابتداء من عصر يوم ٢٦ بؤنه « يؤخذ قاع البحر وتقاس عليه قاعدة المقياس التى تبنى عليها الزيادة ، وفى السابع والعشرين ينادى عليه بالزيادة » . أى أن متولى المقياس يعرف الزيادة عصر كل يوم ويعلن عنها فى اليوم التالى .

والإعلان عن الزيادة على ضربين ، إعلان عام لعامة الشعب لا يصرح فيه إلا بمقدار الزيادة من الأصابع من غير تصريح بمقدار الأذرع . وفى الوقت نفسه تكتب رقاع يومية « لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام كأرباب الوظائف من الأمراء وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش والمحتسب ومن فى معناهم ، فيذكر زيادته فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقه من القبطى من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ، ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته فى العام الماضى فى ذلك اليوم من الأصابع وما صار إليه من الأذرع والبعادة (الفرق) بينهما بزيادة أو نقص ، ولا يطلع على ذلك عوام الناس ورعاعهم . فإذا وفى ستة عشر ذراعاً صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعاً عند كل أحد » .

رابعاً — أعياد النيل :

من الطبيعى وقد رأينا اهتمام المصريين بنهر النيل وفيضانه ، وارتباط حياتهم به ، أن يقيموا الأعياد المختلفة فى مواسم معينة من السنة ، بعضها لاعتقادهم أنها تجلب فيضاناً مناسباً ، والبعض الآخر احتفالاً بالوفاء وتمام الزيادة المطلوبة .

وقد ذكر المؤلفون العرب أربعة من هذه الأعياد هى :

١ — حفل عروس النيل : روى أغلب المؤلفين العرب وعلى رأسهم ابن عبد الحكم [2] أن عمرو بن العاص عندما فتح مصر ، أتاه أهلها وأخبروه أن من عادتهم تهيئة فتاة حسناء بأفخر لباس وأجمل زينة لإلقائها فى النيل فى الثانى عشر من بؤنة

---

(١) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٣ ، ص ٢٩٧ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ١٥٠

جلباً لرضاه وتوقعاً لفيضان مناسب . فأبى عمرو عليهم ذلك وأيده عمر بن الخطاب .

ويقال إن النيل ظل شهرى أبيب ومسرى وهو متوقف عن الزيادة حتى هم الناس بالهجرة فأرسل عمر بن الخطاب كتاباً لإلقائه فى النيل ، فأصبح الناس يوم الصليب وقد بلغ النيل فى ذلك اليوم ستة عشر ذراعاً . ومن هذا التاريخ أبطلت هذه العادة السيئة .

ولقد اختلفت الآراء فى مدى صحة هذه القصة ، فالبعض يؤيدها وآخرون يرفضونها .

فدائرة المعارف الإسلامية تؤيد هذه القصة ، وتقول إنه من الممكن تتبعها خلال العهد المسيحى اليونانى إلى عهود قديمة جداً ، وأنه بعد إبطال عمرو لهذه العادة ظل المصريون يلقون فى النيل دمية تمثل عروساً فى عيد الصليب [1] .

ويقول على باشا مبارك [2] « ذكر المؤرخون أنه كان للمصريين عوائد كثيرة يجرونها عند الوفاء ، فمن ضمنها تغريق بنتاً بكراً .... وبقيت هذه العادة إلى زمن قسطنطين الذى أمر بإبطالها وأصدر أو امره بذلك لأجل ألا تعاد ، ومع ذلك يظهر أن هذه العادة غلبت على أوامر هذا القيصر لأن مؤرخى العرب قالوا بأن هذه العادة ظلت جارية حتى منعها عمرو » .

أما الأستاذ بوبر فيذكر [3] أنه كان يقام أمام سد خليج القاهرة عمود أو تل صغير من التراب ، والغرض من هذا العمود — الذى كانوا يطلقون عليه اسم العروسة والذى كان يكتسحه تيار النيل قبل قطع السد بأسبوعين — معرفة قوة التيار ، وكانت العامة تعتقد أنه رمز لعروس النيل التى كان المصريون يلقونها فى النيل من قبل .

ولكن معظم المؤرخين المحدثين [4] يرفضون هذه القصة ويرون أنه من المحتمل أن هذه العادة كانت متبعة فى أيام الفراعنة ، ولكن من الخطأ أن يتهم المسيحيون باتباع هذه العادة الشنيعة التى تحرمها ديانتهم .

ويرى الدكتور بتلر [4] . أن لهذه القصة أساساً من الحقيقة التاريخية كما يلوح ،

---

(۱) E.I. art. Al Nil

وجدير بالذكر أن عيد الصليب كان يقام عادة بعد الوفاء أى فى ۱۷ توت فى حين أن الأسطورة تقول إن إلقاء العروس كان فى ۱۲ بؤونه فليس هناك ارتباط بين التاريخين .

(۲) الخطط التوفيقية جـ ۱۸ ص ص۳۰ .

(۳) op. cit. p. 84/85

(٤) الدكتور بتلر « فتح العرب لمصر » ص ۳۷۹—۳۸٥

الدكتور الشيال « مقالة الاحتفال بوفاء النيل فى مصر الإسلامية » مجلة الثقافة العدد ١٤٠ ٢ من سبتمبر سنة ١٩٤١ .

فقد كان من عادة أهل السودان حقيقة فى أقصى أنحائه الجنوبية أن ترمى قبائله الهمج فى النهر بفتاة عذراء فى زينة الزفاف ، ولعل عادة كهذه كانت متبعة فى بعض جهات الهمج من بلاد النوبة التى فتحها الإسلام فى أول أمره .

وأعتقد أن هذه العادة لم تكن متبعة لا فى العصر المسيحى ولا فى العصر الفرعونى فلم يعرف عن المصريين أنهم كانوا يضحون بالقرابين البشرية ، كما أن المؤرخين اليونان والرومان أمثال هيرودوت وديودور واسترابون الذين زاروا مصر وأقاموا بها مدة من الزمن وتعرضوا لعادات المصريين ونظمهم واحتفالاتهم الدينية ووصفوا الفيضان ، لم يشيروا إلى مثل هذه العادة التى لو كانت متبعة لأثارت انتباه هؤلاء المؤرخين . بل إن هيرودوت كذب ما اتهم به المصريون من التضحية بالإنسان تكذيباً قاطعاً فيقول : « كيف يجوز لقوم لاتحل لهم التضحية بالحيوان إلا الخنازير والثيران والعجول ما كان منها طاهرا والأوز أن يضحوا بآدميين [١] » .

وإذا كان المصريون فى العهد الفرعونى لم يقترفوا مثل هذا العمل ، فإنه من باب أولى ألا يقترفه الأقباط ولهم دينهم السماوى الذى يعصمهم من مثل هذا الجرم .

٢ — ليلة الغطاس : ولو أن هذا الاحتفال مرتبط بالعقيدة المسيحية ، إلا أننا أشرنا إليه حيث كان من الاحتفالات الكبيرة التى تقام على شاطىء النيل ومن تقاليدها أن من يغطس فى ماء النيل ليلتئذ أمن من المرض .

ولا شك أنه عيد قديم سابق على الفتح الإسلامى وكان يقام — ولا يزال — ليلة ١١ من طوبة وأول إشارة لهذا الاحتفال فى المراجع العربية ما ذكره المسعودى[٢] من أنه حضر سنة ٣٣٠ هـ ليلة الغطاس بمصر وكان محمد بن طغج الإخشيد فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة ، وقد أمر فأسرجت المشاعل على شاطىء الجزيرة ومصر غير ما أخرج الناس . وقد حضر هذا الاحتفال مائة ألف شخص من مسلمين ونصارى بعضهم فى النيل والبعض الآخر فى الدور أو على الشاطىء « كل بما يمكنه من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والقصف » ويصفها بأنها « أحسن

---

(١) هيرودوت فى مصر ص ٥٤ — ولو أن ديودور الصقلى يذكر (ص ١٤٦) « أن القحط حصر المصريين مرة فصاروا فى عوزهم يأكلون بعضهم بعضاً » ولكن ذلك لا يقدم دليلاً على التضحية بالقرابين البشرية ، وأن الجوع هو الذى دفع المصريين إلى ذلك ، ولقد حدث ذلك فى مصر الإسلامية نفسها ولم يقل أحد أن الإسلام يوافق على هذا العمل المنكر .

(٢) مروج الذهب نشر الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ١ ص ٢٩١

ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة من الدواء » .

وقد احتفل الخلفاء الفاطميون بهذه الليلة إلا فى بعض السنين فى خلافة الحاكم إذ أمر بإبطاله كما حدث سنة ٤٠١ [١] .

ويقول ابن المأمون : « كان من رسوم الدولة أن يفرق على سائر الدولة ليلة الغطاس الترنج والنارنج والليمون وأطنان القصب والسمك البورى برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام » [٢] .

وقد أبطل هذا الحفل فى عهد المماليك الشراكسة (البرجية) [٣] وإن لم يذكر تاريخاً لذلك ، ولعله أبطل فى السنة التى أبطل فيها الاحتفال بعيد الشهيد .

٣ – عيد الشهيد : [٤] لا نعلم على وجه التحقيق هل كان هذا الاحتفال يقام قبل الفتح العربى ، أم اتبع بعده ، ومتى كان ذلك ، فلم يذكر ابن عبد الحكم شيئاً عن هذا الاحتفال ، كما لم يشر إليه المسعودى مع أنه وصف عيد الغطاس وصفاً دقيقاً .

ويقول على مبارك [٥] : « إنه يظن أن عيد الشهيد هو العادة التى أبطلها عمرو بن العاص أيام فتح مصر بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » : أى أن عيد الشهيد هو تطور للاحتفال بعروس النيل .

ويشير إليه ابن فضل الله العمرى بقوله [٦] : « إنه إذا كان أوان تحرك النيل يخرج تابوت يقال إن فيه إصبع الشهيد ، ويرمى به فى البحر . وذلك لوقت معلوم يسمونه عيد الشهيد ويكون الذى يرميه بعض أعزاء كبراء القبط ، عادة كنت أسمعها لاتتغير . ويظن القبط أن رمى الإصبع سبب الزيادة . وإنما هو بمشيئة الله وقدرته » .

ويصف المقريزى [٧] هذا الاحتفال بأنه كان من أنزه فرح مصر ، وكان يقام فى الثامن من بشنس بشبرى . ويظهر أن هذا العيد فقد مدلوله الدينى وانقلب إلى معرض

(١) أبو السرور البكرى « قطف الأزهار » ص ٤٣ ب
(٢) المقريزى – الخطط ج ١ ص ٤٩٥
(٣) أبو السرور البكرى – المرجع السابق ص ٤٤ آ
(٤) الشهيد هو مار جرجس ٢٨٠–٣٠٣ م – انظر بتلر المرجع السابق ص ٣٨٠ الهامش
(٥) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٣١
(٦) مسالك الأبصار ص ٣٦١
(٧) الخطط ج ١ ص ٦٨–٦٩

لكل أنواع الفجور ، حتى كان اعتماد فلاحى شبرى فى وفاء الخراج على ما يبيعونه من خمر فى هذا العيد .

وقد أبطل هذا العيد نهائياً سنة (٧٥٥هـ - ١٣٥٤ م) وأحرق التابوت الذى به الإصبع وذرى رماده فى النيل.

ويروى ابن عبد السلام المنوفى ١ أن النيل زاد فى السنة التى أبطل فيها العيد زيادة لم يعهد مثلها فى تاريخ الإسلام إذ جاوز العشرين ذراعاً .

٤ - أعياد الوفاء : ذكر أنه منذ ابتداء موسم الفيضان كان متولو المقياس يعنون بمراقبة زيادة النيل يومياً وإبلاغ أولى الأمر لترقب اليوم الذى يتم فيه النيل ويبلغ حد الوفاء . كما كانوا يترقبون هذه الزيادة فى الصعيد ، فإذا أوفى هناك الستة عشر ذراعاً خرج البشير - ويعرف ، بالمفرد - من قوص قاصداً القاهرة ليزف البشرى ، فيتهيأ القوم لانتظار بلوغ الوفاء بالقاهرة بعد ثلاثة أيام ٢ .

وقد أجمع الكتاب على أن وفاء النيل هو بلوغه نهاية الذراع السادس عشر ٣ ويعرف بماء السلطان الذى يجب فيه الخراج . وعندئذ تبدأ أعياد الوفاء .

ويمكننا ملاحظة أمرين :

الأول : هو أن هذا التقليد ظل متبعاً حتى بعد أن أصبحت الستة عشر ذراعاً لاتفى بحاجات البلاد ، وصار الأمر يتطلب بلوغ ارتفاع النيل أكثر من عشرين ذراعاً . وفى ذلك يقول المقريزى ٤ : « ويحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعاً فرح عظيم فإن ذلك كان قانون الرى فى القديم ، واستمر ذلك إلى يومنا هذا » .

والأمر الثانى : أنه ليس هناك تاريخ محدد يصل فيه النيل إلى حد الوفاء ، بل يتوقف ذلك على كمية الماء الوارد علاوة على الماء القديم ، وبذلك يختلف يوم الوفاء من عام لآخر.

والاحتفال بوفاء النيل تقليد قديم سابق على الفتح العربى ٥ ، فلما فتح العرب

---

(١) الفيض المديد - نسخة الإسكندرية ص ٦٧

(٢) المقريزى - الخطط جـ ١ ص ٥٥

(٣) يذكر ياقوت أن كسر الخليج يكون إذا بلغ الماء ١٥ ذراعاً وزاد من السادس عشر إصبعاً واحداً - معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦٥-٨٦٦ .

(٤) الخطط جـ ١ ص ٦١

(٥) يذكر المؤلفون العرب أن يوم الوفاء هو يوم الزينة الذى وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع .

مصر احتفظوا بهذا التقليد بعد إدخال التعديل الذى يوافق الدين الجديد [1] .

ولقد اختلفت طريقة الاحتفال بالوفاء فى العصر العربى من وقت لآخر . ومن المعلومات التى يمكن استخلاصها من المراجع العربية نستطيع إلى حد ما أن نذكر فيما يلى المراحل التى مر بها .

فى الفترة التى أعقبت الفتح كان الاحتفال بسيطاً يتفق مع بساطة الدين الجديد . وابن رسته هو الكاتب العربى الوحيد الذى يعطينا صورة لهذا الاحتفال قبل العصر الفاطمى فيقول [2] : « وقد اتخذت علامات تعرف بها زيادة الماء ونقصانه ، ووكل به جماعة يتعهدونه ويثبتونه ، فإذا زاد نظروا إلى بعض تلك العلامات فوقفوا على مقدار الزيادة فى الخراج على حسب الزيادة فى الماء . فيصير هؤلاء الموكلون إلى المسجد الجامع بأيديهم الرياحين ويقفون على حلقة حلقة ويرمون بما معهم من الرياحين إليهم وينادون أن الله عز وجل قد زاد فى النيل كذا وكذا فيستبشر الناس ويكثرون حمد الله والشكر له » .

ويظهر أن الاحتفال بهذه الصورة استمر إلى وقت الفتح الفاطمى ، إذ إن المسعودى الذى يصف عيد الغطاس فى عهد الإخشيديين ، وصفاً يدل على عنايتهم به ، لا يتعرض للاحتفال بوفاء النيل ولا يشير إليه . ولعل ذلك يعود إلى بساطة الحفل وتواضعه بالرغم مما يذكره ابن عبد السلام المنوفى [3] من أن الدولة الإخشيدية كانت تعنى بكسر الخليج وهو قول نتقبله بحذر لعدم وروده فى المراجع السابقة له .

فلما دخل الفاطميون مصر طرأ عامل جديد وهو الاحتفال بكسر سد خليج أمير المؤمنين وأول تاريخ يذكر عن قطع السد هو ذو القعدة سنة ٣٦٢ هـ (أغسطس سنة ٩٧٣م — مسرى سنة ٦٨٩ قبطية) . فقد نقل المقريزى [4] عن ابن زولاق : « وفى ذى القعدة يعنى سنة ٣٦٢ وهى السنة التى قدم فيها الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب ، ركب المعز لدين الله عليه السلام لكسر خليج القنطرة فكسر بين يديه [5] » .

وقد ذكر المقدسى [5] أن مكان السد فى عين شمس ، وأن تاريخ قطعه هو يوم

---

(١) الدكتور الشيال — المرجع السابق

(٢) الأعلاق النفسية ص ١١٦

(٣) الفيض المديد ص ٤٤

(٤) الخطط جـ ١ ص ٤٧٠

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٦

عيد الصليب كذلك قال المسعودى [1] إن هذا الخليج وغيره من أمهات الترع تفتح « إذا كان الماء زائداً فى عيد الصليب وهو الأربع عشرة تخلو من توت وهو أيلول » .

فأما عن موقع السد فلا شك أنه كان عند القنطرة التى بناها عبد العزيز بن مروان على فم الخليج عند خروجه من النيل وليس فى عين شمس . أما عن تاريخ كسره فيمكننا القول إنه بعد أن كان هناك تاريخ محدد لفتح هذا الخليج وهو عيد الصليب ، فمن المحتمل أن يكون المعز قد رأى كسر سده عند وفاء النيل ، إذ إنه (أى المعز) قطع السد فى ذى القعدة الموافق لشهر مسرى أى قبل عيد الصليب بمدة ليست قصيرة .

وعلى كل فقد اتبع هذا التقليد بعد ذلك وصار الخليفة الفاطمى يخرج بنفسه لقطع السد . فيذكر المقريزى نقلاً عن المسيحى [2] ركوب العزيز والحاكم والظاهر كل سنة لفتح الخليج . أما عن تاريخ هذا الاحتفال فعند بلوغ النيل حد الوفاء أى ١٦ ذراعاً [3] ، ولو أن ناصر خسرو [4] بالغ كثيراً إذ يرى أن السد يكسر عند ما يبلغ ارتفاع الماء « عشرين ذراعاً عن مستواه فى الشتاء » .

ووصف ناصر خسرو [5] — الذى يعتبر شاهد عيان — لهذا العيد الذى يسميه « عيد ركوب فتح الخليج » يدل على الفخامة والعظمة التى بالغ الفاطميون فى إظهارها فى كافة أعيادهم .. بل لقد أولوا هذا العيد من العناية ما لم يولوه غيره من الأعياد ؛ وفى ذلك يقول المقريزى [6] : « ولوفاء النيل عندهم قدر عظيم ويبتهجون به ابتهاجاً زائداً وذلك لأنه عمارة الديار وبه التآم الخلق على فضل الله فيحسن عند الخليفة موقعه ويهتم بأمره اهتماماً عظيماً أكثر من كل المواسم » .

ولعل اهتمام الفاطميين بكسر سد الخليج يرجع إلى أن الأراضى التى على جانبيه ملك خاص للخليفة [7] ، وقد يؤيد ذلك أنه عند ما حفر خليج أبو المنجا الذى يروى الأراضى الداخلة فى ديوان الخليفة صاروا يحتفلون بكسر سده هو الآخر .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٣

(٢) هو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى مات سنة ٤٢٠ هـ .

(٣) كان السد فى بعض السنين يقطع والنيل دون ١٦ ذراعاً — انظر السيوطى ج ٢ ص ١٥٥— ١٦٢ — المقريزى إغاثة الأمة ص ١٤ .

(٤) سفر نامة ص ٥١

(٥) « « ص ٥٢—٥٤

(٦) الخطط ج ١ ص ٤٧٦

(٧) انظر ناصر خسرو سفر نامة ص ٥١

وفى تاريخ لايمكن تحديده بالضبط بعد سنة (٤٨٠ هـ ــ١٠٨٧ م) أدخل تعديل آخر على الاحتفال وهو موكب تخليق المقياس الذى كان يقام قبل الاحتفال بكسر السد . فقد وصف ابن الطوير (قرن ٧ هـ — ١٣ م) ونقل عنه المقريزى [١] حفلات الوفاء فى عهد الفاطميين وذكر أن قراء الحضرة وغيرهم يجتمعون فى جامع المقياس ليلة الوفاء حيث يختمون القرآن . وفى الصباح يحضر الخليفة لتخليق المقياس . ولم يحدد ابن الطوير سنة معينة ، ولكن لما كان جامع المقياس قد بنى حوالى سنة ٤٨٠ هـ [٢] فيكون الاحتفال بالتخليق بعد هذه السنة . وعلى أى حال فإن ناصر خسرو — وقد ظل بمصر حتى سنة ٤٤٢ هـ — لم يشر إلى تخليق المقياس .

وأول من ذكر تاريخاً محدداً لاحتفالات التخليق ، ابن المأمون الذى نقل عنه المقريزى فيصف موسم الوفاء فى سنة ٥١٦ بقوله : « وفى صبيحة هذا الموسم خلع على ابن الرداد وعلى رؤساء المراكب وغيرهم وحمل إلى المقياس يرسم المبيت وركوب الخليفة بتجمله ومواكبه إلى السكرة ما فصله وبينه مما يطول ذكره [٣] » كما يؤكد تخليق المقياس سنة ٥١٧ هـ على يد الخليفة الآمر وبحضور المأمون البطائحى فيقول [٤] : « فلما وفى النيل ستة عشر ذراعاً ركب الخليفة والوزير إلى الصناعة بمصر ورميت العشاريات بين أيديهما ثم عديا فى إحداها إلى المقياس وصليا ونزل الثقة صدقة بن أبى الرداد منزلته وخلق العمود [٥٠١] » .

وفى رجب سنة ٥١٨ هـ قام المأمون البطائحى بتخليق المقياس ، فى حين أن الآمر هو الذى رأس احتفال كسر السد فى هذا العام [٥] .

يدل على أن الخلفاء كانوا يهتمون بكسر السد أكثر من اهتمامهم بتخليق المقياس ، كما يتبين مما ذكره ناصر خسرو والمقريزى أن الاحتفال بقطع السد أفخم وأروع من الاحتفال بتخليق المقياس ، حيث يحضره العامة والخاصة وينال الشعب فيها من بر الخليفة الكثير .

---

(١) الخطط ج ١ ص ٤٧٦

(٢) على مبارك الخطط التوفيقية ج ٥ ص ١٢٢

ويرى الأستاذ بوبر Popper أنه بنى سنة ٤٨٥ هـ ١٠٩٢ م op. cit. p. 73 ويذكر ابن دقماق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١١٥ عن مسجد المقياس » وعمره الأفضل ابن أمير الجيوش بدر » ولكن سنة انشائه غير مذكورة ومكانها بياض فى الأصل .

(٣) المقريزى الخطط ج ١ ص ٤٧٠

(٤) « الخطط ج ١ ص ٤٧١—٤٧٢

(٥) « الخطط ج ١ ص ٤٧٣—٤٧٤

ومنذ ذلك الحين حتى آخر عهد الفاطميين على الأقل ، صار الاحتفال بموسم الوفاء على النحو الآتى :

فى ليلة الوفاء يجتمع قراء الحضرة والمتصدرون بجوامع القاهرة ومصر فى جامع المقياس حيث يختمون القرآن . وفى صبيحة يوم الوفاء يخرج الخليفة إلى المقياس لتخليقه بالمسك والزعفران .

وقد وصف المقريزى [1] عملية التخليق بقوله : « يدخل الوزير ومعه الاستاذون بين يدى الخليفة إلى الفسقية (فسقية المقياس) ، فيصلى هو والوزير ركعات كل واحد بمفرده . فإذا فرغ من صلاته أحضرت الآلة التى فيها الزعفران والمسك فيديفها بيده بآلة ويتناولها صاحب بيت المال فيناولها لابن أبى الرداد فيلقى بنفسه فى الفسقية وعليه غلالة وعمامة ، والعمود قريب من درج ، الفسقية فيتعلق به برجله ويده اليسرى ويخلقه بيده اليمنى ، وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرءون القرآن نوبة بنوبة ... ويكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحاً بوفاء النيل » .

وفى اليوم الثانى يتوجه ابن أبى الرداد إلى القصر ليتسلم الخلعة المقررة له ، ويخرج فى موكب كبير من باب العيد شاقاً بها بين القصرين من أوله قصدا لإشاعة ذلك ، فإن ذلك من علامة وفاء النيل ، ولأهل البلاد إلى ذلك تطلع [2] ثم يعود إلى المقياس .

وثالث يوم التخليق أو رابعه [3] يكون الاستعداد لكسر الخليج قد تم ويخرج الخليفة فى موكبه الفخم . وقد وصف ناصر خسرو والمقريزى ما كان يجرى فى هذا الاحتفال مما يعطينا صورة للروعة والأبهة التى كان يمتاز بها ، كما كان ميداناً للشعراء لإظهار براعتهم بين يدى الخليفة .

وقد جرت العادة فى أعياد الوفاء أن يكتب إلى العمال فى الجهات المختلفة ، البشارات التى كان كتاب الإنشاء يتبارون فى تدبيجها ، فيقول القلقشندى [4] : « وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية لايشاركها فيها غيرها من الممالك . ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النيل وإظهاراً للسرور بوفائه الذى يترتب عليه الخصب المؤدى إلى العمارة وقوام المملكة وانتظام أمر الرعية . وقد كان للخلفاء الفاطميين القائمين بأمر الديار

(١) المقريزى الخطط ج ١ ص ٤٧٦
(٢) « الخطط ج ١ ص ٤٧٧
(٣) المقريزى الخطط ج ١ ص ٤٧٧ — القلقشندى صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٦
(٤) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨

المصرية بذلك كبير العناية ووافر الاهتمام وكانت عادتهم فى ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء النيل كتباً مفردة ، ويفتح الخليج وهو المعبر عنه فى زمامنا بالكسر كتباً مفردة » .

وفى عهد الآمر أضيف إلى احتفالات الوفاء ، احتفال جديد بكسر سد بحر أبو المنجا ، فيقول المقريزى [1] : « ولما ولى المأمون البطائحى وزارة الآمر بأحكام الله بعد الأفضل تحدث الآمر معه فى رؤية فتح هذا الخليج وأن يكون له يوم كخليج القاهرة ، فندب الآمر معه عدى الملك أبا البركات بن عثمان وكيله وأمره بأن يبنى على مكان السد منظرة متسعة تكون من مجرى السد ، وشرع فى عمارتها بعد كمال النيل . وما زال يوم فتح هذا البحر يوماً مشهوداً إلى أن زالت الدولة الفاطمية » .

ويذكر القلقشندى [2] «أنه كان محدداً لقطع سد أبو المنجا يوم عيد الصليب » ، ثم استقر الحال على أن يقطع يوم النيروز فى أول يوم من توت حرصاً على رى البلاد ». وهو وإن لم يذكر متى تم هذا التغيير ، إلا أنه لم يحدث إلا بعد القرن السادس الهجرى على الأقل فابن مماتى [3] (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) يذكر أن هذا البحر يقطع عند الصليب ، كما أن المقريزى يقول [4] « إن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قطع سد أبو المنجا فى ١٩ من شوال سنة ٥٩٢ هـ وهو يوافق ١٧ توت أى عيد الصليب فى هذا العام » .

وقد عنى الأيوبيون بدورهم بهذه الاحتفالات . ومما ذكره القلقشندى والمقريزى يمكننا القول إنهم فى أول الأمر كانوا — مثل الفاطميين — يقطعون سد الخليج فى يوم آخر عند يوم التخليق ، وإن لم يتقيدوا بأن يكون يوم فتح السد ثالث أو رابع يوم التخليق. فالمقريزى[5] يروى أن صلاح الدين ركب لتخليق المقياس يوم ١٧من ربيع الأول (٢٧ مسرى) وفتح الخليج فى رابع ربيع الآخر . ولكن يظهر أنهم فيما بعد صاروا يخلقون المقياس ويقطعون السد فى يوم واحد ، كما أنه لم يعد من المحتم ركوب السلطان لذلك بنفسه [6] .

وكان الأيوبيون يحتفلون بكسر سد أبى المنجا بحضور السلطان نفسه ، فيقول المقريزى : «وفى تاسع عشرة يعنى شوال سنة ٥٩٢ كسر بحر أبى المنجا وباشر الملك العزيز عثمان كسره » .

---

(١) الخطط ج ١ ص ٤٨٨

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٦

(٣) قوانين الدواوين ص ٢٠٦

(٤) الخطط ج ١ ص ٦٠

(٥) السلوك ج ١ القسم الأول ص ٧٣

(٦) القلقشندى صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧

وظلت أعياد الوفاء فى عهد المماليك من أكبر أعياد البلاد وأفخمها ، ولو أن السلاطين لم يهتموا كثيراً بحضور هذه الاحتفالات ، وكانوا ينيبون عنهم من يحضره ، فيقول السيوطى [1] : « وقال المقريزى فى سنة ٧٨٥ ركب السلطان الملك الظاهر برقوق حتى خلق المقياس وفتح الخليج بحضرته على العادة . ولم يعهد بعد الملك الظاهر بيبرس ملك ركب حتى خلق المقياس وفتح الخليج سوى الظاهر برقوق . وكذا قال الحافظ ابن حجر فى — أنباء القمر — واستمر الظاهر برقوق يركب إلى المقياس وكسر الخليج فى كل سنة مدة ولايته ، وركب ولده الملك الناصر فرج كذلك فى سنة ٨٠٧ وفى سنة ٨١١ . وركب الملك المؤيد شيخ لذلك فى سنة ٨١٦ أول ماتسلطن ثم استمر يركب إلى أن مات . ثم لم يركب له سلطان إلى سنة ٨٣٣ فركب الملك الأشرف برسباى لذلك ، ثم لم يركب له إلى أن مات ولا أحد من السلاطين بعده إلى أيام الملك الظاهر خشقدم ركب له فى ولايته بعض سنين . ولم يركب له سلطان عصرنا [2] » .

كما أصبح تخليق المقياس وكسر السد يتم فى يوم واحد [3] .

أما سد بحر أبو المنجا فقد أهمل الاحتفال بكسره ، فيذكر المقريزى [4] « وقد تلاشى فى زمامنا أمر الاجتماع فى يوم فتح سد بحر أبى المنجا وقل الاحتفال به لشغل الناس بهم المعيشة » .

وقد أعطانا أبو السرور البكرى الصديقى صورة لحفلات الوفاء فى العهد العثمانى فيقول [5] : « وأما فى الدولة العثمانية أيدها الله تعالى ، فيركب بكاربكى مصر من الصباح من القلعة وينزل إلى بولاق للمراكب المزينة — التى أعدت له والصناجق بمراكبها والأمراء تجاه الترسخانات فينزل هناك بها ويقلع من المراكب التى هو بها ويقلع خلفه جميع الصناجق بمراكبها والأمراء ويضربون المدافع العديدة . ولا يزال سائراً من بحر مصر القديمة إلى المقياس بالروضة وذلك حين يبقى لوفاء البحر دون عشرين إصبعاً ، ويجلس بالمقياس المذكور إلى أن يفى البحر الستة عشر ذراعا وإن رأى

---

(١) كوكب الروضة — نسخة دار الكتب رقم ٢٦٣ ص ٨٥

(٢) انظر أيضاً ابن دقماق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » جـ ٤ ص ١١٥ ، السخاوى التبر المسبوك ص ١١ وما بعدها .

(٣) ابن دقماق المرجع السابق جـ ٤ ص ١١٥ — قلقشندى المرجع السابق جـ ٣ ص ٥١٦ ، جـ ٨ ص ٣٢٨ .

(٤) الخطط جـ ١ ص ٤٨٨

(٥) قطف الأزهار من الخطط والآثار ص ٨ب ، ٩ أ .

حظا جلس بعد الوفاء اليوم واليومين ويجعلون الحراقات والعرايش النفيسة ويقع من القصف واللهو مالا يحصر .

وفى يوم إرادة البكربكى فتح السد يحصل سماط عليها قبل طلوع الشمس للصناجق والجاويشية والمتفرقة وغيرهم من العساكر ، ويكون عنده قاضى مصر إذ ذاك . وحين الفراغ من السماط يخلع على كاشف الجيزة وابن الخبير شيخ عربان الجيزة وكذلك كاشفها وعلى صفر باشا مصر ووالى بولاق ومصر القديمة وأمين الشون وحجبى باشا وأمين البحرين وأمين الخضراء وناظر الحسبة وعلى أمين الخردة . ثم ينزل هو وقاضى عسكر مصر وجميع الصناجق تضرب إلى أن يأتى السد فينثنى ثم يصعد من السد إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً » .

ولما فتح الفرنسيون مصر أرادوا ان يتألفوا الشعب فشاركوه احتفالاته وبالغوا فيها ، ويصف [1] على باشا مبارك الاحتفال بوفاء النيل سنة (١٢١٣هـ - ١٧٩٨ م) وقد حضره نابليون ومعه قواده والكيخيا والباشا وأعضاء الديوان وتوجه إلى المقياس الساعة السادسة صباحاً حيث أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى ثم قطع الجسر ونثر النقود على الناس . وقد ظل هذا النظام متبعاً حتى جلائهم عن مصر . ويصف [2] لنا أيضاً نظام هذا الاحتفال فى سنة (١٢٩١ هـ - ١٨٧٤ م) أى فى زمنه هو، وأنه عندما بلغ النيل فى مقياس الروضة ١٥ ذراعاً وبعض أصابع حررت المحافظة ثلاث خطابات ، الأول لديوان الأشغال يعين يوم الوفاء ونظام الموكب واشتراك الطوائف المختلفة فيه . والخطاب الثانى إلى ديوان الانجرارية لتزيين العقبة والثالث لشيخ المنادين لإعلان الناس بيوم الوفاء .

وفى ليلة الوفاء تتوجه العقبة والسفن التابعة لها وخلفهم ذهبيات الخلق إلى فم الخليج حيث يكون هناك خيام لجميع الدواوين والأمراء والقناصل ووجوه الناس ، ويظل الناس فى احتفال حتى الصباح حيث يصدر الأمر بقطع السد ويكون ذلك بحضرة الخديوى أو من ينوب عنه .

ومن الملاحظ أن عادة تخليق المقياس لم تعد تذكر منذ عهد العثمانيين [3] إلا أن طابع الفخامة ما زال هو السائد فى احتفالات الوفاء طيلة العهود المختلفة .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٨ ص ٣٤

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٨ ص ٣٤

(٣) يرى بوبر Popper أن الترك أبطلوا عادة تخليق المقياس. Op. Cit. p: 73.

الفصل الثانى

النظم الاقتصادية

تمهيـــد

قل أن نجد أمة ارتبطت حياتها بنهرها ارتباطاً وثيقاً مثلما ارتبطت مصر بالنيل فهو لها بمثابة الروح من الجسد ، فطالما يجرى بين ربوعها نجد الخصب والنماء والثروة ونجد حياة متجددة وخيراً عميماً . فإذا أعرض عنها وقصر فى الفيضان انقلبت هذه الصورة المشرقة إلى أخرى كئيبة حزينة فصار الخصب جدباً والشبع جوعاً والرى عطشاً .

والنيل يجرى فى أكثر من بلد ولكنه يخص مصر بما لا يخص به غيرها فكادت أن تنفرد بكل مزاياه ، ويصف ابن فضل الله العمرى فضل النيل على مصر فيقول ١ : « ساقه الله تعالى إلى مصر وأحيا به بلدة ميتا وسقاه أمة عظمى وإن لم تكن هى المتفردة بنفعه فإنها كالمنفردة به » .

ولقد كان نهر النيل خيراً وبركة على مصر فى جميع نواحى حياتها فإلى جانب أنه وهبها جزءاً كبيراً من الأرض كانت من قبل تغمره مياه البحر ، وهو الدلتا ، فهو قد ربط بين أجزائها مما ساعد على قيام وحدة سياسية واجتماعية ، كما كان من الناحية الاقتصادية العامل الوحيد فى ازدهار اقتصادها الذى ظل إلى اليوم يقوم على الزراعة ، وهذه بدورها تتوقف كلية على ماء النيل لندرة المطر ٢ بها . ولقد أحس المصريون بكل بذلك منذ استقروا على ضفافه واستطاعوا أن يلعبوا دورهم بنجاح فى الانتفاع بما يقدم لهم من أسباب الحياة ، أو كما يقول استرابون : « أحسنوا استغلال حسن طالع بلادهم » . فقسموا الأرض إلى مساحات وحدتها الفدان ٣ وقد قدر العرب

---

(١) « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ج ١ ص ٦٧

(٢) يقول صاحب « الاستبصار فى عجائب الأمصار » ص ٥٠ قيل إن مصر لم يجعل الله فى أرزاق أهلها ولا فى أقواتهم نصيباً مما قسم على عباده من الرحمة بالغيث الذى جعله الله عمارة البلاد » .

(٣) استرابون ص ٤٦ وانظر عمر طوسون « مالية مصر » ص ١٩٧

مساحته بأربعمائةقصبة حاكمية أى عشرة آلاف ذراع نجارى وقدره هيرودوت [1] بنفس المقدار من الأذرع المصرية . ثم هم شقوا الترع وأقاموا الجسور فى الجهات المختلفة لضمان رى البلاد ، فعندما يتم فيضان النيل تفتح الترع وتقطع الجسور فى أوقات محددة لكل منها وفى أماكن معلومة حتى تروى الأرض ثم يصرف الباقى إلى البحر .

ويتوقف مقدارما يزرع من الأرض على مبلغ الزيادة وقت الفيضان . ويلاحظ أن كلامن الفيضان المقصر والفيضان المرتفع جداً مضر بالزراعة فالأول لايروى كل الأرض الصالحة للزراعة والثانى يؤدى إلى استبحار الأراضى المنخفضة فيبقى الماء فيها حتى يفوت موعد الزراعة ، وفى كلا الحالين تنقص رقعة الأرض المنزرعة . وكانت الفيوم هى المنطقة الوحيدة التى لا تعتمد على مياه الفيضان بل كانت تروى طيلة العام وبذلك أمكن زراعتها أكثر من مرة .

ومياه الفيضان إلى جانب أنها تغمر الأرض فتروى ظمأها ، فإنها تجدد خصبها كل عام بما تحمله من طمى . ويعلل البغدادى سبب خصوبة أرض مصر بقوله [2] : «إن أرضها رملية لاتصلح للزراعةلكنه يأتيها طين أسود علك(٣) فيه دسومة كثيرة يسمى الإبليز [3] يأتيها من بلاد السودان مختلطاً بماء النيل عند مده ، فيستقر الطين وينضب الماء فيحرث ويزرع وكل سنة يأتيها طين جديد ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شىء منها كما يفعل فى العراق والشام . ولهذه العلة تكون أرض زكية كثيرة الإتاء والريع إذ كانت أقرب إلى المبدأ فيحصل فيها من هذا الطين مقدار كثير بخلاف أسفل الأرض فإنها أسافة مضوية [3] إذ كانت رقيقة ضعيفة الطين لأنه يأتيها الماء وقد راق وصفا » .

ونتيجة لهذا الترسيب السنوى للطمى الذى يحمله النيل ، ارتفع سطح الأرض عاماً بعد عام ، لذلك تغير ارتفاع النيل المناسب للرى من فترة لأخرى ، فكلما تقدم الزمن صارت الحاجة ماسة إلى فيضان أعلى [4] .

---

(١) استرابون فى مصرص ٤٦ الهامش .

القصبة الكاملة كما يذكر القلقشندى جـ ٣ ص ٤٤٦ = ٦ أذرع بالهاشمى ٥ أذرع بالبحارى ٨ أذرع بذراع اليد

ذراع اليد = ٢٤ إصبع

(٢) الإفادة والاعتبار ص ٦

(٣) الابليز : من بلز وامرأة بلز أى ضخمة مكتنزة — علك : لزج

أسافة مضوية : أى أرض رقيقة ضعيفة لا تكاد تنبت شيئاً انظر اللسان .

(٤) فى زمن هيرودوت مثلاً كان الارتفاع المطلوب ١٤ أو ١٥ ذراع ، وكان قبل ذلك=

ويذكر القضاعي [1] أنه عند الفتح العربي لمصر كان الارتفاع المناسب للفيضان حتى تخصب الأرض وتكفي أهلها ستتين هو ستة عشر ذراعاً [2] .

ولكن بعد الفتح بثلاثة قرون يذكر المسعودى [3] أن هذا القدر يكفى الناس وإن ترك ربع الأرض ظامئة [4] ، وأن الزيادة النافعة هى سبعة عشر ذراعاً فى حين أن زيادة ذراع آخر ضارة لأنها تسبب استبحار بعض الأراضى فلا يمكن زراعتها .

وبعد ذلك بأقل من ثلاثة قرون أخرى نجد الأمر يستلزم بلوغ النيل ثمانية عشر ذراعاً حتى يروى جميع الأرض [5] .

وأخذت الحالة تسوء حتى أصبحت الأرض فى أوائل القرن التاسع الهجرى (١٥ م) لا تروى إلا من الذراع العشرين . وفى ذلك يقول المقريزى [6] : « وكنا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين ذراعاً فاض ماء النيل وغرق الضياع والبساتين وفارت البلاليع ، وها نحن فى زمن منذ كانت الحوادث بعد سنة ٨٠٦ إذ بلغ الماء فى سنة إصبعاً من عشرين لا يعم الأرض كلها لما قد فسد من الجسور » . بل إنه فى النصف الثانى للقرن العاشر نجد قاضى المنزلة بعد ذكره كلام المقريزى المتقدم يقول [7] : « وأنا شاهدته قد بلغ أصابع من اثنين وعشرين ذراعاً وما تضرر أحد » .

أما فى القرن الحادى عشر الهجرى أصبح الارتفاع المطلوب لرى البلاد ثلاثة وعشرين ذراعاً [8] .

=بسبعمائة عام يكفى لرى البلاد ثمانية أذرع فى حين أن هذا القدر كان يسبب القحط فى عهد سترابون انظر هيرودوت فى مصر ص ٣١ – استرابون فى مصر ص ٤٦

(١) انظر القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٢٩٣ – المقريزى الخطط جـ ١ ص ٥٩

(٢) كان هذا القدر فى القرن الخامس الميلادى يسبب خسائر فادحة – انظر أمين باشا سامى تقويم النيل جـ ١ ص ٨١ .

(٣) مروج الذهب « جـ ٢ ص ٣٦٢ »

(٤) يذكر المقريزى (إغاثة الأمة ص ١٢–١٣) أن من أسباب الغلاء الذى حدث فى عهد كافور هو بلوغ النيل سنة ٣٥٤ هـ ١٦ ذراعاً وأصابع وقال إن النيل إذا بلغ هذه الزيادة يعد قاصراً – وهذا يخالف ما ذكره المسعودى وإن كنا نرجح أقوال المسعودى لأنه أقرب عهداً .

(٥) الإدريسى « صفة المغرب » ص ١٤٤ – البغدادى « الإفادة والاعتبار » ، ص ٤٤

(٦) الخطط جـ ١ ص ٥٩ وانظر أيضاً المنوفى « الفيض المديد » نسخة إسكندرية ص ٧٤

(٧) مخطوطه « عجائب الأخبار عن مصر الأمصار » الأزهر ص ٧٩ أ – وقاضى المنزلة يعرف باسم القاضى معروف بن أحمد انظر فصل المخطوطات .

(٨) أبو السرور البكرى « الكواكب السائرة » نسخة بلدية إسكندرية المصورة ص ١٣٤

وفى الحقيقة لم يكن ارتفاع الأرض هو السبب الوحيد الذى أدى إلى تغير قانون الرى إذ إنه بطبيعة الحال كان يقابل ارتفاع الأرض الزراعية ارتفاع فى مجرى النهر نفسه نتيجة الترسيب [١] . ومن هذه الأسباب الأخرى إهمال الجسور وعدم العناية بالخلجان والترع [٢] .

ومع ذلك كان خصب مصر مضرب الأمثال حتى فى أسوأ عهودها وإهمال الحكام لهـــا .

وقد قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة » [٣] . وروى [٤] عن عبد الله ابن عمرو « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » . كما سماها العرب «سلة الخبز» . ويذكر المقريزى [٥] عن فضائلها « إنها تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم ، ومصر فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها . وأهلها يستغنون بها عن كل بلد حتى أنه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد » .

وقد أطنب الكتاب العرب كثيراً فى وصف ثروة مصر الزراعية ، مع أننا إذا تتبعنا ما ذكروه نلمس ما طرأ على البلاد من انحطاط فى اقتصادها نتيجة للمظالم التى تعرض لها الشعب والإهمال الذى أصاب مرافق البلاد . وكان العرب دائماً يقارنون بين ما كانت عليه مصر من ثراء قبل الفتح وما أصابها من محن بعده .

فيصف ابن عبد الحكم البلاد تحت حكم الفراعنة فيذكر [٦] : « وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره فى الجانبين جميعاً ما بين أسوان ورشيد .... وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما قدروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها » .

ويروى المقريزى [٧] « أنه بلغ من عمارة البلاد أن أحد الفراعنة أرسل ويبة قمح إلى أسفل الأرض والصعيد فلم توجد أرض فارغة تزرع فيها » .

---

(١) قدر Popper الارتفاع السنوى فى مجرى النيل بمقدار ٩,٢٢ بوصة أى ٢٣ سم ويذكر أن عمر طوسون قدره بـ ١٣ سم أى ٥,١١ بوصة — أنظر Popper Op. cit. p. 224

(٢) يؤيد ذلك أنه فى عهد محمد على كان يكفى للرى لا سيما فى الوجه البحرى ١٧ ذراعاً وربع نظراً لكثرة الترع التى حفرها — انظر رفاعة الطهطاوى أنوار توفيق الجليل ص ٣٠

(٣) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٢٧

(٤) ابن عبد الحكم « فتوح مصر » ص ٥

(٥) الخطط جـ ١ ص ٢٨

(٦) فتوح مصر ص ٦

(٧) الخطط جـ ١ ص ٧٤

وعندما فتح العرب مصر ، كانت البلاد لا تزال تفيض بالثراء برغم المظالم التى عناها أهلها تحت حكم الرومان . ولكن سرعان ما دخلت فى دور انهيار اقتصادى فأخذت القرى تخرب والأرض تجدب ، حتى أن عمرو ابن العاص فى كتاب له لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يشير إلى ذلك ويقارن بين عناية الفراعنة وإهمال العرب وأنهم (أى الفراعنة) « كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام [1] » .

ولإهمال مرافق البلاد وانهيار اقتصادها أسباب كثيرة منها :

ا — الظروف السياسية التى مرت بها مصر ، وكثرة تغير الحكام عليها ، فلم يتمكنوا لقصر مدتهم العناية بشئونها ، بل انصرف هم أغلبهم إلى تحقيق مطامعهم الشخصية على حساب الصالح العام [2] ، خصوصاً وأن كثيراً منهم كان نائباً عن الوالى المعين الذى آثر البقاء فى دار الخلافة وإرسال من ينوب عنه فى حكم البلاد (٢) .

ب — الشدائد التى تعرض لها الأقباط فى بعض الأوقات ، وفى ذلك يقول المقريزى [3] : « ولما ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان اشتد على النصارى واقتدى به قرة بن شريك أيضاً فى ولايته على مصر وأنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها ... وفى سنة ٢١٦ انتقض القبط فأوقع بهم الأفشين حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبى أكثرهم . ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر » . ولا شك أن لهذه الشدائد فى بعض الأوقات أثراً فى انصراف المصريين عن العناية بالأرض والزراعة .

---

(١) المقريزى المرجع السابق ص ٧٨

(٢) ونظرة سريعة فى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى يتضح أن عدد الولاة الذين حكموا مصر فى المدة من الفتح حتى آخر عهد الأمويين أى فى حوالى مائة عام ٣٢ والياً — وفى عهد العباسيين حتى زمن ابن طولون أى فى مدة مائة سنة أخرى تولاها ٧٨ .

وفى ذلك يقول على مبارك فى كتابه « نخبة الفكر » ص ١٢ « استولى المسلمون على مصر سنة ٦٤٢ م وصارت ولاية يحكمها عامل من طرف خليفة المسلمين فلم ينقلها هذا التقلب عن أحوالها وأهوالها بل سار فيها عمال المسلمين على سير عمال الرومانيين من غير أن يراعوا قواعد الشريعة الغراء الراجعة إلى العدل والإنصاف والرفق بالرعية بل تفنن كل عامل فيما يحدثه من البدع ومن قصر مدة العامل أهملت التدابير الداعية إلى نمو الأرزاق وعمار البلاد واستقل كل عامل بمنافع نفسه وحاشيته من دون أن يلتفت إلى المصالح العمومية — أنظر ايضاً « فى مصر الأسلامية » إخراج الدكتور زكى محمد حسن وآخرون المقدمة ص . ح ، ص د وص ١٠ وص ١٢ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٩٢ .

جـ — كثرة الضرائب المختلفة التى فرضت على أهل البلاد .

د — قصور النيل فى سنين كثيرة وتعرض البلاد لمجاعات طاحنة ووباء قضى على كثير. من أهلها . كما دفعت هذه المجاعات أهل الريف إلى ترك القرى والهجرة إلى المدن الكبرى بل وإلى خارج البلاد [1] . فقلت الأيدى العاملة ولم تجد الأرض من يزرعها . ويصف ابن إياس حال الأرض بعد الغلاء الذى حدث فى عهد الملك العادل أبى بكر (سنة ٥٩٧ هـ ١٢٠٠ م) ومكث ثلاث سنوات فيقول [2] : « كان النيل إذا طلع لم يجد من يزرع الأراضى فكانت الترك تخرج بنفسها يحرثون ويزرعون بأيديهم ويبذرون فى الأرض الغلال لعدم وجود الفلاحين » .

هـ — وازدادت الحالة سوءاً منذ قسمت البلاد إلى إقطاعات بين الأمراء والجند وأصبح الفلاح قناً ترتبط حريته بالأرض التى يعمل فيها وصار صاحب الإقطاع لا هم له إلا جباية ما يستطيع جبايته دون أى اهتمام أو عنايته بالأرض وتطهير للترع وصيانته للجسور . ويذكر القلقشندى [3] : « وقد أهمل الاهتمام بأمر الجسور فى زماننا وترك عمارة أكثر الجسور البلدية واقتصر فى عمارة الجسور السلطانية على الشىء اليسير الذى لا يحصل به كبير نفع ».

و — ويمكننا أن نضيف سبباً هاماً آخر وهو الصراع الذى نشب فى عصور مختلفة بين القوى العسكرية المختلفة التى تنافست فى محاولة السيطرة على الحكم من أتراك وعرب وسودانيين وغيرهم [4] —.

ويقارن المقريزى بين ما كانت عليه مصر عند الفتح وما صارت إليه ، فيقول [5] : « بين مشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس وبين آخر ما يشرب من خليج الإسكندرية مسيرة شهر كان عامراً كله فى محلول ومعقود إلى ما بعد الخمسين وثلثمائة من الهجرة (٩٦١ م) وقد خرب معظم ذلك » .

كما أن مقارنة بين عدد قرى مصر فى العصور المختلفة تدلنا على ما وصلت إليه البلاد من تدهور ففى العهد الأموى كان عدد القرى أكثر من عشرة آلاف قرية [6] ثم نقص عددها حتى صار فى سنة ٣٤٥ هـ (فى ولاية أنوجور بن الإخشيد) ٢٣٩٥ قرية ،

---

(١) البغدادى « الإفادة والاعتبار » ص ٤٩

(٢) بدائع الزهور المطبعة الأميرية ص ٧٦

(٣) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٩

(٤) انظر « فى مصر الإسلامية » ص ٢٠

(٥) الخطط جـ ١ ص ١٧١

(٦) المقريزى — الخطط جـ ١ ص ٧٣-٧٤ — وابن عبد الحكم المرجع السابق ص ١٥٦

وفى زمن الملك الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١ هـ – ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) أصبحت ٢٢٧٠ قرية ١ .

وليس معنى ذلك أن الإهمال قد أصاب مرافق البلاد فى كل العصور ، ففى بعض العهود بذل أولو الأمر عنايتهم بعمارة البلاد وحفر ترعها وإقامة جسورها ، كما حدث فى زمن أحمد ابن طولون الذى عم الرخاء فى عهده حتى كان القمح كل عشرة أرادب بدينار ٢ .

ولا يفوتنا أن نذكر ذلك المشروع الهائل الذى فكر ابن الهيثم فى إقامته فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى وهو إنشاء خزان جنوب أسوان أى مكان خزان أسوان الحالى تقريباً . وقد رحب الحاكم بهذا المشروع واستدعى ابن الهيثم ولكن الأخير عجز عن إتمام مشروعه ٣ .

ولقد أعجب ناصر خسرو الرحالة الفارسى بما رآه فى مصر من ثراء والدكاكين المملوءة ، بالذهب والأمتعة . وقد دهش من كثرة محصولاتها وتعدد أنواعها فى وقت واحد ، ويظهر أنه خشى اتهامه بالمبالغة فيقول ٤ : « وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها شتوى لا يصدق هذا . ولكن ليس لى قصد فيما ذكرت ولم أكتب إلا ما رأيت » .

وذكر ابن مماتى ٥ والقلقشندى ٦ من محاصيل البلاد وحيوانها ما يدل – بالرغم مما حل بها – على أنها ما زالت من أخصب بلاد الدنيا وأغناها .

كما قال فيها أحد الرحالة : « طفت أكثر المعمور من الأرض فلم أر مثل ما بمصر من ماء طوبة ولبن أمشير وخروب برمهات وورد برمودة ونبق بشنس وتين بؤنة وعسل أبيب وعنب مسرى ورطب توت ورمان بابة وموز هتور وسمك كيهك » (٦) .

---

(١) قاضى المنزلة مخطوطه « عجائب الأخبار عن مصر الأمصار » نسخة الأزهر ص ٧ ب

(٢) مقريزى خطط جـ ١ ص ٩٩

(٣) هو أبو على محمد (وفى رواية أخرى الحسن) بن الحسن بن الهيثم (٣٥٤- ٤٣٠هـ ٩٦٥-١٠٣٩ م) طبيب عربى وعالم من أعلام الرياضة والطبيعيات . وقد نقل للحاكم عنه أنه قال : « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال هو فى طرف الإقليم المصرى » . ابن أبى أصيبعه – عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٩٠ وانظر أيضاً E.I.

(٤) سفر نامة ص ٦٠ ، ٦٢

(٥) قوانين الدواوين ص ٢٣٤ وما بعدها (٦) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣١١ وما بعدها .

أولاً – النظم الزراعية :

ذكرنا أن الزراعة تتوقف على فيضان النيل وغمره للأرض حتى إذا تراجع وأخذت الأرض تجف بذرت البذور وينمو الزرع بدون حاجة إلى رى بعد ذلك .

ولما كان الفيضان يأتى فى فصل معين من السنة ، وهذه الفصول أساسها جريان الشمس فى فلكها ، فقد أنشأ المصريون القدماء التقويم الشمسى والسنة الشمسية [1] التى تتكون من ٣٦٥ يوماً وربع اليوم .

وقد جعلوا بداية سنتهم أول الخريف عندما يبلغ النيل غايته ، وقسموها إلى ثلاثة فصول هى : « الفيضان (أخت) والزرع (برت) والحصاد (شمو) وقسم كل فصل إلى أربعة شهور أعطيت فى أول الأمر أرقاماً ثم أطلق عليها منذ العصر الفارسى (حوالى القرن السادس ق . م) أسماء هى التى لا زالت باقية فى شهور السنة القبطية وهى : « توت وبابه وهاتور وكيهك لفصل الفيضان وطوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة لفصل الزرع وبشنس وبؤونة وأبيب ومسرى لفصل الحصاد ، واشتق اسم كل شهر من العيد الرئيسى الذى كان يحتفل به خلاله . وكانت عدة أيام كل شهر ثلاثين يوماً فأضافوا خمسة أيام وهى أيام النسىء [2] » .

ولما كان هناك ارتباط وثيق بين الفصول وبين السنة الشمسية ، لذلك حرص الفلاح المصرى بعد الفتح الإسلامى – وحتى اليوم – على استعمال التقويم الشمسى فى معرفة مواسم الزراعة والحصاد وجباية الخراج . وقد عرف هذا التقويم بالتقويم القبطى .

ولذلك نجد أن العرب كانوا يستعملون فى تأريخهم للحوادث التقويم الهجرى (أو القمرى) ولكنهم فى نفس الوقت كانوا مضطرين فى الشئون المالية والزراعية إلى استعمال التقويم الشمسى ، فنى النداء على النيل مثلاً كانوا يذكرون التاريخ القبطى وما يقابله من التاريخ الهجرى .

ويقول المقريزى [3] : « ولما رأى المسلمون تداخل السنين القمرية فى السنين الشمسية

---

(١) يقول المقريزى فى الخطط ج ١ ص ٢٧٠ : أعلم أن المصريين القدماء اعتمدوا فى تأريخهم السنة الشمسية ليصير الزمان محفوظاً وأعمالهم واقعة فى أوقات معلومة من كل سنة لا يتغير وقت عمل من أعمالهم بتقديم ولا تأخير السنة .

(٢) الدكتور نجيب ميخائيل « تاريخ مصر » ص ٢٥ – وشهر النسىء فى الواقع ٥¼ يوم ولذلك فنى نهاية كل أربع سنوات يكون شهر النسىء سته أيام .

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٧٣

أسقطوا عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قمرية سنة ، وسموا ذلك الأزدلاق لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب » .

وتبدأ السنة الزراعية والمالية فى مصر بابتداء السنة القبطية أى عندما يغمر النيل الأرض بمائة [١] ويكون ذلك نهاية لموسم زراعى سابق ، وبداية لآخر جديد . وظلت السنة الزراعية فى العهد الإسلامى — كما كانت من قبل — تنقسم إلى ثلاثة مواسم ، موسم الفيضان وفيه يغمر النيل الأرض لرى ظمئها وتجديد خصبها ، يعقبه موسم الزرع عندما يتراجع النيل وتجف الأرض ، وأخيراً موسم الحصاد عندما يتم نضج المحاصيل.

ويأخذ وجه الأرض فى كل من هذه المواسم أو الفصول شكلاً مميزاً عما سواه ، لذلك وصفت مصر بأنها « ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء . فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر فى شهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وأما المسكة السوداء فإن فى شهر بابة وهاتور وكيهك ينكشف عنها الماء وينضب عن أرضها فتصير أرضاً سوداء وفيها يقع الزراعات وللأرض رائحة طائبة تشبه روائح المسك وأما الزمردة الخضراء فإن فى شهر طوبة وأمشير وبرمهات تلمع بكثرة عشبها ونباتها فتصير الدنيا خضراء كالزمردة ، وأما السبيكة الحمراء فإن فى شهر برمودة وبشنس وبؤونة يبيض الزرع ويتورد العشب وهو كسبيكة الذهب منظراً ومنفعة » [٢] .

وما ذكره ابن حوقل [٣] وابن مماتى [٤] عما يتم عمله فى شهور السنة المختلفة يعتبر سجلاً دقيقاً للنظام الزراعى والمحاصيل المختلفة . كما ذكر ابن مماتى [٥] والقلقشندى [٦] والمقريزى [٧] ثلاثة عشر نوعاً من الأراضى الزراعية تختلف باختلاف طبيعتها ومعدنها وريها كما تختلف فى طريقة زراعتها وأنواع محاصيلها وقيمتها الاقتصادية .

---

(١) يقول المقريزى الخطط جـ ١ ص ٢٧٠ : وكانت عادة مصر منذ عهد فراعنتها فى استخراج خراجها وجباية أموالها أنه لا يستتم استيفاء الخراج من أهلها إلا عند تمام الماء وافتراسه على سائر أرضها ويقع تمام فى شهر توت » .

(٢) المسعودى « مروج الذهب » جـ ٢ ص ٣٥٦

(٣) صورة الأرض ص ١٣٦

(٤) قوانين الدواوين ص ٢٣٤ وما بعدها

(٥) المرجع السابق ص ٢٠١ .

(٦) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٠

(٧) الخطط جـ ١ ص ٩٩ . لم يذكر المقريزى إلا ١٢ نوعاً فقط إذ وحد بين نوعين هما الوسخ والوسخ الغالب .

ونلاحظ مما ذكره الكتاب العرب أن النظم الزراعية ظلت خلال العصور المختلفة حتى الآن لم تتغير كثيراً لا فى طريقة الزراعة ولا المحاصيل الزراعية كما أن قوة احتمال الفلاح المصرى ظلت كما هى مضرب الأمثال فى كل عصر . ويصف مؤلف « عجائب الأمصار عن مصر الأمصار » [1] قوة احتمال الفلاح المصرى بقوله : « إننى لم أرقط منذ عقلت اختلاف أحوال البرايا ولا سمعت برعايا ما زالوا من قبل دخول الملة الإسلامية إلى هذه الديار وإلى هذه العام أعنى سنة ٩٦٢ هـ أصبر على بلاء فلاحتها منهم » .

وعندما فتح العرب مصر تركوا الأرض بأيدى المصريين وظلوا هم بعيدين عن الزراعة إذ أن سياسة عمر بن الخطاب كانت تقوم على عدم صرف العرب عن الجهاد وشغلهم بأمور أخرى .

إلا أن هذه السياسة لم تدم طويلاً ، فتطلع العرب إلى الاستقرار وزراعة الأرض وكثر اندماجهم بأهل البلاد حتى غلبوهم على الأرض .

ثانياً — الضرائب :

لم يكن لدى العرب الفاتحين ، من النظم ، ما يمكن إحلاله محل النظم السائدة فى البلاد التى فتحوها ، لذلك اضطروا إلى اتباع النظم الإدارية والمالية التى كانت متبعة سابقاً فى إدارة الممتلكات الجديدة إلا فيما يتعارض مع الإسلام . بل وظلت لغة الدواوين هى لغة البلاد المفتوحة حتى عربت فى عهد عبد الملك بن مروان [2] .

وعندما استتب لعمرو بن العاص الأمر فى مصر ، فرض جزية على الرءوس إلى جانب ضريبة الأرض . وقد كانت الجزية نتيجة اتفاق بين عمرو والمصريين حتى يتم الصلح . أما الخراج أو ضريبة الأرض فقد اضطر إلى اتباع نفس النظام الذى كان متبعاً فى عهد الرومان [3] .

يقول ابن عبد الحكم [4] فى فتح حصن بابليون : « واقتحم المسلمون الحصن ، فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه فحينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو إلى ذلك » ويذكر

---

(١) ص ٦٤ أ .

(٢) يذكر المقريزى فى الخطط ج ١ ص ٩٨ : إن الدواوين عربت فى مصر فى ولاية عبد الله ابن عبد الملك سنة ٨٧ وأنه جعل على الديوان ابن يربوع الفزارى من أهل حمص » .

(٣) ابن عبد الحكم « فتوح مصر » ص ١٥٢

(٤) المرجع السابق ص ٦٣

فى موضع آخر [1] : « فكانت مصر صلحاً كلها بفريضة دينارين على كل رجل لا يزاد على أحد منهم فى جزية رأسه » .

وكانت الجزية لا تجمع إلا من الرجل العاقل البالغ ، وقد أعفى منها الصبى الصغير والشيخ الفانى والمريض العاجز والعبد كما أعفى منها الرهبان والنساء .

ومع أن ابن عبد الحكم حدد الجزية على الرأس بدينارين ، وأنها كما يقول الماوردى (٢) نص أى منصوص عليها ، إلا أنه اختلف فى تقديرها من وقت لآخر ، وحتى من الناحية الشرعية اختلف الفقهاء فى تقديرها ، « فذهب أبوحنيفة إلى تصنيفهم ثلاثة أصناف أغنياء ٤٨ درهماً وأوساط ٢٤ درهماً وفقراء ١٢ درهماً [2] [3] » . أما من الناحية التاريخية فنجد اختلافها واضح من عهد لآخر ، حتى لقد اختلف فى تقديرها فى عهد عمر بن الخطاب نفسه إذ يذكر المقريزى [4] : « إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى أمراء الأجناد ألا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى وجزيتهم أربعون درهماً على أهل الورق وأربعة دنانير على أهل الذهب » .

ولعل أول محاولة لزيادة الجزية كانت فى عهد معاوية إذ كتب إلى وردان عامل خراجه على مصر أن يزيد على كل رجل من القبط قيراطاً ، فعارضه فى ذلك قائلا : « كيف نزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم شيء [5] » .

وعبد العزيز بن مروان هو أول من فرض الجزية على الرهبان ، فقرر على كل راهب ديناراً [6] .

ويذكر ابن مماتى [7] أن الجزية فى العهد الأيوبى كانت على ثلاث طبقات « عالية ومبلغها أربعة دنانير وسدس ووسطى ومبلغها ديناران وقيراطان وسفلى ومبلغها دينار

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٢٦–١٢٨

(٣) ويقول الدكتور بتلر : وهذا أمر لا يأباه العقل ولا يرى فيه ظلماً غير أنه كان بلاشك عرضة لأن يفسد . وقد تطرق إليه الفساد فمكن الحكام أن يزيدوا مقدار الجزية ويمزقوا بذلك عهد الصلح » .

(٤) الخطط ج ١ ص ٧٦ . ويقول بتلر « فتح العرب لمصر » ص ٣٩٥ هامش (١) : ولكن يلوح أن هذا التقسيم غير مدرج .

(٥) الخطط ج ١ ص ٧٩

(٦) « « « ٢٩٢

(٧) قوانين الدواوين ص ٣٠٧

واحد وثلث وربع وجبتين ، ويضاف إلى كل جزية درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين » .

وانخفضت فى عهد المماليك حتى صار أعلاها ٢٥ درهماً وأدناها عشرة دراهم [١] . وكانت جزية البلاد الداخلة ضمن إقطاعات تذهب لصاحب الإقطاع [١] .

والمفروض أن الجزية تسقط عن أهل الذمة إذا اعتنقوا الإسلام ليحل محلها الزكاة ، ولكن بعض خلفاء بنى أمية ظلوا يفرضون الجزية على من أسلم إلى أن أبطلها عمر بن عبد العزيز وقال قولته المشهودة : « إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » .

أما وقت تحصيل الجزية فكان فى رأس كل عام هجرى أى فى شهر المحرم ، وإن حصلت فى بعض العهود فى ذى الحجة [٢] وفى البعض الآخر فى رمضان كما حدث فى عهد المماليك [٣] . هذا ويقول المقريزى [٤] : « إن بعض الكتاب القدامى كانوا يرون وجوب الجزية مشاهرة ، وفائدته فيمن أسلم أومات أثناء الحول فإنهم كانوا يلزمونه بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته » .

أما الخراج أو ضريبة الأرض فتختلف اختلافاً جوهرياً عن الجزية للأسباب الآتية :

ا – أنه بينما الجزية مفروضة على الرءوس فالخراج مقرر على الأرض .

ب – الجزية محددة فى كتاب الصلح أما الخراج فيتوقف على خصب الأرض ونوع الزرع ، والمساحة المتزرعة ، كما يتحدد مقدار الخراج على ما يراه الحاكم نفسه .

ولذلك يقول الماوردى : « الجزية نص والخراج اجتهاد » [٥] .

---

(١) القلقشندى . صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٢–٤٦٣

(٢) ابن مماتى قوانين الدواوين ص ٣٠٧

(٣) القلقشندى المرجع السابق جـ ٣ ص ٤٦٢ فيقول القلقشندى « أما الآن فقد نقصت (أى الجزية) حتى صار أعلاها ٢٥ درهماً وأدناها عشرة دراهم ولكنها صارت تستأدى معجلة فى شهر رمضان . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها فإن جزية أهل الذمة فى كل بلد تكون لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره تجرى مجرى مال ذلك الإقطاع وإن كانت تلك البلد جارية فى بعض الدواوين السلطانية كان يتحصل من الجزية من أهل الذمة بها جارياً فى ذلك الديوان .

(٤) الخطط جـ ١ ص ١٠٦

(٥) الأحكام السلطانية ص ١٢٦

جـ – تسقط الجزية شرعاً إذا اعتنق صاحبها الإسلام ، أما الخراج فلا يسقط عن الأرض سواء كانت في يد مسلم أو ذمي .

د – تدفع الجزية مالاً أما الخراج فيمكن سداده عيناً أو مالاً .

هـ – وتحصل الجزية فى أول كل عام ، أما الخراج فيحصل على أقساط تبعاً لاختلاف المحاصيل .

ومع هذه الفروق الواضحة كان من العسير فى مبدأ الأمر التفرقة بين الجزية والخراج فكانت كل من اللفظتين تؤدى معنى واحداً . فابن عبد الحكم يذكر [1] : « إن صاحب أخنا قدم على عمرو بن العاص فقال أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها ، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة لو أعطيتنى من الركن إلى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا إن كثّر علينا كثّرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم » . ولما كان مقدار الجزية محدداً فى كتاب الصلح فالذى لاشك فيه أن صاحب أخنا يعنى بالجزية هنا خراج الأرض. ولم تحدث التفرقة بين نوعى الضرائب من جزية وخراج إلا فى أواخر عهد الأمويين [2] .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر صارت الأرض فيئاً للمسلمين وملكاً للدولة [3] ، إلا أنهم أبقوها فى يد أصحابها على أن يدفعوا خراجها على ما كان عليه الأمر فى عهد الرومان ، فيروى ابن عبد الحكم [4] : « كان عمرو بن العاص لما استوسق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم » .

ونهى العرب نهياً شديداً عن اتخاذ الزرع معاشاً إذ إن سياسة عمر بن الخطاب بقاء العرب فى رباط لا يشغلهم شيء عن الجهاد لذلك « أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية (إن عطاءهم قائم وإن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون) [5] » .

وكان فى كل قرية لجنة من أهلها مهمتها توزيع الضريبة المفروضة على القرية ، فبعد أن يخصصوا جزءاً من الأرض للمنافع العامة كالكنائس والحمامات وجزءاً آخر لضيافة المسلمين ونزول السلطان ، يوزعون الضريبة المفروضة على ما بقى من الأرض وعلى الصناع الموجودين بالقرية وعلى أى جالية إن وجدت [4] .

---

(١) فتوح مصر ص ١٥٤

(٢) فيليب حتى « تاريخ العرب » ترجمة محمد مبروك نافع جـ ٢ ص ٢١٠

(٣) ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ١٥٤ – المقدسى « أحسن التقاسيم » ص ٢١٢

(٤) المرجع السابق ص ١٥٢

(٥) ابن عبد الحكم المرجع السابق ص ١٦٢

ولكن سياسة عمر الخاصة بتحريم الزراعة على العرب لم يكتب لها البقاء طويلاً ، إذ إن عثمان بن عفان سمح لأبناء العرب أن يتملكوا الأرض فى الأقاليم المفتوحة حديثاً . كما وزع بعض الإقطاعات على أقاربه والمقربين إليه ١ .

وانفتح باب الإباحة للعرب بامتلاك الأرض على مصراعيه فى عهد الأمويين وأخذ عدد العرب المقيمين فى الأرياف يزداد عاماً بعد عام حتى كانت سنة (٢١٨ هـ — ٨٣١ م) عندما ثار الأقباط فى عهد المأمون وإخماده لثورتهم ، غلب المسلمون الأقباط على الأرض وامتلكوها منهم واندمجوا مع أهلها الذين أسلموا وصاهروهم واختلطت أنسابهم ٢ .

وأمام هذا التطور الجديد ظهر نظام جديد للخراج ، فقد قسمت البلاد إلى مناطق أو صفقات تطرح فى مزاد على كل أربع سنوات فى تاريخ معين فيتزايد عليها من يرغب فى ذلك « من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم » ٣ .

ونذكر هنا ما يقوله المقريزى فى هذا الصدد ٢ : « وكان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشاً وكسباً وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات ، إن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص ٤ من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان يتقبل أرضاً وضمها إلى ناحيته فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط . ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرائب مقدرة فى ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان

---

(١) فيليب حتى المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٢

(٢) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٨٢ ، جـ ٢ ص ٢٩٢ — انظر أيضاً .. فى مصر الإسلامية ص ١١ .

(٣) ابن حوقل « صورة الأرض » ص ١٦٣ — المقريزى الخطط جـ ١ ص ٨٥

(٤) نقل ديوان الخراج بعد ذلك إلى مسجد ابن طولون وظل حتى عهد العزيز بالله الفاطمى فنقل إلى دار الوزير يعقوب ابن كلس ثم نقل إلى القصر بعد وفاة الوزير وظل حتى آخر الدولة (المقريزى الخطط جـ ١ ص ٨٢) .

والمتقبلين ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقى وكانت الولاة تشدد فى طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ... الخ ».

وظل ذلك متبعاً فى عهد الدولة الفاطمية إذ ينقل المقريزى [1] عن ابن زولاق : « ولست عشر بقيت من المحرم سنة ٣٦٣ قلد المعز لدين الله الخراج ووجوه الأموال وغير ذلك يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، وجلسا فى هذا اليوم فى دار الإمارة فى جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال وحضر الناس للقبالات ، وطلبوا البقايا من الأموال مما على المالكين والمتقبلين والعمال » .

وفى وزارة الأفضل بعد أن راك البلاد سنة ٥٠١ هـ امتدت مدة الاستغلال من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة وأصبح أكثر الضمان من الأمراء والأجناد [2] .

ولما خلفه المأمون البطائحى رأى أن ضامن أى أرض لا يأمن أن يزيد عليه آخر فتنتزع منه قبل انقضاء مدة العقد ، فأبطل ذلك وأقر كل ضامن على أرضه إلى أن تنتهى مدة ضمانه . مادام منفذاً لتعهداته . وتشجيعاً منه لإصلاح الأراضى البور أعفى كل مستصلح لأرض من دفع خراجها لمدة أربع سنوات . ويلاحظ أنه فى ذلك العهد كثرت الأراضى الخاصة التى يمكن لأصحابها التصرف فيها بالبيع والإيجار [1] .

وعند ما قامت الدولة الأيوبية حدث تغير جوهرى فيما يختص بتوزيع الأرض فظهر ما يعرف بالإقطاع الحربى إذ رأى صلاح الدين أن يخص نفسه بقسم من البلاد ويوزع الباقى بين الأمراء والجنود كإقطاعات غير وراثية [3] .

وظل هذا النظام متبعاً فيما بعد حتى نهاية العصر المملوكى [4] مع اختلاف فيما يختص السلطان به نفسه زيادة أونقصاً ، إذ كان المعمول به تقسيم البلاد إلى ٢٤ قسما أو قيراطاً منها أربعة للسلطان وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد ، ولكن بعض السلاطين كانوا ، يزيدون فى إقطاعهم كما حدث فى عهد السلطان المنصور لاجين (٦٩٦-٦٩٨ هـ - ١٢٩٦-١٢٩٩ م) إذ خص نفسه بثلاثة عشر قيراطاً . ومنذ عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى آخر عهد الظاهر برقوق على الأقل صار إقطاع السلطان عشرة قراريط .

---

(١) الخطط ج ١ ص ٨٢

(٢) المقريزى الخطط ج ١ ص ٨٣-٨٥

(٣) Poper ; op. cit. p. 74

(٤) هذا وإن ظلت الأرض تعطى كإيجار لمن يزرعها من قبل المقطعين — انظر ابن شاهين « زبدة كشف الممالك » ص ١٣٠ — القلقشندى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٢

ويقسم المقريزى [1] أرض مصر فى أيامه إلى سبعة أقسام : —

ا — قسم يجرى فى ديوان السلطان .

ب — قسم يقطع للأمراء والأجناد .

جـ — قسم وقف على الجوامع والمدارس والحواتك [2] وعلى جهات البر وذرارى واقفى تلك الأراضى وعتقائهم .

د — قسم رابع يقال له الأحباس ، وهى أرض توقف على أشخاص معينين .

هـ — وهناك أراض صارت ملكاً خاصاً يتصرف فيها صاحبها كيف يشاء ، وهذه الأرض انتهت ملكيتها إلى أصحابها إما لشرائها من بيت المال أو أن تكون هبة من السلطان أو شراء من شخص وهبت له أو لأسلافه من قبل .

و — قسم سادس يعجز عن زراعته لسبب ما فيكون مرعى للماشية أو ينبت به الحطب .

ز — أما القسم السابع فهو الأرض البور مما لا يصلها ماء النيل فلا تزرع بتاتاً . وكانت بعض أراضى هذا القسم تزرع من قبل ثم خربت لإهمال أمرها .

وفى العهد العثمانى أصبح السلطان مالك الأرض وظهر نظام الالتزام والملتزم الذى حل محل أصحاب الإقطاعات ومحصلى ضرائب السلطان ، فكان يشترى من الحكومة حق تحصيل الضرائب .

ومقدار الضرائب يختلف — كما سبق القول — حسب الظروف والأحوال ومن عهد لآخر بل نجد المؤلفين العرب يختلفون فى تقدير خراج فترة معينة كالفترة التى أعقبت الفتح مثلاً ، فابن عبد الحكم [3] يقدر الضريبة التى قررها عمر بن الخطاب فى ولاية عمرو بنصف إردب قمح وويبتين شعير لكل فدان . أما البلاذرى [4] فيذكر أنه فرض على كل ذى أرض « ثلاثة أرادب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقاً للمسلمين » ثم يقول إنه استبدل بالحنطة والزيت والخل والعسل دينارين ، ومن المشكوك فيه أن هذا القدر فرض على كل فدان من الأرض .

ويروى اليعقوبى رواية ثالثة فيقول [5] إن عمرا فرض على كل مائة إردب إردبين . فكأن الضريبة فرضت على كمية المحصول وليست على المساحة.

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٩٧

(٢) الحاتك — العاجز والحواتك ملاجىء العجزة .

(٣) « فتوح مصر » ص ١٥٣

(٤) فتوح البلدان ص ٢١٦ ، ٢١٨ .

(٥) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٧٧

وإذا رجعنا تقدير ابن عبد الحكم واتخذناه أساساً لضريبة الأرض عند الفتح ، نجد أن هذه الضريبة لم تثبت فيما بعد عند حد معين بل أخذت تتغير تبعاً لما يراه الحاكم نفسه فيذكر ابن حوقل [1] أنه كان مقرراً على كل فدان قبل فتح جوهر لمصر ، حوالى ثلاثة دنانير ونصف ولو أن المقريزى [2] يذكر أنه فى عهد المأمون وغيره كان « المقبوض عن الفدان دينارين » فلما فتح جوهر مصر جعل على كل فدان سبعة دنانير [3] .

ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ أصبح كل محصول يدفع عنه قطيعة مقررة حسب نوعه ، ففدان القمح أو الشعير مثلاً كان المقرر عليه حتى نهاية الدولة الفاطمية ثلاثة أرادب [4] .

وظل ذلك متبعاً أيضاً فى الدولة الأيوبية ، وقد أورد ابن مماتى [5] جدولاً بالخراج المقرر على كل زراعة ، ومنه يظهر أن الخراج كان يؤخذ عيناً ومالاً .

وفى عهد المماليك اتبع نفس النظام مع اختلاف يسير إذ أصبح خراج الصعيد غلات وخراج الوجه البحرى أغلبه نقود . كما أن الخراج أخذ فى الزيادة المطردة بعد سنة ٧٩٠ هـ [6] .

وتبدأ السنة الخراجية عند وفاء النيل ، وقد جرى العرف على أن الخراج يستحق إذا بلغ النيل فى مقياس الروضة ستة عشر ذراعاً وظل ذلك متبعاً حتى بعد أن أصبح ذلك القدر لا يكفى لرى الأراضى .

وكان الخراج يحصل على أقساط على مدار السنة فيذكر ابن حوقل [7] أنه فى طوبة يطالب المتقبلين بدفع ثمن الخراج المفروض على ما تحت أيديهم من الأرض وفى أمشير يستكمل دفع الربع وفى برمهات يدفع الثمن الثالث ويتم دفع نصف الخراج فى برمودة ، والربع الثالث يدفع فى أبيب ، وفى مسرى يغلق الخراج .

ولكن المقريزى يذكر أن الخراج يحصل على ثلاثة أقساط متساوية كل أربعة شهور

---

(١) صورة الأرض ص ١٦٣

(٢) الخطط جـ ١ ص ٩٩ – وانظر كذلك ابن حوقل المرجع السابق ص ١٣٦

(٣) ابن حوقل المرجع السابق ص ١٦٣

(٤) ابن مماتى « قوانين الدواوين » ص ٢٥٨ – كذلك المقريزى الخطط جـ ١ ص ٨٣–٨٤ إذ يذكر البواقى التى سامح فيها المأمون البطائحى ومنها يتبين أن الخراج كان يفرض على كل محصول أو إنتاج .

(٥) ابن مماتى المرجع السابق ص ٢٥٨ وما بعدها .

(٦) القلقشندى صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٢ وما بعدها .

(٧) المرجع السابق ص ١٣٦

قسط وإن كان يتبقى لدى الضمان والمتقبلين جملة بواق مما عليهم [1] .

وأجمع الكتاب العرب على أن النيل إذا لم يصل إلى الذراع السادس عشر فإن ذلك يعنى نقص خراج السلطان ، وإن ذلك مقرر فى كتاب العهد بين عمرو والمصريين إذ نص فيه « وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم (أى المصريين) بقدر ذلك [2] » .

ومع ذلك لم تذكر لنا المراجع العربية ما يؤيد أن ذلك حدث فى سنة ما [3] . إلا أنه حدث فى بعض العهود إلغاء لضرائب متأخرة كما حصل فى وزارة المأمون البطائحى [4] . كما أجل دفع الضريبة المقررة إلى وقت آخر نتيجة قصور النيل ، فيذكر الجبرتى [5] فى حوادث سنة ١١٠٦ هـ « وقصر مد النيل تلك السنة وهبط بسرعة فشرقت الأراضى ووقع الغلاء والفناء وفى هذه السنة وقعت مصالحات فى المال الميرى بسبب الرى والشراقى » .

ثم يقول : « وفى شوال سنة (١١٠٦ هـ - ١٦٩٥ م) أرسل الباشا إلى مراد بيك الدفتر دار يعمل جمعية فى بيته بسبب غلال الأنبار ، فاجتمعوا وتشاوروا فى ذلك فوقع التوافق أن البلاد الشراقى تبقى غلالها إلى العام القابل وأما الرى فيدفع ملتزموها ما عليهم » .

ولقد استحدث الولاة مصادر أخرى للدخل غير الخراج والجزية ، ففرضوا ضرائب كثيرة مختلفة عرفت أولاً باسم المرافق والمعاون ثم عرفت فيما بعد بالمال الهلالى والمكوس [6] . وكان أحمد ابن المدبر أول من فرض هذه الضرائب التى أخذت تزداد حيناً وتقل حيناً أو تلغى كلية فى بعض العهود كما حدث فى عهد ابن طولون وصلاح الدين .

ثالثاً - الروك [7] : -

ذكرنا أن المصريين كانوا يقسمون الأرض إلى مساحات وحدتها الفدان . ويقول

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٨٦

(٢) الطبرى تاريخ الرسل والملوك جـ ٥ ص ٢٥٨٨

٣ - يرى Poper أن الاحتمال كبير فى عدم وجود مثل هذا القانون .

Popper ; op. cit. p. 82

(٤) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٨٢-٨٣

(٥) الجبرتى تاريخ الجبرتى جـ ١ ص ٢٥-٢٦

(٦) المقريزى الخطط جـ ١ ص ١٠٣-١٠٦ - ويذكر أن الملك الناصر محمد بن قلاوون ألغى ١٨ ضريبة من هذه المكوس . كما يذكر أن مقدار هذه الضرائب فى أيامه هو كانت تبلغ نيفاً وسبعين ألف درهم وأن أكثرها كانت يذهب إلى جيوب الأقباط .

(٧) جاء فى قوانين الدواوين لابن مماتى - فى فهرس الاصطلاحات ص ٥٥٤ عن الروك ما يلى : كلمة من أصل قبطى يقصد بها مسح الأرض وتقدير خراجها .

استرابون ١ : « لقد قامت الحاجة إلى هذا التقسيم المضبوط الدقيق من جراء اضطراب الحدود المستمر الذى يحدثه النيل أثناء فيضانه ، إذ أنه يزيل ويضيف ويغير المظاهر الخارجية ويخفى سائر العلامات التى تحدد بها الأرض الخاصة من أرض الآخرين ، فمن الضرورى إذن أن يعاد مسح الأرض مرة بعد مرة . ومن هنا نشأ علم المساحة فيما يقولون » .

إذا استدعت الظروف إلى مسح الأرض فى فترات مختلفة ، فالنيل — كما ذكر استرابون — عند ما يغمرها يزيل الحدود ويغير المظاهر . كما أنه قد لا يغمر الأرض كلها فيبور مالم يصله الماء ، أو يظل الماء فى الأرض المنخفضة بعد نزوله فلا تزرع ، كما أنه فى بعض الحالات قد يصل ارتفاع النيل إلى حد يغمر معه أرضاً لم يكن يصلها وبذلك تدخل فى نطاق الأرض ، الزراعية . فكان من اللازم معرفة مساحة الأرض المزروعة من آن لآخر .

ولم يبين لنا استرابون نظام مسح الأرض ووقته ، وهل كان ذلك يحدث سنوياً أو فى فترات منتظمة أو كلما دعت الحاجة دون التقيد بوقت محدد ؟ .

أما فى العصر الإسلامى فقد ذكر المقريزى ٢ أن البلاد كانت تراك مرة كل ثلاثين عاماً لإجراء التعديل اللازم فى القيمة الإيجارية للأرض ولرفع غبن أو تقرير زيادة . وإلى جانب هذه المساحة الكلية كان هناك مساحات جزئية تتم فى بشنس من كل عام ٣ .

وبالرغم مما لروك الأرض من أهمية فى تقدير الخراج وإعطاء صورة حقيقية لحالة البلد الاقتصادية ، فإن المراجع العربية لم تذكر إلا عدداً ضئيلاً من هذه المساحات وهى حسب تسلسلها التاريخى : —

١ — يقول ابن عبد الحكم ٤ : « لما ولى ابن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر فى تعديل الخراج عليهم ، فأقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الأعوان والكتاب يكفونه ذلك بجد وتشمير ، وثلاثة أشهر بأسفل الأرض ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحص منها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية » .

وابن عبد الحكم لم يحدد من الذى راك البلاد ، عبد الملك بن رفاعة أم أخوه الوليد والاثنان قد وليا مصر . كما أنه لم يحدد تاريخاً لذلك .

---

(١) « استرابون فى مصر » الدكتور وهيب كامل ص ٤٦ .
(٢) الخطط جـ ١ ص ٨٢ .
(٣) ابن حوقل — صورة الأرض ص ١٣٦ .
(٤) فتوح مصر ص ١٥٦ .

فى حين أن المقريزى الذى ينقل عن ابن عبد الحكم ، يذكر [1] أن الوليد هو صاحب هذا الروك ولكنه لم يحدد تاريخاً هو الآخر.

فإذا رجعنا إلى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى نراه يذكر [2] أن عبد الملك كان والياً على مصر فى المدة من جمادى الآخره سنة ٩٦ هـ إلى صفر سنة ٩٩ هـ ، وكان أخوه الوليد على شرطة مصر ثم عزل سنة ٩٧ هـ .

وفى سنة ١٠٩ هـ ولى الوليد بن رفاعة مصر من قبل هشام على صلاتها وظل بها حتى توفى سنة ١١٧ هـ . وفى ولايته هذه ريكت البلاد على يد ابن الحبحاب عامل الخراج — وهو الروك الذى سنذكره فيما بعد — .

وعلى ذلك فإما أن يكون ابن عبد الحكم يقصد روك ابن الحبحاب الذى تم فى ولاية الوليد . أو أن يكون عبد الملك بن رفاعة قد راك البلاد فى ولايته ويكون قد تم فى المدة من سنة ٩٦ إلى سنة ٩٨ هـ[3] .

٢ — على يد ابن الحبحاب عامل خراج مصر فى عهد هشام بن عبد الملك [4] . ولم يذكر لنا الكتاب العرب التاريخ الذى حدث فيه هذا الروك ، إلا أنه مما ذكره الكندى نرجح أن ذلك حدث حوالى سنة ١٠٦ هـ أو سنة ١٠٧ هـ [5] (٧٢٤ أو ٧٢٥ م) ، فقد ذكر الكندى [6] : « كتب عبد الله بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطاً فانتقضت كورة تنو وتمى وقربيط وطرابيه وعامة الحوف الشرقى .... وكان انتقاضهم فى سنة ١٠٧ هـ » .

٣ — يذكر الكندى [7] والمقريزى [8] أنه فى خلافة هارون الرشيد خرج أهل

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٧٤

(٢) صفحات ٦٦ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩

(٣) يرى عمر طوسون ، مالية مصر ص ٢١٣ أن هذا الروك تم حوالى سنة ٩٧ هـ (٧١٥م)

(٤) انظر الدمشقى « نخبة الدهر » ص ١٠٩ — نويرى « نهاية الأرب » جـ ١ ص ٢٦٦ — مقريزى الخطط جـ ١ ص ٧٥ ، ٩٩ السيوطى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٥) يذكر عمر طوسون « مالية مصر » ص ١٩٦ أن هذا الروك تم حوالى سنة ١١٠ هـ (٧٢٩ م)

(٦) الولاة والقضاة من ٧٣—٧٤ .

(٧) المرجع السابق ص ١٤٠

(٨) الخطط جـ ١ ص ٨٠

الحوف على الليث بن الفضل البيودى أمير مصر فى سنة (١٨٦ هـ - ٨٠٢ م) ، وذلك لأنه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم فانتقصوا من القصبة أصابع .

وقد يكون الليث قد قام بمسح البلاد كلها فى هذا التاريخ .

٤ - على يد أحمد بن المدبر ١ .

يقول الدمشقى ٢ : « واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح للزرع بمصر وقت ولايته فوجده ٢٤ ألف فدان والباقى قد استبحر وتلف » .

٥ - فى ولاية أنوجور بن الإخشيد حوالى سنة (٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م) . فقد ذكر المقريزى ٣ : « وذكر من له معرفة بالخراج وأمر الديوان أنه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شفا الكاتب القبطى المعروف بالبولس متولى خراج مصر للدولة الإخشيدية يشتمل على ذكر كور مصر وقراها إلى سنة ٣٤٥ أن قرى مصر بالصعيدين وأسفل الأرض ٢٣٩٥ قرية منها بالصعيد ٩٥٦ قرية وبأسفل الأرض ١٤٣٩ قرية ، وهذا عددها فى الوقت الذى جردت فيه الجرايد المذكورة » .

٦ - فى وزارة الأفضل وزير الآمر الفاطمى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧-١١٠٨ م) إذ إنه حل جميع الإقطاعات وراك البلاد ٤ .

٧ - فى وزارة المأمون البطائحى سنة (٥١٥ هـ - ١١٢١م) وفى خلافة الآمر أيضاً . فيقول المقريزى ٥ : « ووصلت (أى المأمون) المكاتبة من الوالى والمشارف ومن كان ندب صحبته لكشف الأراضى والسواقى ومساحتها متضمنة ما أظهره الكشف وأوضحته المساحة على من بيده السواقى وهم عدة كثيرة » .

٨ - وفى عهد صلاح الدين الأيوبى ٦ ريكت البلاد سنة (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م)

---

(١) يذكر المقريزى أن ابن المدبر ولى خراج مصر بعد سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ولكن ابن إياس « بدائع الزهور » م . أميرية يذكر أن توليته كانت سنة ٢٥٤ هـ .

(٢) نخبة الدهر ص ١٠٩ . ويحدد عمر طوسون هذا الروك سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) فى خلافة المعتز العباسى .

(٣) الخطط جـ ١ ص ٧٣ - وانظر ياقوت « معجم البلدان » جـ ٤ ص ٥٤٨-٥٤٩ .

(٤) الخطط جـ ١ ص ٨٣

(٥) الخطط جـ ١ص ٨٤

(٦) أول من أشار إلى الروك الأفضلى والروك الصلاحى هو الدكتور جمال الدين الشيال أنظر مقالة الروك فى مجلة الثقافة .

فابن مماتى يقول [1] عن قطيعة خراج القمح : « كان يوجب عن ذلك إلى آخر سنة ٥٦٧ هـ – ١١٧١ م) عن كل فدان واحد ثلاثة أرادب ، ثم تقرر عند المساحة فى سنة ٥٧٢ أردبين ونصف » .

٩ – الروك الحسامى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) فى سلطنة المنصور حسام الدين لاجين

وجاء فى الخطط للمقريزى [2] وتاريخ ابن إياس [3] أن هذا السلطان راك البلاد وخص الأمراء والجند بأحد عشر قسما وأفرد لنفسه الثلاث عشرة الباقية .

١٠ – الروك الناصرى . وقد تناوله المقريزى بشيء من التفصيل ، فيذكر [2] أن الملك الناصر محمد بن قلاوون رأى فى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) أن إقطاعات المماليك البرجية كثيرة ، ففكر هو والقاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك البلاد وتقسيمها إلى إقطاعات . فقسم البلاد إلى مناطق أرسل إلى كل منطقة منها أميرين ومعهما كاتب من كتاب الديوان ومستوفين وقياسين ليتولوا مسحها ومعرفة ما تحويه من أرض منزرعة وبور ومستبحرة وعبرة كل ناحية . وانتهى روك البلاد فى مدة ٧٥ يوماً وقدمت الكشوف « بحال جميع ضياع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف » .

وقد خص السلطان نفسه بعشرة قراريط ووزع الأربعة عشر الباقية على الأمراء والأجناد فى المحرم سنة (٧١٦ هـ – ١٣١٦م) ، ثم قرر للمتقدمين فى السن والعجزة من الجند رواتب بدلاً من الإقطاعات .

١١ – روك الملك الأشرف شعبان [4] فى شوال سنة (٧٧٧ هـ مارس ١٣٧٦ م) وقد أفرد له ابن الجيعان كتاباً خاصاً أسماه «التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية » ذكر فيه أقاليم مصر وما بها من بلدان مرتبة على حروف المعجم وعبرة كل بلد .

وقد اختلفت الآراء بالنسبة لهذا الروك ، فالبعض [5] يؤكد أنه تم فعلاً فى عهد

---

(١) قوانين الدواوين ص ٢٥٨ وانظر القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٥٢ – المقريزى الخطط ج ١ ص ١٠١ .

(٢) ج ١ ص ٨٨ .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧

(٤) بويع بالسلطنة فى شعبان سنة ٧٦٤هـ وقتل فى ثالث ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ ابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٢١٢ ، ٢٣٤ .

(٥) أمين باشا سامى « تقويم النيل المقدمة ج ١ ص ١٢٦

الملك الأشرف ، بينما يرى آخرون [1] أن هذا الروك هو الروك الناصرى وحجتهم ما ذكره المقريزى [2] من أن الروك الناصرى ظل العمل به إلى ما بعد سنة (٧٨٤ هـ —١٣٨٣ م) .

وعلى كل فليس هناك ما ينفى أو يؤكد نسبة هذا الروك للسلطان شعبان ، ولكن لما كان ابن الجيعان مستوفياً لديوان الجيش فلا يبعد أن عثر بين الأوراق الرسمية ما يفيد بأن الأشرف شعبان قام بروك البلاد .

١٢ — فى عهد الملك الأشرف برسباى (٨٢٥ — ٨٤١ هـ — ١٤٢٢—١٤٣٨ م) فيذكر قاضى المنزلة مؤلف كتاب « عجائب الأخبار عن مصر الأمصار [3] » . أمر الملك الأشرف برسباى كتاب الدواوين والجيوش المصرية بضبط وإحصاء قرى مصر كلها قبليها وبحريها فكانت ألفين ومائتين وسبعين قرية » .

١٣ — وفى العصر العثمانى ريكت البلاد سنة (٩٣٣هـ—١٥٢٧م) فى خلافة السلطان سليمان ، إذ ذكر الإسحاقى [4] عند ذكر ولاية سليمان باشا الخادم « وفى سنة ٩٣٣ عين الأمير كيوان لمساحة قرى مصر وضبط أراضيها كل إقليم على حدته من الأطيان السلطانية والرزق والأوقاف والإقطاعات وغير ذلك ، وكتب بذلك دفاتر محررة ووضعت بديوان مصر المحروسة وهى معمول عليها الآن وشار إليها وتسمى دفاتر ترابيع سنة ٩٣٣ » .

أى أن هذا الروك ظل معمولاً به حتى سنة ١٠٣٣ هـ على الأقل وهى سنة [5] تأليف الإسحاقى لكتابه .

وبدراسة هذه المساحات على قلتها نخرج بما يلى :

ا — أن اثنتين من هذه المساحات تمت فى عهد الأمويين وأربعة فى عهد العباسيين واثنتين فى العهد الفاطمى وأربعاً فى زمن المماليك وواحدة فى العصر العثمانى .

ب — أنه لم يكن هناك فترة محددة بين كل روكين ، وأن فترة الثلاثين عاماً التى ذكرها

---

(١) عمر طوسون مالية مصر ص ٢٥٠ الأستاذ موريتز Moritz ناشر كتاب ابن الجيعان وذكر ذلك فى المقدمة الفرنسية للكتاب .

(٢) الخطط جـ ١ ص ٩١

(٣) نسخة الأزهر ص ٧ أ—٧ ب

(٤) « أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ص ١٦٥

(٥) سركيس معجم المطبوعات العربية جـ ٣ ص ٤٣١

المقريزى لم يؤخذ بها . فالمدة بين الدوكين الأول والثانى حوالى ١٣ عاماً والفترة بين الروكين الأفضلى والمأمونى ١٤ سنة وبين الروك الحسامى والروك الناصرى ١٨ سنة هذا مع فرض عدم مسح الأرض فى هذه الفترات .

إلى جانب ذلك يذكر المقريزى أن روك الملك الناصر ظل العمل به إلى ما بعد سنة ٧٨٤ هـ ، أى أن البلاد ظلت أكثر من ٦٩ عاماً بدون أن تراك . كما ذكر الإسحاقى أن روك سنة ٩٣٣ هـ ظل العمل به إلى زمنه أى سنة ١٠٣٣ هـ أى مائة عام لم تمسح فيها البلاد .

(حـ) بعض هذه المساحات أعطتنا صورة للمظالم التى كان يتعرض لها أهل البلاد من وقت لآخر . فالروك الناصرى يبين لنا كثيراً من المكوس والضرائب التى كانت مفروضة على الشعب وألغاها الناصر محمد بن قلاوون وقد عدد منها المقريزى [1] أكثر من ١٨ ضريبة كما يتضح أيضا أن إقطاعات الأمراء كانت ملجأ للصوص وقطاع الطرق يجدون فيها الأمن مقابل فرض سطوتهم على الأهالى لصالح صاحب الإقطاع .

(ى) يمكنا أن نتابع الحالة الاقتصادية وتدهورها بمصر ، فأحمد بن المدبر وجد أن كثيراً من أرض مصر لم يعد صالحاً للزراعة .

كما أنه بالمقارنة بين روك ابن رفاعة والروك الذى تم فى عهد الإخشيديين وروك الملك الأشرف برسباى يظهر أن عدد القرى قد نقص من عشرة آلاف أو أكثر إلى ٢٣٩٥ ثم إلى ٢٢٧٠ قرية . وحتى لو أخذنا هذه الأرقام بحذر إلا أنها تدل على خراب كثير من القرى التى كانت عامرة .

رابعاً ــ المجاعات :

يقول المقدسى عن مصر «هذا إقليم إذا أقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه وإذا أجدب فنعوذ بالله من قحطه يمد سبع سنين حتى يأكلون الكلاب ويقع فيهم الوباء» [2] .

وهى صورة صادقة لما تكون عليه فى الحالين ، ففى خصبها تكون أشبه بالجنة والفردوس فإذا أصابها القحط فالمجاعة والوباء حتى ليأكل بعضهم البعض بعد ألا يجدوا ما يأكلونه .

والسبب الأساسى فى حدوث المجاعات التى تعرضت لها البلاد هو قصور النيل وعدم بلوغه الزيادة اللازمة لرى الأرض وغمرها بالماء .

ولكن إلى جانب ذلك كانت هناك عوامل مساعدة أدت إلى توالى المجاعات

(١) الخطط جـ ١ ص ٨٨-٨٩
(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٠٢

وتعددها فى أوقات متقاربة ، منها ، إهمال مرافق البلاد كالترع والجسور والمظالم التى استحدثها الحكام والمغارم التى تعرض لها الشعب وزيادة الضرائب على الأرض ، كما احتكرت الدولة الأقوات وعرضتها على الناس بأغلى الأثمان . سبب آخر هو الرشوة والمحسوبية فى الوصول إلى مناصب الدولة الدينية والإدارية « فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة »[1] .

وفى ذلك يقول المقريزى : «إن مابالناس سوى تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد » .

وأول مجاعة تعرضت لها مصر بعد الفتح العربى كانت سنة (٨٧هـ –٧٠٦ م) فى ولاية عبد الله بن مروان[2] ويقول الكندى [3] : « وفى ولايته غلت الأسعار بمصر وترعت فتشاءم المصريون وهى أول شدة رأوها وزعموا أنه ارتشى وكثروا عليه القول وسموه مكيسا . وفيه قال زرعة بن سعد الله بن أبى زمزمة الحشنى عندما قدم عبد الله إلى أخيه الوليد سنة ٨٨ .

إذا سار عبد الله من مصر خارجا   فلا رجعت تلك البغال الخوارج

أتى مصر والمكيال واف مُغَرْبَل   فما سار حتى سار والمد فالج

ثم أخذت المجاعات تتوالى متتابعة بعد وفاة رأس الأسرة الإخشيدية . محمد بن طغج وأخذ الغلاء يمتد السنين الطوال . ولعل الدولة الفاطمية هى التى ضربت الرقم القياسى فى عدد ما حدث فيها من مجاعات . كذلك تعرضت البلاد فى العهد المملوكى لغلاء متتابع حتى يئس الناس واستسلموا لهذه المحن على أنها قضاء حتم خصوا به ، فيقول المقريزى [4] : « فإنه لما طال أمد هذا البلاء المبين وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مر فى زمن شبهها وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها » .

وعلى كثرة ما حدث من مجاعات ، لم يهتم المؤرخون إلا بوصف آثار الغلاءين اللذين حدثا فى عهد المستنصر بالله الفاطمى والملك العادل أبى بكر بن أيوب .

أما غلاء المستنصر فقد اختلف المؤرخون فى بدايته فالمقريزى[5] يبدؤه من سنة (٤٥٧هـ

---

(١) المقريزى إغاثة الأمة ص ٤٣–٤٧

(٢) المقريزى إغاثة الأمة ص ١١

(٣) الولاة والقضاة ص ٥٩

(٤) إغاثة الأمة ص ٣–٤

(٥) « « ص ٢٤

ـــ ١٠٦٤ م) والسيوطى ١ سنة (٤٦٠ هـ ١٠٦٧ م) أما ابن إياس٢ فيجعل بدايته سنة(٤٥١ هـ ـــ١٠٥٩ م) .

ولكن الجميع اتفقوا على تسمية هذه المجاعة «الشدة العظمى » وأنها امتدت سبع سنين ، ويصفها السيوطى ١ بقوله : « وفى سنة ٤٦٠ كان ابتداء الغلاء العظيم بمصر الذى لم يسمح بمثله فى الدهور من عهد يوسف الصديق ، واشتد القحط والوباء سبع سنين متوالية بحيث أكلوا الجيف والميتات ، وأفنيت الدواب وبيع الكلب بخمسة دنانير والهر بثلاثة دنانير ونزل الوزير يوماً عن بغلته فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها فأخذوا فصلبوا فأصبحوا وقد أكلهم الناس ٥٠١٠ » .

واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه ، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه فى كل يوم بعقب من فتيت ، ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به إليه وهو مرة واحدة فى اليوم والليلة ٣ .

والغلاء الثانى الذى وقع فى عهد الملك العادل وكانت بدايته سنة(٥٩٦هـ –١١٩٩م) فقد كان نتيجة انخفاض النيل الذى بلغت أقصى زيادته اثنى عشر ذراعا وإحدى وعشرين إصبعاً .

ويصف البغدادى ــ وكان شاهد عيان ــ هذه المحنة بقوله ٤ : « دخلت سنة سبع (أى ٥٩٧ هـ) مفترسة أسباب الحياة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع ، وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا فى البلاد أيادى سبأ واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا النبات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك إلى أكل صغار بنى آدم . »

ويقول ابن إياس ٥ : « تناهى سعر القمح فى السنة الثالثة إلى مائة دينار كل إردب ولا يوجد ، ثم جاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى مات من أهل مصر نحو الثلثين ».

وكان لهذه المحن التى تعرضت لها البلاد أثرها فى الانخفاض الكبير فى عدد السكان .

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٤

(٢) ابن إياس « تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور » طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ جـ ١ ص ٦٠

(٣) المقريزى – إغاثة الأمة ص ٢٥

(٤) « الإفادة والاعتبار » ص ٤٩

(٥) بدائع الزهور جـ ١ ص ٧٦ .

فقد كان عددهم عند الفتح حوالى ثمانية عشر مليوناً [١] بينما أصبح عددهم فى القرن التاسع عشر الميلادى ، أى بعد اثنى عشر قرناً من الفتح ، حوالى الثلاثة ملايين [٢] . ولما كان المصرى بطبعه ملتصقاً بالأرض لايحبذ الهجرة ، فإنه يمكن القول إن هذه النتيجة جاءت لما ابتلى به الناس من مجاعات طاحنة قضت عليهم [٣] .

خامساً : الملاحة : —

لعبت الملاحة دوراً هاماً فى نظام البلاد الاقتصادى . فمصر بلد زراعى ومحاصيلها متنوعة . والأمر يستدعى نقل هذه المحاصيل من مكان لآخر حسب الحاجة سواء داخل البلاد نفسها أو إلى الموانى لتصديرها للخارج .

ولما كان مجرى النيل بمصر صالحاً للملاحة ، أصبح هو الطريق الرئيسى لنقل البضائع [٤] والمسافرين ، حيث إن نظام القوافل علاوة على مشاقه ومتاعبه غير عملى من الناحية الاقتصادية [٤] .

وفى زمن الفيضان عندما يغمر الماء الأرض كان الانتقال بين القرى غير ميسر إلا عن طريق القوارب وخفاف المراكب .

علاوة على أن الاتصال بين شاطئى النيل كان يتم — كما هو الحال اليوم — إما عن طريق سفن خاصة تعبر بين شاطئيه ، أو الكبارى التى لم تكن فى ذلك الحين إلا سفناً متراصة بجانب بعضها [٥] .

لذلك كان من الطبيعى أن يهتم المصريون بالملاحة وبناء السفن المختلفة ، فأنشئت على ساحل النيل بمصر ثلاث دور للصناعة تبنى فيها السفن البحرية والنيلية كما أنشئت صناعات أخرى فى الإسكندرية ودمياط [٦] . والصالحية [٧] وغيرها من المدن .

وأول صناعة أنشئت فى مصر بعد الفتح ، صناعة الروضة سنة (٥٤ هـ —٦٧٣ م) ،

---

(١) انظر عمر طوسون « مالية مصر » ص ٢٠٩

(٢) كلوت بك « لمحة عامة إلى مصر » جـ ١ ص ٣٧٧

(٣) انظر أيضاً كلوت بك المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٧٩ وما بعدها .

(٤) انظر « فى مصر الإسلامية » مقالة المواصلات فى مصر ص ٣٤ ، ص ٣٥ ، ص ٣٦

(٥) انظر المقريزى الخطط جـ ١ ص ٦١ .

(٦) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٤٨٣ — وانظر ابن مماتى قوانين الدواوين ص ٣٤٠

(٧) يقول ناصر خسرو ، سارت السفينة حتى بلغنا مدينة تسمى الصالحية وهى مدينة كثيرة النعم والخيرات وتصنع بها سفن كثيرة حمولة كل منها مائتاخروار (حمل حمار) سفر نامة ص ٤١

ثم أنشأ محمد بن طغج الإخشيد صناعة الفسطاط سنة (٣٢٥هـ — ٩٣٦ م)، أما الصناعة الثالثة فقد أنشأها المعز لدين الله أو ابنه العزيز بالمقسى ١ ٢ .

ومما ذكره ابن دقماق ٣ والمقريزى ٤ يمكن القول إن صناعة الجزيرة ظلت تعمل حتى أنشأ ابن طغج صناعة الفسطاط ، فحولها إلى بستان يسمى المختار ، ولكنها أعيدت مرة أخرى فى عهد الفاطميين حيث تخصصت فى صناعة سفن الأسطول ، إذ يروى المقريزى ٤ نقلاً عن ابن المأمون « وكانت جميع مراكب الأساطيل ما تنشأ إلا بالصناعة التى بالجزيرة فأنكر الوزير المأمون ذلك وأمر بأن يكون إنشاء الشوانى وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة بمصر .... وأن يكون ماينشأ من الحراقى والشلنديات فى الصناعة بالجزيرة » .

كما أنه من المحتمل أن صناعة الفسطاط قد لحقها الإهمال هى أيضاً ، — وربما كان لوجود صناعة المقسى يد فى ذلك — ، حتى أعاد تنظيمها المأمون ابن البطائحى فى خلافة الآمر ، إذ يذكر المقريزى عند التحدث عن منظرة الصناعة وأنشأ هذه المنظرة والصناعة التى هى فيها الوزير المأمون ٤ .

وقد ظلت هذه الصناعة حتى أواخر القرن السابع الهجرى ، ثم حل محلها بستان ابن كيسان الذى صار يعرف فى أيام المقريزى باسم بستان الطواشى ٤ .

ولاشك أنه كانت توجد صناعات غير حكومية لبناء السفن الأهلية ، وقد ساعدت الحراج الموجودة فى أماكن مختلفة على توفير الأخشاب اللازمة لبناء السفن الحكومية والأهلية ٥ . التى ربطت بين أجزاء مصر المختلفة كما ربطتها بالعالم الخارجى أيضاً .

---

(١) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ١٩٥ .

(٢) وقد ظلت هذه الصناعة بالمقسى قرب الأزبكية الحالية حتى غير النيل مجراه وظهرت بولاق

Lave Poole ; The Story of Cairo p. 132

(٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١٢

(٤) الخطط جـ ١ ص ٤٨٢ ، جـ ٢ ص ١٩٧ وانظر كذلك السيوطى «كوكب الروضة »

(٥) ذكر ابن مماتى فى قوانين الدواوين ص ٣٤٤ بعض الحراج الموجودة فى البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص .

ولم يعق السفن المصرية من التوغل فى النيل جنوباً إلى بلاد النوبة إلا وجود الجنادل التى وقفت عقبة فى سبيلها وأصبحت حداً تقف عنده كل من سفن مصر والنوبة .

وما ذكره الكتاب العرب فى العصور المختلفة يعطينا صورة صادقة لما كانت عليه الملاحة فى مصر من تقدم وازدهار وكثرة السفن وضخامتها .

فالمقدسى فى زيارته لمصر يعبر عن دهشته لكثرة المراكب بساحل الفسطاط فيقول « وكنت يوماً أمشى على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة ، فقال لى رجل منهم من أين أنت ؟ قلت من بيت المقدس ، قال بلد كبير ، أعلمك يا سيدى أعزك الله أن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب مالو ذهب إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان هاهنا مدينة [1] .

ويذكر ابن بطوطه [2] : « إن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق » .

أما المقريزى فيصف ضخامة السفن التى فى النيل بأن الواحدة منها تحمل ما يحمله خمسمائة بعير [3] . وينقل عن ابن سعيد عند وصفه لساحل الفسطاط أنه « كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل ، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا [4] » .

كما يذكر المقريزى عند وصفه ميدان القمح خارج باب القنطرة أنه « يصير عند باب القنطرة فى أيام النيل من مراكب الغلة وغيرها مايستر الساحل كله [5] » .

ويقول أيضا إن المعز أنشأ فى صناعة المقسى ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مينا [6] .

ويروى ابن شاهين [7] « أنه ضبط فى أيام الفخر الوزير ما بساحلها (أى مصر القديمة) من المراكب فكانت تنيف عن ألف وثمانمائة مركب » .

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٨ .
(٢) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٩
(٣) الخطط جـ ١ ص ٢٦
(٤) الخطط جـ ١ ص ٣٤٢
(٥) الخطط جـ ٢ ص ١٣٤
(٦) الخطط جـ ٢ ص ١٩٥
(٧) زبده كشف الممالك ص ٢٧

ولا أدل على كثرة السفن التى كانت تتجمع على ساحل مصر وبولاق ما ذكره [1] السيوطى من غرق ثلثمائة مركب عند ساحل بولاق فى أحد أيام شهر ربيع الآخر سنة ٧٥٧ هـ »

وقد أخذ عدد السفن يقل تبعاً لتدهور الحالة الاقتصادية حتى صار عددها فى زمن الحملة الفرنسية لا يتجاوز الألف والستمائة ، ثم زادت فى عهد محمد على حتى بلغت ثلاثة آلاف وثلثمائة سفينة منها ثمانمائة تملكها الحكومة [2] .

ولقد كانت السفن التى تجرى فى النيل مختلفة الأنواع والأحجام والأشكال تبعاً للغرض المهيأة له سواء أكانت لحمل البضائع أم لنقل المسافرين أم للنزهة واستعمال كبار الشخصيات فى الدولة أو كانت سفناً حربية .

وسنذكر بعض أنواع السفن المختلفة الأسماء والأغراض التى استعملها المصريون وذكرتها المراجع العربية ، منذ الفتح العربى حتى عصر محمد على مرتبة ترتيباً هجائياً [3] :

١ — **أرباع الكيل** : يقول ابن مماتى [4] : « وهذه مراكب تعمر من الخراج فإذا وصلت إلى ساحل السنط قومت أو نودى عليها ، فمهما بلغت طولب مالكها بحق الربع من القيمة عما أخذه من خشب العمل » .

٢ — **الأشكيف** : وصفها كلوت بك [5] بقوله : « هذه القوارب أقل حجماً من قوارب ، المعاش وهى وإن تكن مخصصة مثل قوارب المعاش لحمل البضائع لا تسير إلا فى فرعى النيل ، وقد تخرج إلى بحر الإسكندرية وتذهب إلى ثغرى دمياط ورشيد وأحيانا إلى بلاد الشام وقبرص » .

ولعل هذه التسمية مأخوذة من الكلمة الإنجليزية Skiff أى قارب صغير

٣ — **الأعزازى** : سفينة تتبع الشينى وتحمل فيها الأزواد [6]

---

(١) السيوطى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٦١ وانظر أيضاً جـ ٢ ص ١٥٨ إذ يذكر غرق ٢٠٠ مركب سنة ٦٦٧ فى يوم واحد من ذى الحجة .

(٢) كلوت بك « لمحة عامة إلى مصر » جـ ٢ ص ٦٧٣

(٣) اعتمدت كثيراً فى ترتيب هذه السفن ومعرفة كثير من أسمائها من « معجم السفن العربية » وضع الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال خاص بأسماء وأنواع السفن وهو مخطوطه لم تطبع بعد .

(٤) قوانين الدواوين ص ٣٤٨ .

(٥) المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٧٤

(٦) ابن مماتى المرجع السابق ص ٣٤٠

٤ — **الجرم** : جاء فى محيط المحيط « الجرم الزورق بلغة أهل اليمن وعليه اصطلاح الملاحين فى الشام ومصر » .

٥ — **الحراقة** [١] : سفينة حربية بها مرام تلقى النار على العدو ولها نحو مائة مجداف . كما أنها كانت تستعمل لركوب السلطان وكبار الشخصيات فى أعياد الوفاء فى العهد المملوكى وكانت تعرف فى عهد الفاطميين باسم العشارى .

٦ — **الحمالة** : سفينة تحمل فيها الغلة كما تحمل فيها الحيوانات[٢] .

٧ — **حمامة** : والجمع حمائم نوع من السفن ربما كانت حربية أو تستعمل للنقل يقول المقريزى [٣] عند الكلام عن حصن الجزيرة الذى بناه أحمد بن طولون : « واتخذ (ابن طولون) مائة مركب حربية سوى ما ينضاف إليها من العلابيات والحمائم والعشارية والسعنابيك ..... الخ » .

٨ — **درمونة** : مركب كبير لنقل الغلال برسم الأهواء السلطانية وحمولتها خمسة آلاف إردب [٤] .

٩ — **الدكاسة** : نوع من السفن الخاصة بكبار رجال الدولة الفاطمية [٥] وقد جاء فى الخطط للمقريزى [٦] عند الكلام عن صاحب الطراز ما يلى : « وله عشارى ديماس مجرد معه وثلاثة مراكب من الدكاسات ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون ونفقاتهم جارية من مال الديوان » .

١٠ — **الذهبية** : يقول كلوت بك [٧] : « أما الذهبيات فمراكب كبيرة يختلف طولها من أربعين قدماً إلى خمسين وعرضها من ١٢ إلى ١٥ قدماً ، وللذهبية

---

(١) ابن مماتى المرجع السابق ص ٣٤٠ — ابن دقماق المرجع السابق (الانتصار) ج ٤ ص ١١٤ — قلقشندى « صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٧ ، ج ٤ ص ٤٧ — المقريزى الخطط ج ١ ص ٦٩ — السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٣ — أبو السرور البكرى « قطف الأزهار » ص ٩ أ — الحموى تاريخ الأسطول ٧ ص ٣٥ — محيط المحيط .

(٢) ابن مماتى المرجع السابق ص ٣٣٩—٣٤٠ — ابن شاهين المرجع السابق ص ١٣٩—١٤٠—١٤٢ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٨٠

(٤) ابن شاهين المرجع السابق ص ١٢٢—١٢٣

(٥) الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين فى مصر » ص ١١٢ هامش ٧

(٦) الخطط ج ٢ ص ٣٥٢

(٧) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٦٧٤—٦٧٥

شراعان وهى تسير بالمجاديف أيضا ، ويعدل عدد نوتيتها عدد ما فيها من المجاديف فالذهبيات الكبيرة تحتوى من ثمانية عشر جدافا إلى عشرين ، وتصلح فى الأصل لنقل البضائع زمن التحاريق ، وبمؤخرها غرفتان أو ثلاث غرف للمسافرين ، ولكنها لاتقبل من هؤلاء إلا من تكون الأعمال التجارية باعث سفرهم ، ويؤثرون بسببها الأمن والراحة على السرعة فى الوصول إلى الجهة المقصودة » .

١١ — **الزلاج** : لعله نوع من القوارب الخفيفة السريعة اشتق من كلمة الزلج بمعنى السرعة فى المشى [١] .

فيقول الكندى [٢] عند الكلام عن عبد العزيز الجروى : « ولاطف (أى الجروى) السرى (ابن الحكم) فخرج إليه فى زلاج وخرج الجروى فى مثله فالتقينا وسط النيل ٥٠١ » .

١٢ — **الزورق** : جاء فى محيط أنه « السفينة الصغيرة » [٣] .

١٣ — **السلورة** : جاء فى السلوك للمقريزى [٤] « ومضى أكرم (كريم الدين أكرم الصغير) وابنه فى سلورة إلى أسوان » .

والسلورة والجمع سلالير كانت من السفن المستعملة فى نهر النيل وليست من سفن البحار الكبرى [٤] .

١٤ — **السماوى** : سفينة صغيرة الحجم من نوع العشارى [٥] .

١٥ — **سنبك أو سنبوك** : جاء فى تاج العروس للزبيدى « السنبوك كعصفور السفينة الصغيرة » . وقد ذكره المقريزى عند وصفه لحصن الجزيرة [٦] .

وفى « سيرة أحمد بن طولون » أطلق عليها لفظ السنادبل بدل السنابيك [٧] .

١٦ — **الشختور** : جاء فى محيط المحيط « الشختور والشختورة سفينة صغيرة بسار واحد فى الوسط وهو من اصطلاح النوتية » .

---

(١) اللسان
(٢) الولاة والقضاة ص ١٥٧
(٣) وانظر ابن تغرى بردى « النجوم الزاهرة » جـ ١ ص ٣٢
(٤) جـ ٢ ص ٢٧١ وانظر أيضاً هامش — ٥ بنفس الصفحة .
(٥) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٤٧٨
(٦) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ١٨٠ وانظر « الحمامة » التى ذكرت سابقاً
(٧) سيرة أحمد بن طولون البلوى تحقيق محمد كرد على ص ٨٧ ، ص ١٠٢

وفى وصف ابن دقماق لبركة الشعبية بظاهر مصر : « وكان بحر النيل يعمها فى كل سنة ويدخل إليها الشخاتير » . [1]

ويقول المقريزى [2] عن عبد الشهيد سنة (٧٣٨ هـ — ١٣٣٨ م) : « فلما كان ذلك اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الأمراء النيل فى الشخاتير بغير حراريق » .

١٧ — **الشلندى** : مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره وجدافون يجدفون تحتهم . كما أن الشلندى يستعمل أيضا لنقل البضائع والأمتعة . [3]

١٨ — **الشينى** : وصفه ابن مماتى [4] « ويسمى الغراب أيضاً فإنه يجدف بمائة وأربعين مجدافاً وفيه المقاتلة والجدافون » .

وكانت تقام فيه أبراج وقلاع للدفاع ، ويعتبر أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول فى الدولة الإسلامية [5] .

١٩ — **الطرائد** : سفينة حربية [6] وذكر ابن مماتى عن الطريدة ما يلى « برسم حمل الخيل وأكثر ما يحمل منها أربعون فرساً » [7] وقد جاء أيضا فى تاريخ الأسطول[8] « وقال دوزى هى نوع من المراكب الحربية أكثر شبها بالبرميل الهائل من السفينة ، كانت تستعمل غالباً فى حمل الخيول والفرسان وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارساً » .

٢٠ — **طيارة أو الطيار** : ضرب من السفن النهرية القديمة [9] [10] .

٢١ — **العشارى أو العشيرى** : يقول البغدادى [11] فى وصفه مصر : « وأغرب

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٥
(٢) الخطط جـ ١ ص ٦٩
(٣) ابن مماتى « قوانين الدواوين » ص ٣٤٠ وانظر أيضاً ص ٤٥٦ — كذلك انظر الخطط المقريزية جـ ١ ص ٤٨٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٤٠
(٥) انظر الخطط المقريزية جـ ١ ص ٤٨٢ — ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥١ هامش — ٣
(٦) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ١٩٤
(٧) قوانين الدواوين ص ٣٣٩
(٨) ص ٣٣—٣٤ .
(٩) الحموى (تاريخ الأسطول العربى × ص ٤٥
(١٠) أنظر المقريزى الخطط جـ ١ ص ٣٤٢
(١١) الإفادة والاعتبار ص ٤٠—٤١

ما رأيت فيها مركب يسمونه العشيرى شكله شكل شبارة ١ داخلة إلا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداماً وشكلاً ، قد سطح بألواح من خشب ثخينة محكمة وأخرج منها أفاريز كالرواشن نحو ذراعين . وبنى فوق هذا السطح بيت من خشب وعقد عليه قبة وفتح لهطاقات وراوازن بابواب إلى البحر من سائر جهاته . ثم يعمل فى هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض ثم يزوق بأصناف الأصباغ ويذهب ويدهن بأحسن دهان .

وهذا يتخذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس جالساً فى وسادته وخواصه حوله والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن وأطعمتهم وحوائجهم فى قعر المراكب . والملاحون تحت السطح أيضا وفى باقى المركب يقذفون لايعلمون شيئاً من أحوال الركاب ، ولا الركاب يشتغل خواطرهم بهم كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول بما هو صدده » .

ويصف المقريزى ٢ البيت الخاص بعشارى الخليفة الفاطمى بأنه « بيت مثمن من عاج وأبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع وطوله قامة رجل تام ، فيجمع بين الأجزاء الثمانية فيصير بيتاً دوره أربعة وعشرون ذراعاً وعليه قبة من خشب محكم الصنعة ، وهو بقبة ملبس بضائع الفضة والذهب » .

وكان للفاطميين ما يزيد على « خمسين عشاريا ويليها عشرون ديماسا منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها . وبقية العشاريات الدواميس برسم ولاة ، الأعمال المميزة » . ٢ وكان من أهم هذه العشاريات ست للخليفة هى الذهبى والفضى والأحمر والأصفر واللازوردى والصقلى ٢ .

ويصف ابن الساعاتى ٣ يوم لهو قضاه فى عشارية على النيل .

ولما توسطنا على النيل غدوة ظننت وقلب اليوم باللهو جذلان
عشارية أنسانا له الماء مقلة وليس لها إلا المجاديف أجفان

٢٢ — **العقبة** : والكل لا شك يعرف السفينة المسماة بالعقبة التى تشترك فى احتفالات الوفاء كل عام .

وقد كانت مخصصة فى العصر العثمانى لركوب الوالى وكبار رجال الدولة وتشبه

---

(١) الشبارة . سفينة صغيرة بنهر دجلة لنقل الركاب — أنظر تاريخ الأسطول ص ٣٧ هامش-١

(٢) الخطط ج ١ ص ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢-٤٨٣

(٣) ديوان ابن الساعاتى ج ٢ ص ٢١٤

العشارى إلى حد كبير إذ يقول على مبارك باشا [1] : « نقل كترمبر عن الجبرتى أنها مركب تنقش بأنواع الألوان ويركب عليها مقعد من الخشب المصبع ، ويجعل له شبابيك وطاقات من الخرط ويصفح بالنحاس الأصفر ويزين بأنواع الزينة والستائر ويرفع عليه بيارق ملونة وشراريب ولا يركب فيه إلا الباشا ونحوه ».

أما العقبة التى كانت تشترك فى احتفالات وفاء النيل فقد وصفها على مبارك باشا بأنها سفن الغلال التى يجرى تزيينها وتهيئتها للاشتراك فى الاحتفال [2] .

٢٣ — **العلابيات** : وكانت مستعملة فى مصر من مدة طويلة إذ ذكرها المقريزى عند وصفه لحصن أحمد بن طولون بالجزيرة [3] .

٢٤ — **القوارب** : سفن صغيرة تستعمل لأغراض شتى ، وكانت تستعمل بوجه خاص فى التنقل بين القرى أيام الفيضان حين يغمر الماء الأرض [4] .

وجاء فى اللسان : «القارب السفينة الصغيرة مع أصحاب السفن الكبار البحرية كالجنائب لها تستخف لحوائجهم والجمع القوارب » . [5]

٢٥ — **القايق** : وصفه كلوت بك [6] « ويتخذ الفلاحون للملاحة فى النيل زوارق ، صغيرة ضيقة تسمى القايق وهم يتكدسون فيها من غير تدبر ولا احتياط فيحدث غالباً أن تغرق فلا ينجو منهم إلا النزر اليسير » .

٢٦ — **قرقورة وقرقور** : قال المقريزى [7] إنه فى يوم الوفاء « يكون فى البحر ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحاً بوفاء النيل » .

وفى اللسان « القرقور ضرب من السفن وقيل هى السفينة العظيمة أو الطويلة والقرقور من أطول السفن وجمعه قراقير ...... وفى الحديث فإذا دخل أهل الجنة الجنة ركب شهداء البحر فى قراقير من در » .

وعلى ذلك فالقرقورة نوع من السفن معروف للعرب من قبل الفتح . وجاء فى

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٨٢
(٢) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٣٤
(٣) الخطط ج ٢ ص ١٨٠
(٤) انظر ابن تغرى بردى « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٣٢
(٥) انظر أيضاً الحموى « تاريخ الأسطول » ص ٣١
(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٧٦
(٧) الخطط ج ١ ص ٤٧٦

تاريخ الأسطول [١] » وأصل اسمها بالأسبانيوليه كاراكا » . ولا شك أن الأسبان أخذوا هذا اللفظ عن العرب .

٢٧ — **القنجة** : سفينة كانت مستعملة فى عصر محمد على وهى من نوع الزوارق السريعة الحركة ، طولها من ثلاثين إلى أربعين قدماً وعرضها من ثمانية إلى عشرة أقدام ، ولهافى العادة سارية واحدة أو ساريتان ، وتحمل شخصين [٢] .

٢٨ — **القياسة** : جاء فى السلوك [٣] « ورسم لكل من الأمراء المقدمين بعمارة مركب يقال لها جلبة وعمارة قياسة لطيفة يقال لها قلوة برسم حمل الأزواد وغيرها » .

وكان هذا النوع يستعمل فى مصر أيام التحاريق وقد وصفها كلوت بك بأنها « مراكب فرطاحة بطيئة الحركة » [٤] .

٢٩ — **الككة** : مركب كبير كان يستعمل فى صعيد مصر وليس فيها مسمار [٥] .

٣٠ — **مراكب الحطب** : قال ابن مماتى [٦] عند ذكره ساحل السنط « موضع تصل إليه مراكب الحطب وتعتبر فيه وتبتاع على التجار منه » .

٣١ — **مراكب المعاش** : مراكب نيلية كبيرة تبلغ حمولة بعضها خمسمائة طن ولها ساريتان أو ثلاث ولا تسير فى النيل إلا فى زمن الفيضان وعند كثرة الماء . [٧]

٣٢ — **المراكب الملوحة** : وصفها ابن مماتى [٨] بقوله « هذه مراكب جارية فى ذلك الديوان (ديوان الخراج) يضمنها الرؤساء لمدة معلومة بأجرة معينة ، وإذا احتاجت إلى عمارة اعتد لهم عن مدة العطلة بأجرة نظيرها من مدة العمل . وستتها ثلاثة عشر شهراً منها خمسة نيلية يجب عنها نصف الضمان ومنها سبعة أشهر يجب عليها النصف الثانى أقساط متساوية والشهر الثالث عشر عطلة لاقسط فيه» .

٣٣ — **مراكب النزهة والتفرج** : وهى سفن خاصة بحمل من يرغب فى النزهة فى النيل وخلجان مصر كالحاكمى والناصرى [٩] .

---

(١) ص ٣١
(٢) كلوت بك « لمحة عامة إلى مصر » ج ٢ ص ٦٧٥–٦٧٦ ، ص ٦٧٩ .
(٣) ج ٢ ص ٣٣
(٤) لمحة عامة ج ٢ ص ٦٧٦ وانظر أيضاً السلوك ج ٢ ص ٣٣ هامش - ٢
(٥) على بن ظافر « بدائع البداية » ص ٢٣ — القلقشندى صبح الأعشى ج ٩ ص ٢٣٥
(٦) قوانين الدواوين ص ٣٤٧
(٧) كلوت بك — المرجع السابق ج ٢ ص ٦٧٣–٦٧٤
(٨) قوانين الدواوين ص ٣٤٨–٣٤٩
(٩) المقريزى الخطط ج ٢ ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥١

٣٤ — **المركوش** : وصفه ابن مماتى بأنه مركب « لطيف لنقل الماء لخفته يدخل على المواضع ويكون وسقه دون مائه إردب »[1] .

٣٥ — **المسطح** : يذكره ابن مماتى[1] بعد الشلندى ثم يقول : « وهو فى معناه » أى شبيه له[2] .

٣٦ — **المعدية** : سفينة خاصة لنقل الناس والحيوانات وغيرها بين شاطئ النيل وتسير بالمجاديف .

ويقول المقريزى[3] « كان بحلوان فى النيل معدية من صوان تعدى بالخيل تحمل فيها الناس وغيرهم من البر الشرقى بحلوان إلى البر الغربى » .

ويصف ابن دقماق بحيرة تنيس بأنها « قليلة العمق يسار فيها بالمعادى[4] ولا زالت تستعمل إلى الآن بين ضفتى النيل » .

وكانت الحكومة تحصل ضرائب مخصصة للمعديات التى تعبر النيل[5] فى أماكن كثيرة وخاصة فى الصعيد .

---

(١) قوانين الدواوين ص ٣٤٠

(٢) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٤٨٣

(٣) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٢١٠

(٤) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ٧٩

(٥) فى مصر الإسلامية « مقالة المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » ص ٣٣ و ص ٥١ و ص ٥٢ .

الباب الرابع

الخرائط

برع العرب فى توضيح معلوماتهم الجغرافية وخاصة عن تقويم البلدان بالخرائط المختلفة التى لابد منها لمساعدة دارسى الجغرافيا .

والخوارزمى هو أول من استعان بالصور فى كتابه « صورة الأرض » ، ومن هذه الصور خريطة للنيل تعتبر أول رسم عربى له ، وقد استعان الإصطخرى برسم الخرائط لتوضيح ما ذكر من معلومات فيقول ١ : « فاتخذت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يسلك صورة إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعض ، ومقدار كل إقليم من الأرض ، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلاً علم موقعه من هذه الصورة ، ولم تتسع هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم فى صورته ، من مقدار الطول ، والعرض ، والاستدارة ، والتربيع ، والتثليث ، وسائرما يكون عليه أشكال تلك الصورة ، فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ، ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الإقليم ، وما يقع فيه من المدن ، وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى » .

ووضع ابن حوقل الخرائط لتوضيح الأقاليم المختلفة فيقول ٢ : « وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلاً يحكى موضع ذلك الإقليم » .

بل إن المقدسى بز غيره فى عمل الخرائط الملونة فيقول ٣ عن الأقاليم التى ذكرها :

« ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة ، وبحارها المالحة بالخضرة ، وأنهارها المعروفة بالزرقة ، وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف إلى الأفهام ويقف عليه الخاص والعام . »

فهو قد استعمل الألوان فى تلوين خرائطه الجغرافية بمثل ماتستعمل فى الخرائط الحديثة .

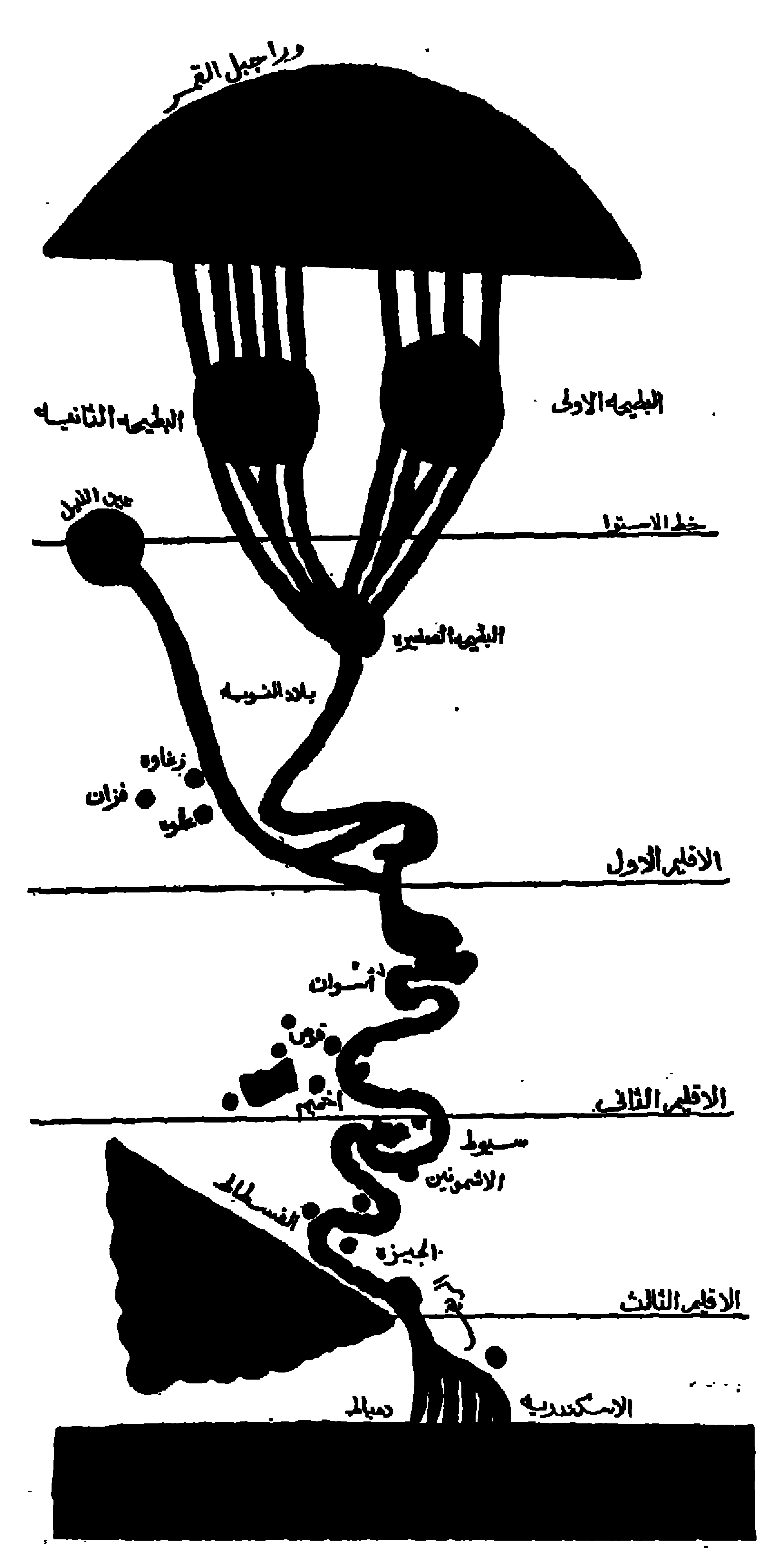
أما الإدريسى فيعتبر بلا جدال من أعظم راسمى الخرائط الجغرافية فى العصور الوسطى .

---

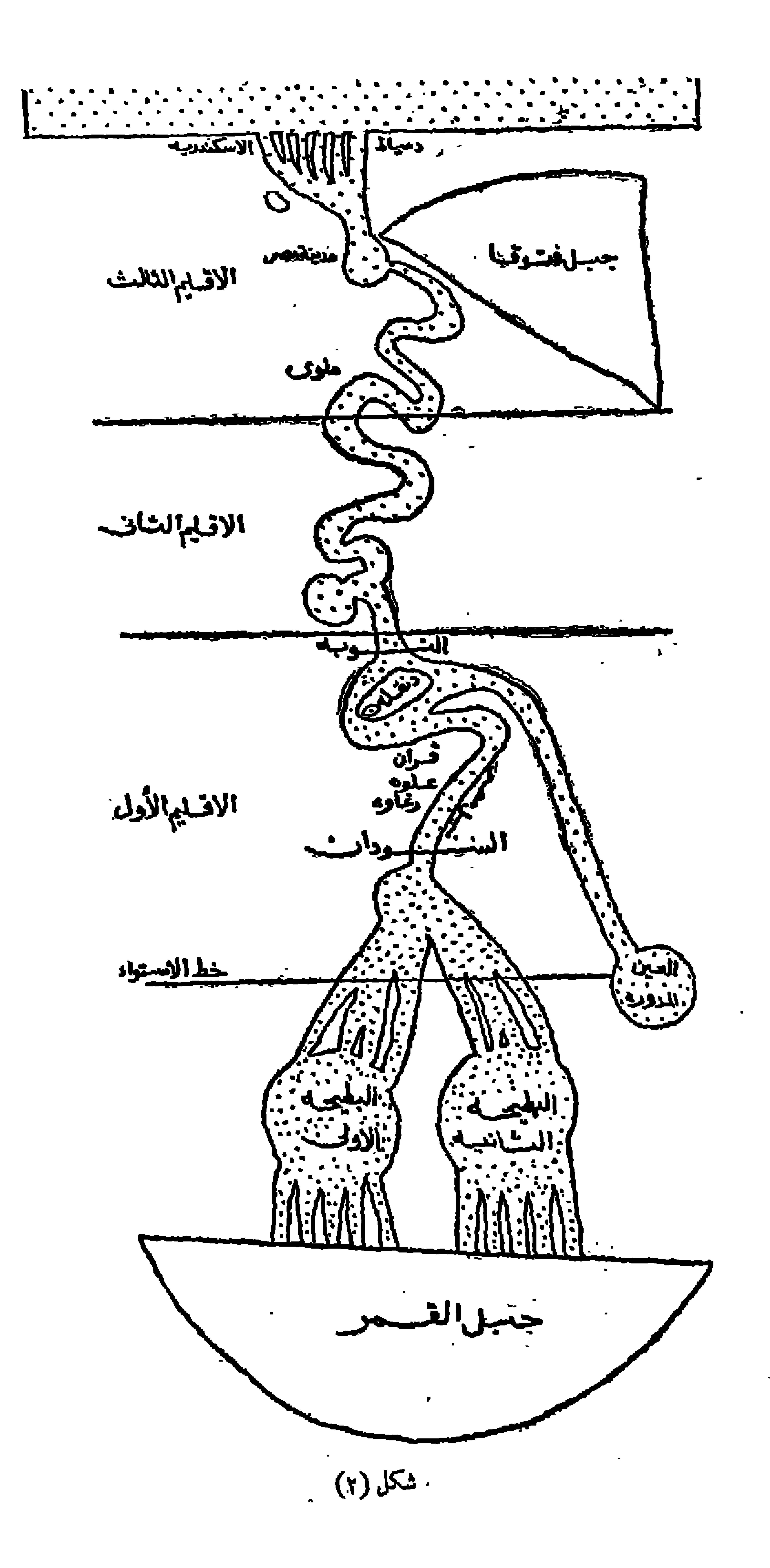
(١) مسالك الممالك ص ٣

(٢) صورة الأرض ص ٣

(٣) أحسن التقاسيم ص ٩


ورا جبل القمر
البطيحة الثانية
البطيحة الاولى
عين النيل
خط الاستوا
البطيحة الصغيرة
بلاد النوبة
زغاوة
فزان
الاقليم الاول
أسوان
قوص
اخميم
الاقليم الثاني
سيوط
الاشمونين
الفسطاط
الجيزة
الاقليم الثالث
الاسكندرية
دمياط

شكل (١)



الاسكندريه
دمياط
جبل فتوقيا
مدينة قوص
الاقليم الثالث
ملوى
الاقليم الثاني
النوبه
دنقله
قران
علوه
زغاوه
الاقليم الأول
السودان
خط الاستواء
العين المدوره
البطيحه الأولى
البطيحه الثانيه
جبل القمر

شكل (٢)

ويرى الأستاذ عباس محمود العقاد : أنه « من الخرائط المرسومة والآراء النظرية التي نقلت عن العرب تلقى كولومبس صورته عن الكرة الأرضية » ويخرج من ذلك أن العرب لهم الفضل الأكبر في اكتشاف أمريكا [١] . هذا وإن لم يكونوا — كما يرى البعض — قد اكتشفوها قبل كولومبس [٢] .

ولكن مما يؤسف له : أن أغلب الخرائط التي وضعها الجغرافيون العرب قد فقدت : وحتى التي وصلتنا ليست الخرائط الأصلية التي وضعها المؤلفون ، بل هي من نقل النساخ الذين نسخوا مؤلفات هؤلاء الكتاب ؛ فمثلاً كتاب الخوارزمي « صورة الأرض » الذي بين أيدينا منقول عن نسخة كتبت في شهر رمضان سنة ٤٢٨ هـ [٣] ، وينطبق ذلك أيضاً على المؤلفات الأخرى ، فإنها لم تصل إلينا إلا وقد نسخت أكثر من مرة . ووجه الخطورة هنا : أن يكون الناسخ غير خبير برسم الخرائط فيأتي الرسم مغايراً لما رسمه المؤلف ، كما أننا لا يمكننا أن نرجع — ونحن واثقون — أي خطأ في الرسم أو عدم مراعاة لمقاييس الرسم إلى المؤلف الأصلي ، مادمنا لا نستطيع أن نبرئ الناسخ ، وعلى كل فإن هذه الخرائط مهما نالها من تغيير فإنها تعكس روح المؤلف الأصلي ، والخرائط التي رسمها المؤلفون العرب لنهر النيل والتي وصلت إلينا تنقسم إلى قسمين ، خرائط تصور النهر كله من منبعه إلى مصبه ، وخرائط أخرى تختص برسم مجراه في مصر فقط ، والخرائط الكاملة للنيل التي سنتعرض لها هي خرائط الخوارزمي ، وابن سيرابيون والإدريسي ، وعز الدين ابن جماعة ، والسيوطي .

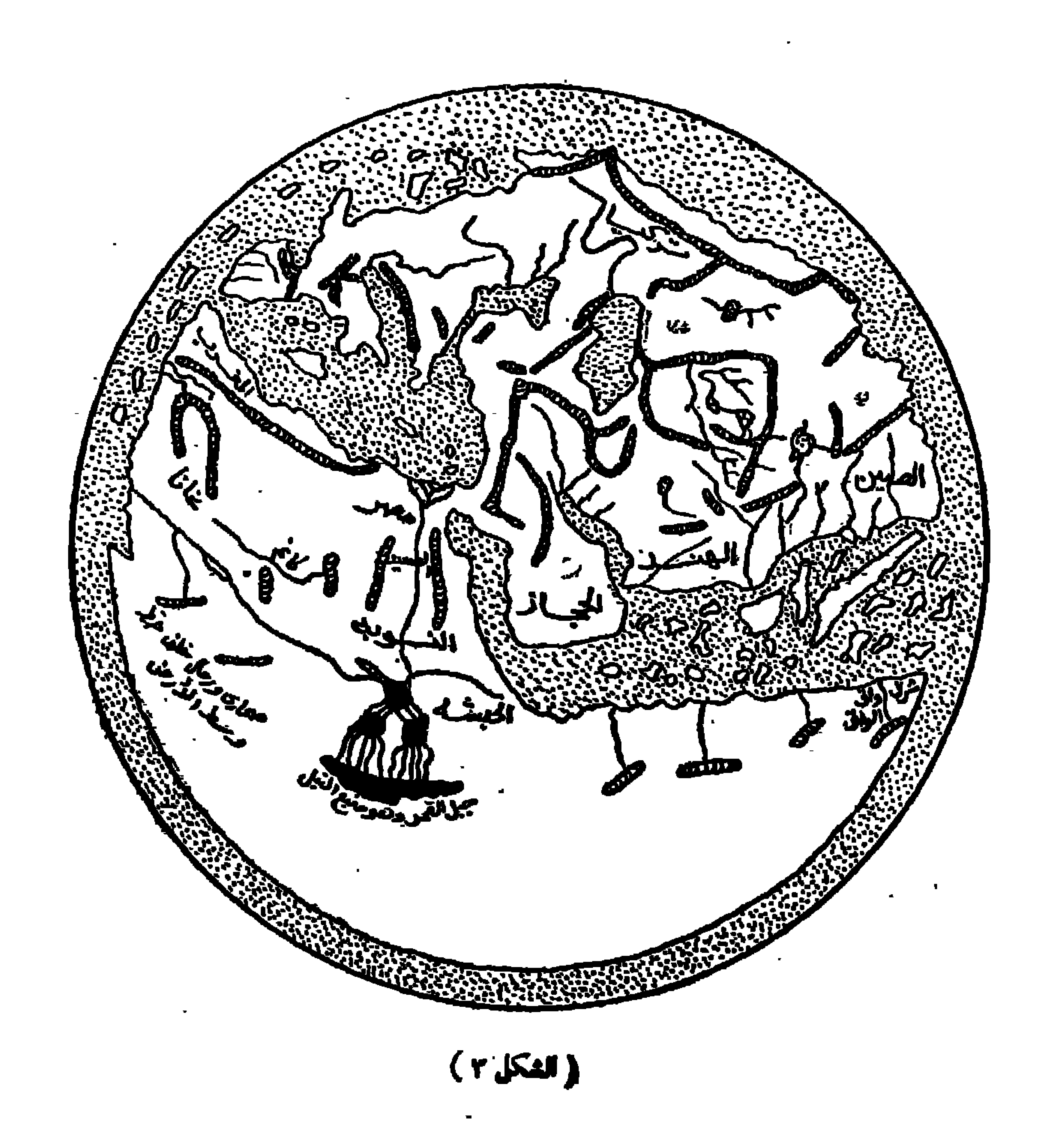
وخريطة الخوارزمي (الشكل ١) هي أقدم هذه الخرائط جميعها ، ولكن لما كانت خريطة ابن سيرابيون (الشكل ٢) تكاد تكون صورة طبق الأصل لخريطة الخوارزمي فيما عدا بعض الاختلاف ، فإننا سندرسهما معاً ذاكرين الخلاف بينهما ، وفي الخريطتين يظهر جبل القمر الذي منه منابع النيل ، والأنهار العشرة التي تخرج منه لتصب كل خمسة منها في بطيحة وراء خط الاستواء ، ونلاحظ أنه بينما لم يظهر في رسم الخوارزمي إلا أربعة أنهار فقط تصب في البطيحة الأولى ، وخمسة تصب في البطيحة الثانية ، فإن ابن سيرابيون قد بين الأنهار العشرة ، ويخرج من كل بطيحة أربعة أنهار لتصب كلها في بطيحة ثالثة أصغر شمال خط الاستواء ، ويظهر في كلا الرسمين اتصال النهر الثاني بالنهر الثالث في كل مجموعة ليكونا نهراً واحداً قبل وصولهما للبطيحة الثالثة ، ومن هذه البحيرة

---

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية ص ٤٧

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٤٦

(٣) صورة الأرض ص ١٦٢ وانظر الصورة الفوتوغرافية رقم ٥ بنفس الكتاب



(الشكل ٢)

الأخيرة يخرج نهر النيل ماراً بالسودان ، وعلوة ، وزغاوة ، وفزان والنوبة ، وعند دنقلة يتصل بالنيل نهر قادم من الجنوبى الشرقى ينبع من بحيرة على خط الاستواء .

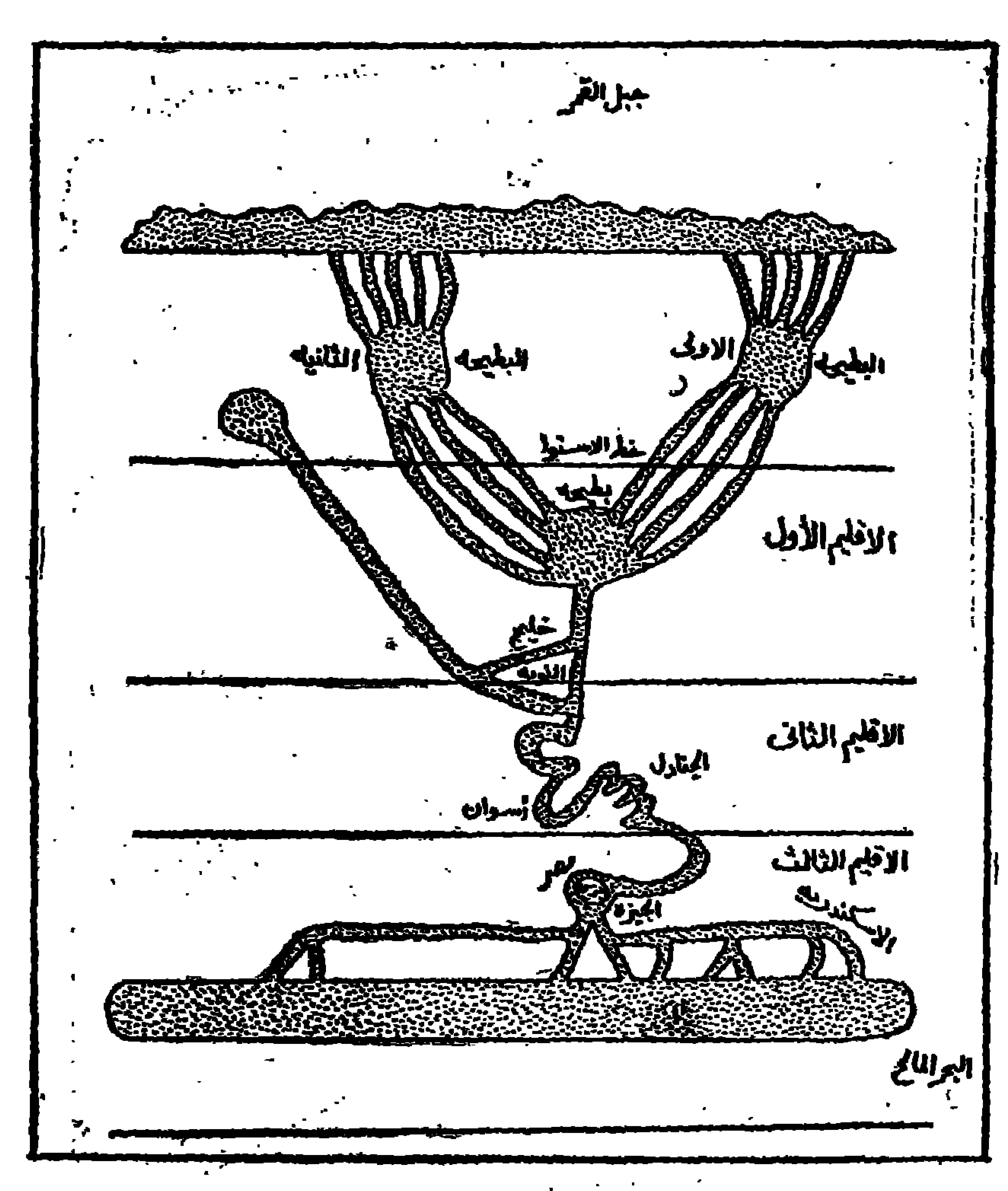
وقد وضع ابن سيرابيون السودان فى مكانها الصحيح على الخريطة ، فى حين لم يبينها الخوارزمى فى خريطته . كذلك نجد النوبة فى خريطة ابن سيرابيون فى موضعها الصحيح بينما تظهر فى خريطة الخوارزمى بين النيل ورافده ، وإلى الجنوب كثيراً من مكانها الصحيح . نلاحظ أيضاً الاختلاف فى وضع فزان ، وعلوة ، وزغاوة ، فالخوارزمى يضعها على الرافد الشرقى فى حين يضعها ابن سيرابيون على المجرى الرئيسى للنيل ، وهو فى ذلك أقرب إلى الصحة من الخوارزمى ، وإن كان الاثنان قد أخطآ فى بيان مكان علوة إذ أنها — بناء على وصف ابن سليم الأسوانى — تقع عند اتصال النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، أى مكان الخرطوم الحالية ، وهى بذلك تكون على الشاطئ الشرقى لعمود النيل .

ويهمنا أن نذكر : أن الخوارزمى ، وابن سيرابيون قد وضحا فى رسميهما انحناءة النيل الكبرى فى السودان بطريقة قريبة إلى الدقة ، ووضعا دنقلة فى موضعها الصحيح ، وإن أخطآ فى بيان مكان اتصال النيل برافده الشرقى .

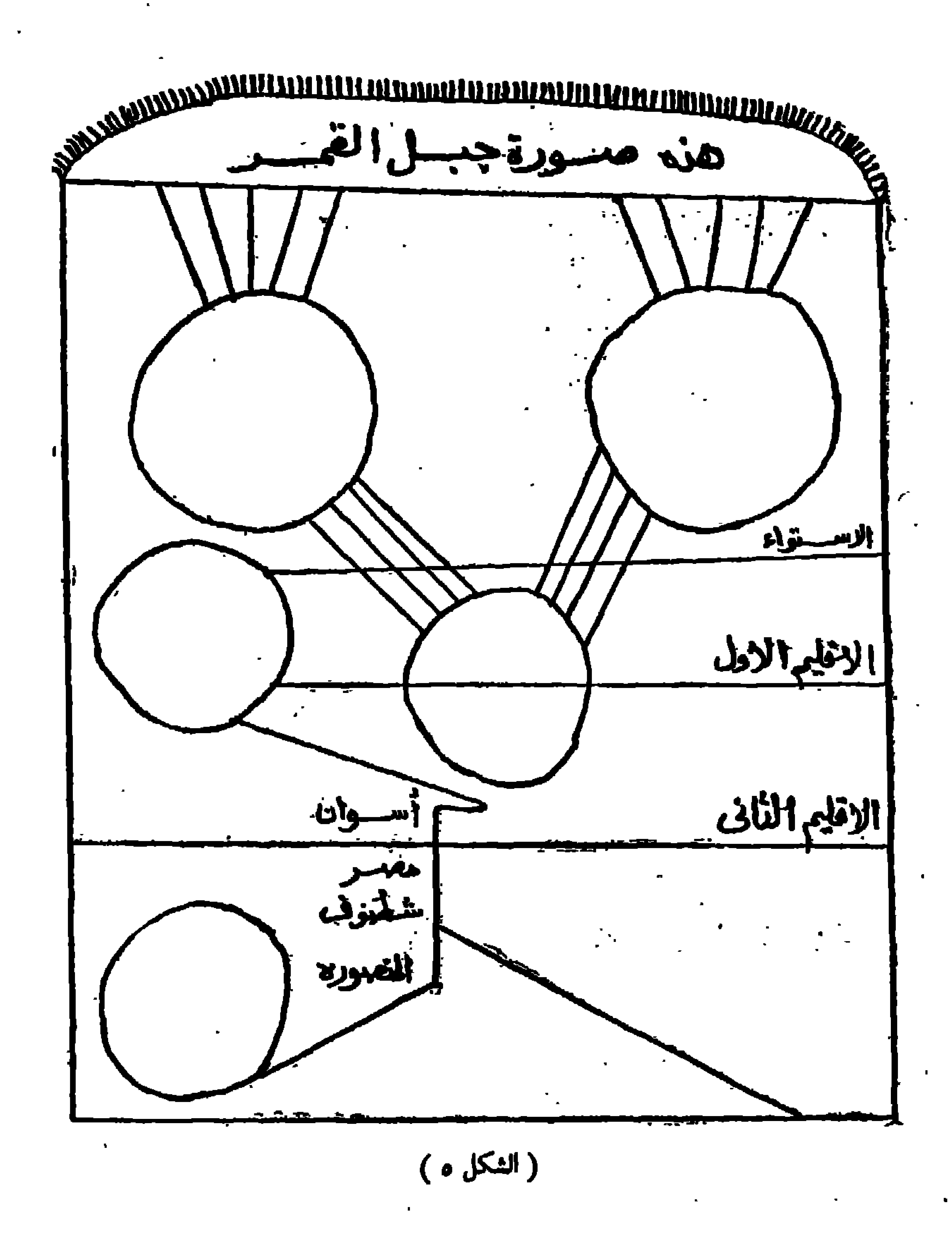
وبعد دنقلة يتجه النهر إلى الشمال ليدخل مصر ماراً بأسوان ، وقوص وإخميم ، وأسيوط والأشمونين ، وهذه المدن لم يذكرها إلا الخوارزمى ، فى حين لم يضع ابن سيرابيون إلا مدينة ملوى فقط ، ويظهر جبل المقطم أو جبل فتوقا — كما يذكر ابن سيرابيون — وقد اقترب النيل منه كثيراً حتى يصل إلى الفسطاط ، وقد وضع الخوارزمى الفسطاط إلى الجنوب من مكان تفرع النيل بكثير ، فى حين وضعها ابن سيرابيون عند مكان تفرع النيل مباشرة ، وسماها مدينة مصر .

أما عن فروع النيل فى الدلتا : فبالرغم من أن الاثنين يذكران سبعة أفرع للنيل فإنهما لم يوضحا فى الرسم إلا ستة من هذه الفروع فقط ، وجعلا مصباتها بين دمياط . والإسكندرية

أما خريطة الإدريسى (الشكل ٣ التى رسمها للعالم ، فقد ظهر فيها مجرى النيل ومنابعه العشرة من جبل القمر ، والتى تصب فى بحيرتين جنوب خط الاستواء . ويخرج من كل بطيحة ثلاثة أنهار لا أربعة تصب كلها فى بطيحة كبيرة تقع على نفس خط الاستواء ، وليس شماله كما ظهر فى الرسمين السابقين ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يتجه أحدهما إلى الغرب ليصب فى المحيط ، أما النهر الآخر فهو نيل مصر ، ويخرج من النيل بعد تركه البحيرة بقليل نهر يتجه إلى الشرق لعله النهر أو الخليج الذى ذكره المسعودى من قبل ، فإذا اتبعنا الرأى القائل : أن البطيحة الثالثة تقابلها الآن بحيرة نو ، يكون هذا النهر هو السوباط ، ويكون النهر الغربى بحر الغزال .


جبل القمر
البطيحة الثانية
البطيحة الأولى
خط الاستواء
بطيحة
الإقليم الأول
خليج
الإقليم الثاني
الجنادل
أسوان
الإقليم الثالث
مصر
الجيزة
الإسكندرية
البحر المالح

(الشكل ٤)


هذه صورة جبل القمر
الاستواء
الاقليم الاول
الاقليم الثانى
أسوان
مصر
شطنوف
المضورة

(الشكل ٥)

وقد وضع الإدريسى الحبشة فى مكانها الصحيح شرق النيل ، ولكنه لم يوضح انحناءة النيل الكبرى ، كذلك لم يبين فى الرسم النهر الذى ذكره فى وصفه ، ويأتى من الشرق مخترقاً الحبشة ليتصل بالنيل عند بلاق .

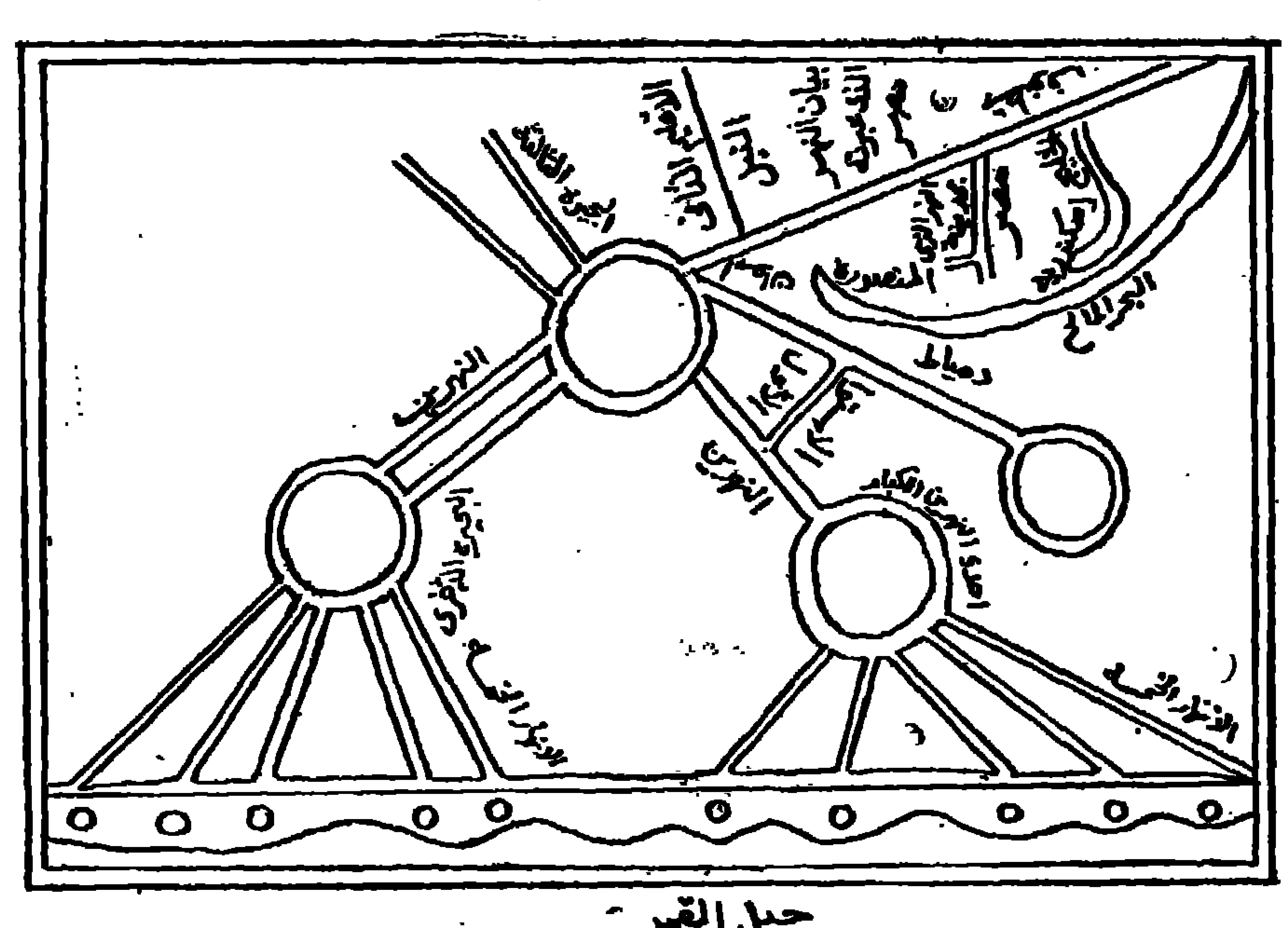
وفى سنة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) أرفق ناسخ كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل رسماً للنيل لا يختلف كثيراً عن رسم الخوارزمى ، وقد أوضح به جبال القمر ، وأنهاره العشرة وبطيحاته الثلاث ، ولكن بينما فى رسم الخوارزمى ، ووصفه يلتقى النهران الثانى والثالث فى كل مجموعة . من الأنهار الثمانية التى تخرج من البطيحتين الكبيرتين ، إلا أنها ظهرت فى هذا الرسم منفصلة عن بعضها ، ولكل منها مصب منفرد ، كما أن هذا الرسم لم يوضح انحناءة النيل فى السودان ، وبعد دخول النيل مصر نجد : أن الرسم يظهر مجراه وقد اتجه بعد أسوان إلى الغرب مسافة طويلة ، ثم إلى الشمال ، فالشمال الشرقى ، حتى يصل إلى الفسطاط ، كما أنه لم يوضح — بدقة — فروع النيل فى الدلتا (الشكل ٤) .

وفى القرن التاسع الهجرى نجد رسمين للنيل ، أحدهما لعز الدين بن جماعة ، والآخر للسيوطى ، والاثنان ليسا من الجغرافيين ، فالأول فقيه ، والثانى مؤرخ ، لذلك جاء رسمهما وقد خلا من الدقة كما لم تراع فيهما مقاييس الرسم .

وقد وردت خريطة ، ابن جماعة فى مخطوط الحجازى « نيل الرائد » والموجودة نسخة فى دار الكتب برقم ١٣٠ بلدان تيمور ، كما أرفقت ضمن رسالة فى « منبع النيل » الموجودة ضمن مجموعة خطية بمكتبة بلدية إسكندرية رقمها ١٦٢٧ ب ، وهذه الخريطة الأخيرة وإن لم يذكر اسم صاحبها إلا أن مطابقة الرسم والوصف الذى ذكر معها لما جاء فى مخطوط الحجازى منسوباً لابن جماعة يدل بما لا يدع مجالاً للشك أن الرسم له .

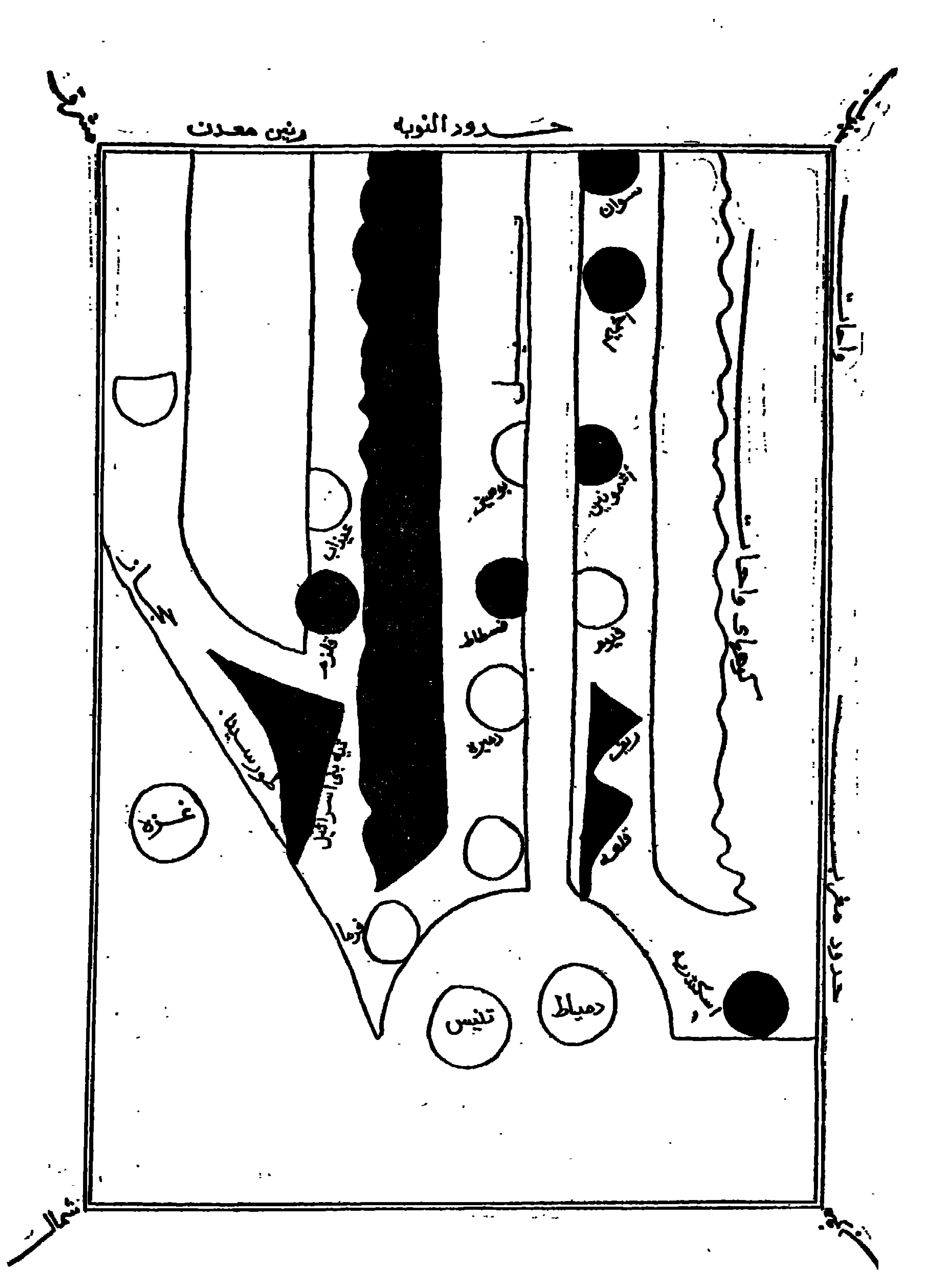
ولا يتفق رسم ابن جماعة (الشكل ٥) مع غيره من الخرائط السابقة إلا فى بيان جبل القمر ، والبطيحات الثلاث ، والأنهار التى تصب فيها ، كذلك رسم النهر الآتى من الشرق . أما مجرى النيل فى النوبة ومصر ، فبعيد كل البعد عما جاء فى هذه الخرائط ، فنلاحظ : أن السودان والنوبة لم يظهرا فى هذا الرسم ، بل جعل أسوان إلى الشمال بقليل من البحيرة الثالثة ، إلا أنه أظهر تفرع النيل عند شطنوف إلى فرعين : الأول يتجه إلى الغرب ولم يذكر اسمه على الرسم ، والآخر هو الفرع الشرقى ، وقد ظهر متجهاً إلى الشمال حتى يصل إلى المنصورة فينحرف إلى الشمال الشرقى ليصب فى بحيرة لعله يقصد بها بحيرة تنيس ، ويكون بذلك قد أغفل الفرع الذى يصب عند دمياط .

وهذا الرسم على كل حال خير من رسم السيوطى (الشكل — ٦) الذى وإن بين فى

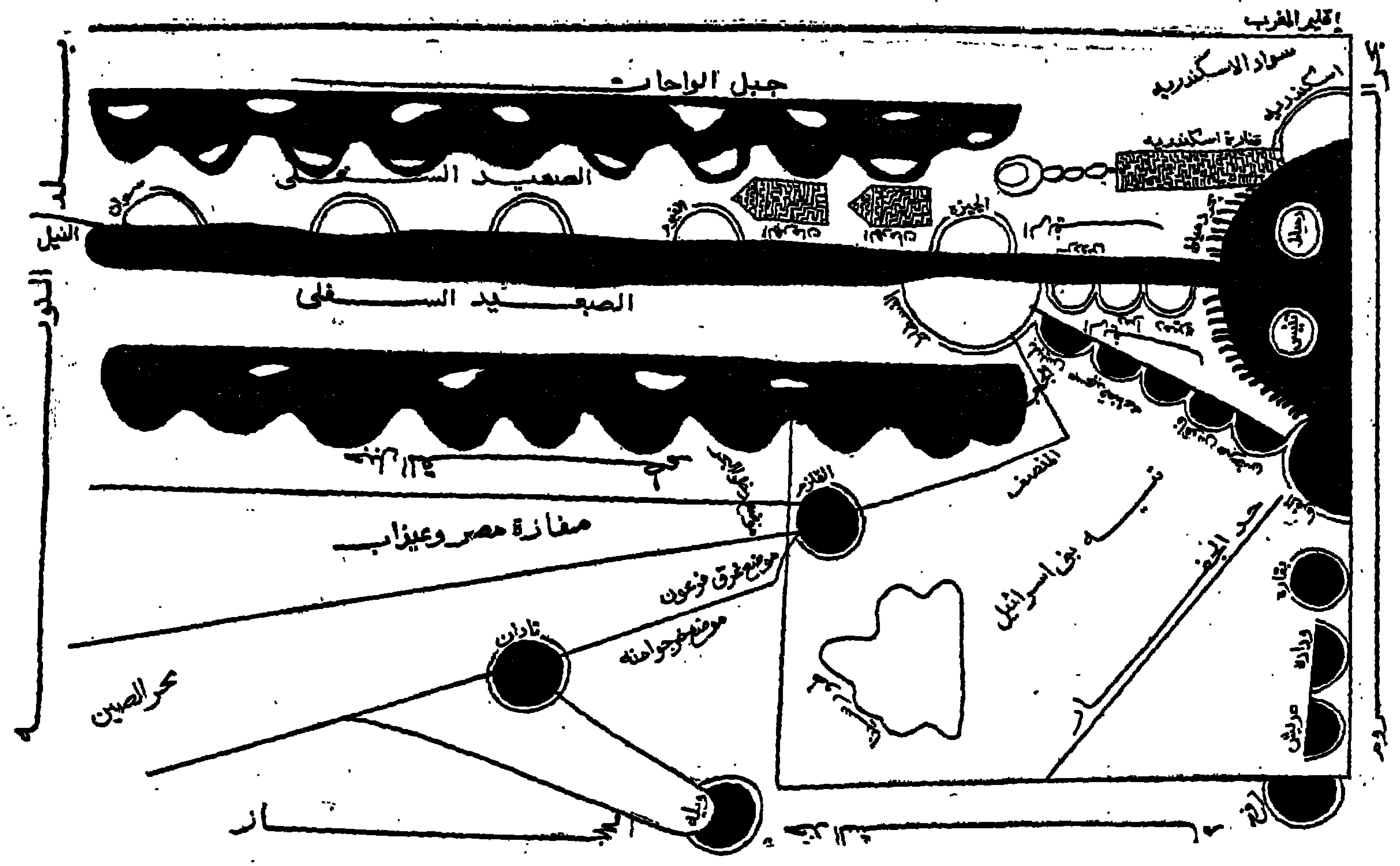


جبل القمر

(الشكل ٦)


حدود النوبة
سوان
إخميم
أشمونين
فيوم
عيذاب
فسطاط
دميرة
غزة
فرما
تنيس
دمياط
اسكندرية
طور سينا
تيه بني اسرائيل

(الشكل ٧)



اقليم المغرب
سواد الاسكندرية
اسكندرية
منارة اسكندرية
جبل الواحات
النيل
اسوان
الفيوم
الجيزة
الصعيد السفلى
مفازة مصر وعيذاب
القلزم
موضع غرق فرعون
بحر الصين
تيه بني اسرائيل
حد الجفار
بقارة
ورادة
عريش

(الشكل ٨)

رسمة جبال القمر والأنهار العشرة التي تخرج منه لتصب في بحيرتين ، إلا أنه اختلف مع الخوارزمي في أنه لم يظهر إلا نهرين فقط يخرجان من كل بحيرة الثالثة ، كما أنه جعل مصب النهر الآتي من الشرق في هذه البحيرة ، وليس في النيل عند النوبة .

والسيوطي في رسمه مثل ابن جماعة ، لم يبين النوبة فقد جعل أسوان إلى الشمال مباشرة من البحيرة الثالثة ، كما جعل موضع المنصورة ودمياط شمال أسوان ، ورشيد شمال الإسكندرية وجعل اتجاه خليج الإسكندرية بعدخروجه من فرع رشيد إلى الشرق ، وليس إلى الشمال الغربي كما هو الواقع ، كذلك جعل مخرج فرع دمياط من فرع رشيد قرب مصبه .

ورسم السيوطي لا يمثل حتى ولا رأى السيوطي الذي ذكره عند وصفه للنهر .

نخرج من ذلك : أن فن رسم الخرائط عند العرب ، والذي بلغ أوجه في زمن الإدريسي قد بلغ من الضعف والتدهور حداً لم يعد يراعى فيه دقة النقل ولا مراعاة لمقاييس الرسم .

فإذا انتقلنا إلى الخرائط التي رسمت لمجرى النيل في مصر فقط ، نجد لدينا ثلاثاً رسمها الإصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، وجميعهم من رجال القرن الرابع الهجري .

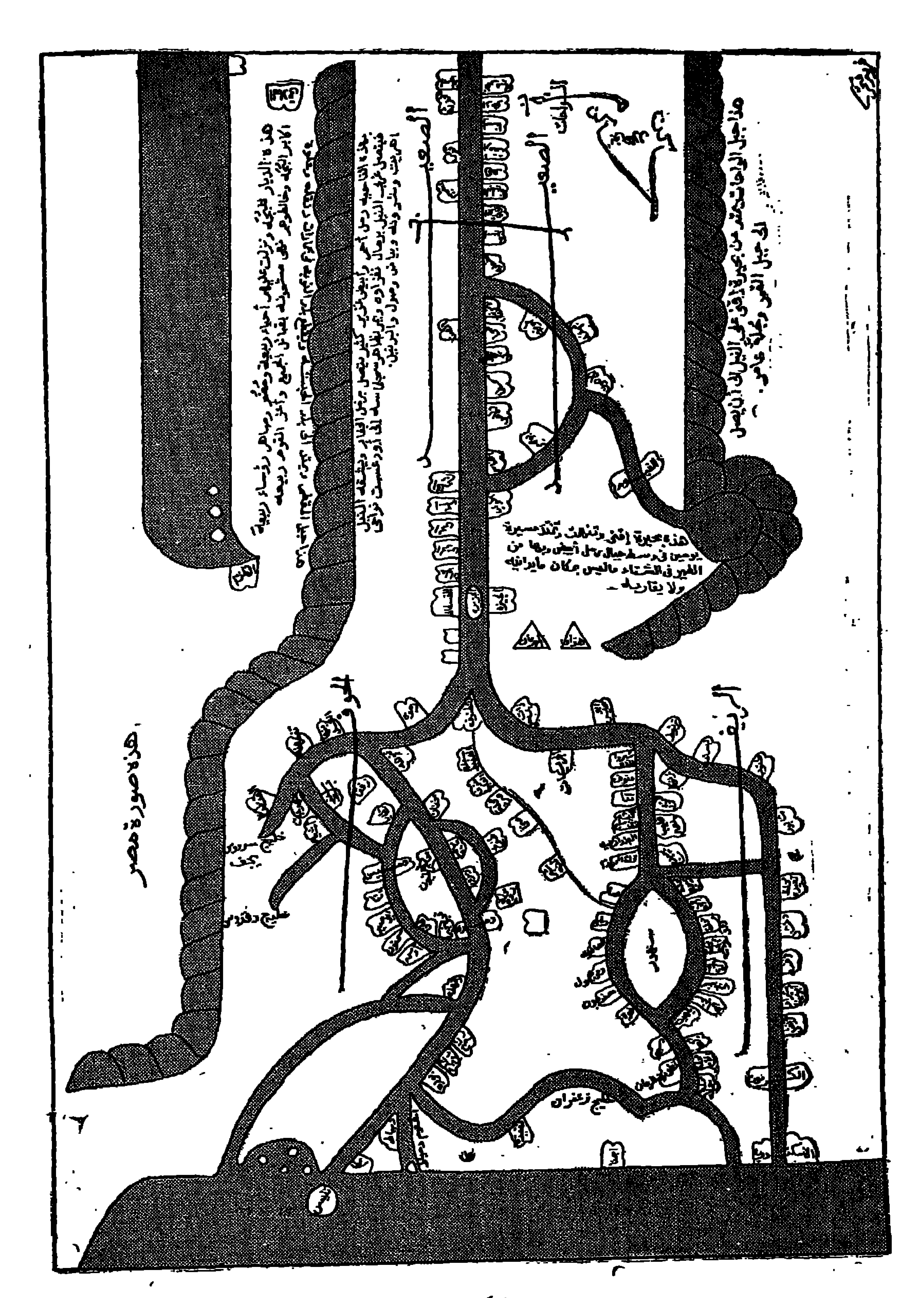
وقد وردت خريطتا الاصطخري (الشكل ٧) والمقدسي (الشكل ٨) ضمن مؤلف يوسف كمال « «Monumenta, T. III. Epoquearabe» [1] » ولكنهما لم تردا في مؤلفيهما المطبوعين ، والرسمان متشابهان إلى حد كبير ، ويرجح أنهما مأخوذان عن أصل واحد ، وقد ظهر في الرسمين مجرى النيل في الصعيد يحده من الجانبين الهضبتان الشرقية والغربية ، وقد ظهرت الفيوم على مجرى النيل نفسه ، وإن ظهرت في خريطة المقدسي إلى الجنوب من الفسطاط على الشاطىء الغربي ، في حين وضعها الإصطخري أمام الفسطاط ، ولم يبين كلا الرسمين خليج المنهى .

وقد ظهرت الدلتا وفي وسطها . دمياط وتنيس ، وعلى جانبيها الإسكندرية والفرما ، ولكنهما لم يبينا فروع النيل فيها .

أما خريطة ابن حوقل (الشكل ٩) فتختلف كل الاختلاف عن خريطتي الإصطخري والمقدسي ، فهي توضح — بكل دقة — مجرى النيل كما كان معروفاً وقتئذ ، فإذا تتبعنا النيل عند دخوله مصر عند أسوان يتجه شمالاً تحده الهضبتان الشرقية والغربية ، ويمر بكثير من المدن مثل إدفو وإسنا ، وأرمنت ، والبلينا ، وأبو تيج ، وأسيوط والأشمونين ، وغيرها ، ولكنه لم يراع المسافات بين هذه المدن فجعلها لصق بعضها .

---

(١) p. 614 — 672



(الشكل ٩)

ويخرج من النيل عند الأشمونين خليج يتجه إلى الفيوم هو بلا شك المنهى ، وإن لم يذكر اسمه ، ويمر هذا الخليج على اللاهون والفيوم ، ويصب فى بحيرة أطلق عليها اسم بحيرة أقنى وتنهمت ، ويخرج من النيل أمام اتفيح (اطفيح) خليج آخر يتصل بهذا الخليج عند ، اللاهون . وهو بذلك يجعل للمنهى مخرجين من النيل عند الأشمونين وأطفيح ، وينطبق رسم الخليج — بهذا الوضع — على وصف ابن عبد الحكم لخليج المنهى ، وكيف أن النبى يوسف حفر ثلاثة خلجان ، أحدهما يخرج من النيل فى أعلى الصعيد إلى الفيوم ، والثانى يتجه من الفيوم شرقاً إلى النيل ، والثالث يتجه غرباً عند تنهمت .

كما أنه مر بنا فيما سبق فى وصف الإدريسى خروج هذا الخليج من النيل عند بلدة صول ، وهو قد أخطأ فى تحديد مكان صول هذه ، فجعلها إلى الجنوب عند سوهاج الحالية ، ولكن صول فى الحقيقة تقع عند أطفيح ، فكأن ابن حوقل يتفق مع الإدريسى فى : أن خليج المنهى — أو على الأقل — خليج آخر يتصل به يخرج عند صول ، ولكنه وضع صول فى مكانها الصحيح وإن لم يذكرها بالتحديد.

وعند شطنوف يتفرع النيل إلى فرعى رشيد ودمياط ، وقد وضح الرسم الفروع الصغيرة التى تتفرع من هذين الفرعين والتى عنى هو والإدريسى بوضعها [1] . فنجد فرع رشيد وقد خرج منه عند مدينة أبويحنس فرع يتجه شمالاً بشرق ثم ينعطف غرباً ليتصل بالفرع الرئيسى عند ببج ، كما أن خليج الإسكندرية يخرج من فرع رشيد إلى الشمال من شابور . وعند ببج أيضاً ينقسم هذا الفرع مرة أخرى إلى فرعين يتجهان شمالاً ويعاودا الاتصال عند بلهيب ، (العطف) وفوة ، والفرع الغربى منهما والذى يسميه فرع فرنوه يمر على فرنوه ومحلة مسروق ومحلة أبى خراشة ، وفيشة وسنديس إلى أن ينتهى إلى بلهيب ، والفرع الشرقى الذى يخرج من ببج يمر على صا ويعرف بفرع صا .

أما فرع دمياط فيتفرع منه أكثر من فرع وخليج ، فعند انتوهى يتفرع إلى فرعين : — ذكرهما الإدريسى [2] — وهذان الفرعان يلتقيان عند دمسيس ، وقد اختلف ابن حوقل والإدريسى فى ذكر أسماء البلاد التى تقع على الفرع الغربى ، فمدينة ببج مثلاً ذكر الإدريسى أنها على هذا الفرع فى حين أن ابن حوقل وضعها على فرع آخر إلى الشمال منه . وفى الشمال الشرقى من بنها يخرج من فرع دمياط خليج سردوس . وقرب المصب يتفرع هذا الفرع مرة أخرى إلى فرعين يتجه أحدهما إلى بحيرة تنيس ، ويظل

(١) أرجو الرجوع إلى الفصلين الخاصين بالمصب والخلجان .

(٢) انظر الفصل الخاص بالخلجان والمصب .

الآخر متجهاً إلى الشمال ليصب عند دمياط . وقد ظهر بالرسم خليج يخرج من النيل جنوب مدينة دمياط ، ويتجه إلى الشمال الشرقى ليصب فى بحيرة تنيس ، ولاشك أن هذا الخليج هو خليج دمياط الذى ذكره ياقوت [1] .

إلى جانب مجرى النيل نرى ابن حوقل يبين خليج القلزم ، والبحر الأحمر ؛ وفى نهايته من الشمال مدينة القلزم وهى السويس الحالية ، ونلاحظ أن موقع القلزم بالنسبة للفسطاط قد جاء مطابقاً لموقع السويس بالنسبة للقاهرة ، فكلاهما يقع على خط عرض واحد (خط عرض ٣٠° شمالاً) ، كما يظهر بالرسم ديار البجة بين البحر الأحمر وسلسلة الجبال الشرقية .

والذى لاشك فيه : أن خريطة ابن حوقل هى أدق الخرائط العربية على الإطلاق وتعتبر أوفى ما رسم عن مجرى النيل فى ذلك الوقت .

(١) انظر الفصل الخاص بالخلجان والمصب

الباب الخامس

المخطوطات العربية
التي تكلمت عن النيل

إلى جانب المؤلفات العربية التى تعرضت لدراسة النيل ضمن موضوعات جغرافية أخرى ، قام البعض بوضع مؤلفات اختصت بدراسة النيل كموضوع قائم بذاته أو على الأقل كموضوع أساسى إلى جانب بعض الموضوعات الثانوية .

ونلاحظ على هذه المؤلفات :

ا – أن أغلبها ما زال مخطوطاً .

ب – أنه بالرغم من تخصصها فى موضوع واحد ، فإنها بوجه عام لم تأت بجديد ، وكل ما حوته من معلومات مستمد من المؤلفات الأخرى مع تفاوت فى الإطالة والاختصار والتقدم والتأخير .

حـ – إن أكثرية هذه المؤلفات ابتدأ ظهورها منذ أواخر القرن الثامن الهجرى وهى الفترة التى نشط فيها إنتاج المدرسة التاريخية المصرية والتى اهتمت بوجه خاص بكل ما يتعلق بمصر ونيلها .

وفيما يلى عرض موجز للمخطوطات التى تيسر لى الاطلاع عليها ، مصنفة تاريخياً تبعاً للمؤلفين .

١ – ابن رضوان

على بن رضوان بن على بن جعفر المصرى ولد وعاش فى القاهرة فى عصر الخليفة الحاكم ،وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية فى ترجمتهالا بن بطلان، أنهماتقابلا فى مصر سنة (٤٤٠ هـ–١٠٤٩م) وقامت بينهما مساجلات عنيفة . وتوفى ابن رضوان سنة (٤٦٠ هـ–١٠٦٨ م) (ب) .

ولابن رضوان هذا مخطوط بعنوان « فوائد شتى فى زيادة النيل ونقصه على الدوام » توجد منه نسخة بمكتبة الجامعة بالإسكندرية وتحت رقم ٢٥ مخطوطات ، وقد نقلت هذه النسخة سنة ١٩٢٦ م عن نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٣ مجاميع والتى يرجع تاريخ نسخها على ما يرجح إلى ما بعد سنة ١١٤٨ هـ ١ .

---

(١) استندنا فى تحديد هذا التاريخ إلى جملة جاءت فى هامش ص ٣ نسخة إسكندرية حيث ذكرت فيضان النيل سنة ١١٤٨ هـ . وهى جملة أضافها الناسخ .

(ا) الخليفة الحاكم من ٣٨٦ – ٤١١ هـ

(ب) بروكلمان

وقد نقل المقريزى عن ابن رضوان عند الكلام عن الفيضان وكيفية التنبؤ بمقداره ، وأطلق على مؤلف ابن رضوان اسم « شرح الأربعة » [1] .

وهذا المخطوط يبحث فى أمر العلاقة بين حالة الفيضان من زيادة أو نقص وبين المنزلة التى تكون فيها بعض الكواكب فى زمن الفيضان كالمريخ وعطارد والزهرة والقمر ، وهو ينقل عما أسماه « المقالات الأربعة لبطليموس » ومن كتاب أبى معشر [2] فى الأمطار .

ونكتفى بما ذكرناه بصدده عند الكلام عن التنبؤ بحالة الفيضان فى الفصل الأول من الباب الثالث .

٢ — الأقفهسى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

أحمد بن عماد بن يوسف بن عبد النبى الشهاب أبو العباس الأقفهسى ثم القاهرى الشافعى ، ويعرف بابن العماد . أحد أئمة الفقهاء الشافعية كثير الاطلاع والتصانيف دمث الأخلاق . أخذ عن الجمال الأسنوى ، وحضر مجلس السراج البلقينى ، وسمع على خليل بن طرقطاى الدوادار الزينى كتبغا صحيح البخارى ، وحضر مجالس كثير من العلماء ، وتقدم فى الفقه كما برع فى الشعر . وقيل فيه .

إمام محب ناشئ متصدق ... مصل وباك خائف سطوة الباس

يظلهم الرحمن فى ظل عرشه ... إذا كان يوم الحشر لاظل للناس [3]

وقد ألف الأقفهسى كتاباً عن النيل يوجد فيه أكثر من نسخة خطية بعناوين مختلفة نتيجة لتعدد النساخ . ومن هذه النسخ :

ا — « نيل مصر وأهرامها » ، وهى رسالة ضمن مجموعة بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم ١٦٢٣ ب ، وقد تم الفراغ منها فى رمضان سنة ٧٨٠ هـ أى فى حياة المؤلف نفسه .

ب — رسالة بعنوان « هذا كتاب يذكر فيه خبر النيل من أين يخرج من الأرض ، وفى أى مكان يذهب ، وسبب تكدره ، وخضرته فى أيام زيادته ، وفى أى مكان

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٦٧

(٢) أبو معشر الفلكي هو : أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى المنجم ١٨٩–٢٧٢هـ - ٨٠٥–٨٨٥ م — معجم المطبوعات جـ ٢ ص ٣٤٦ .

(٣) السخاوى — الضوء اللامع جـ ٢ ص ٤٧

تذهب زيادته إذا نقص » وذكر فى نهايتها أنه فرغ من نسخها يوم الأربعاء ثالث عشر رجب سنة ١٠٣٨ هـ ، وهذه الرسالة ضمن مجموعة أخرى بمكتبة بلدية الإسكندرية رقمها ٧٥٦ د .

جـ — « كتاب فى ذكر بحر النيل ومايتعلق به » نسخة بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم ٢٠٧ الإمبابى ٤٨٨١٥ ، وقد ذكر على يسار عنوانها بالصفحة الأولى أنها كتبت برسم مصطفى جودجى من دمياط سنة ١١٠٩ هـ .

د — « كتاب القول المفيد فى النيل السعيد » نسخة فرغ منها سنة ١٢٦٦ هـ وتوجد بمكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم ٤٩٣٩ د .

وبدراسة هذه النسخ الأربعة يتضح أنها — بالرغم من اختلاف أسمائها — لمؤلف واحد ، ولما كانت النسخة الأولى قد كتبت فى حياة المؤلف فيمكن اعتبارها المخطوط الأصلى ، ويكون العنوان الذى وضعه المؤلف لمصنفه هو « نيل مصر وأهرامها » . أما العناوين الأخرى فمن وضع النساخ .

وتختلف النسخة الأصلية عن النسخ الثلاث الأخرى فى بعض التعديلات — التى لا أهمية لها فى ترتيب الفصول ، وإن كان هذا الاختلاف يجعلنا نرجح : أن هذه النسخ الثلاث التى تتفق فيما بينها فى ترتيب فصولها ، نقلت عن نسخة أخرى غير هذه النسخة الأصلية .

وقد بين الأقفهسى فى مقدمة كتابه ، الدافع له على تأليفه إذ يقول : « ولما كان إقليم مصر مشتملاً على فوائد عجيبة استخرت الله تعالى فى أن أجمع فيه من نفيس الغرائب مالا ينبغى لذوى العلم إهمالها ، ولا لساكن مصر إغفالها ، وكيف وكلهم أو أكثرهم لو سئل عن نهر النيل من أين يخرج من الأرض ، وفى أى مكان يذهب ، ولو سئل عن طوله وعن سبب تكدره وخضرته فى وقت الزيادة ، ومن أين تمده الزيادة ، وفى أى مكان تذهب زيادته إذا نقص لما أجاب عن ذلك ، وأنا إن شاء الله تعالى مبين لجميع ذلك قاصداً فيه الاختصار » .

ثم قسم موضوعه إلى فصلين ، خصص الأول منهما لرواية الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية المتصلة بالنيل ، وما روى عن فضائل النيل ومصر ، ومن نزلها من الأنبياء والمرسلين ، وغيرهم من عظماء الرجال ، وما فيها من مواضع مقدسة ، وما فى النيل من أعاجيب من أنواع الحيوان . أما الفصل الثانى ، الذى قسمه بدوره إلى فصول أخرى فيشمل الكلام « عن المكان الذى يخرج أصل النيل منه ، والمكان الذى يذهب فيه ، وبيان سبب خضرته ، والمقاييس المجعولة عليه وغير ذلك » .

وقد ذكر منابع النيل من جبل القمر ومجراه فى السودان حتى يصل إلى الجنادل بأسوان ، وتفرعه فى الدلتا حتى يصب فى البحر .

ثم يتكلم عن مقاييس النيل قبل وبعد الإسلام ، والفيضان وسببه ، ثم يختتم كلامه عن النيل بفصل فى « المكان الذى يذهب فيه ماء النيل » وأنه بعد انصبابه فى البحر ينتهى إلى مواضع معينة ثم يرتفع بخاراً مكوناً الغمام الذى يسوقه الله إلى حيث يريد .

وكان من المنتظر وقد ألف الأقفهسى كتابه عن النيل خاصة ، أن يأتى بمعلومات جديدة أو يعالج الموضوع بتوسع مثلما عالجه المقريزى مثلاً وهو معاصر له ، ولكن كل ما أورده المؤلف من معلومات نقلها عن الكتب السابقة ، ففى الفصل الأول الخاص بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، اعتمد المؤلف على ابن عبد الحكم ، والكندى ، وابن زولاق ، وفى الفصل الثانى لم يكن أكثر من ناقل عن مروج الذهب للمسعودى .

ولم يتعرض الأقفهسى لوصف النيل فى مصر ، وذكر خلجانه ، وترعه ، وما كان يقام عند وفائه من أعياد ، أو يبين أثر النيل فى مصر من الناحية الاقتصادية ، والخراج ، ونظم الزراعة والملاحة ، وهى موضوعات اهتم بها مؤلفون سابقون له كابن مماتى ، والقلقشندى أو معاصرون له كالمقريزى .

وقد يرجع السبب فى هذا الإيجاز الذى لجأ إليه الأقفهسى : أنه لم يكن جغرافياً ، أو مؤرخاً ، كما أنه ألف كتابه لغرض خاص ذكره فى المقدمة ، هو مجرد تعريف المصريين عن أشياء لا تقع تحت أبصارهم مثل منابع النيل وفيضانه وسبب خضرته .

وقد تكلم الأقفهسى ، إلى جانب ما ذكره عن النيل ، عن الأهرام ، وحائط العجوز والأنهار الأخرى التى قيل : إنها تخرج مع النيل من الجنة . ثم يختم رسالته ببحث فقهى عن الماء الذى يجوز التطهر به وما لا يجوز .

وقد ورد فى نهاية النسخة الرابعة «كتاب القول المفيد فى النيل السعيد» قصيدة ، شعرية نقلاً – كما ذكر – عن السيوطى ، وسيدى عمر الفارض ، وأن من فوائدها أنه إذا توقف النيل عن الوفاء تكتب هذه القصيدة وتوضع فى أنبوبة وتلقى فى النهر ، ولاشك أن هذه القصيدة من إضافات الناسخ ، إذ إن السيوطى ولد بعد وفاة الأقفهسى ، كما أن الناسخ أخطأ فى اسم مؤلف القصيدة فذكر أنه عمر بن الفارض فى حين أن مؤلفها هو سبطه الشيخ نور الدين على[1] .

---

(١) ذكر السيوطى قصة تأليف هذه القصيدة وإن لم يذكر القصيدة نفسها فى كتابه « كوكب الروضة » نسخة دار الكتب ٢٦٣ جغرافياً ص ١١٩ .

ويوجد بمكتبة البلدية بالإسكندرية ضمن المجموعة التى تحتوى رسالة « نيل مصر وأهرامها » رسالة ناقصة تقع فى ورقة واحدة تتكلم عن « منبع النيل » لم يذكر اسم مؤلفها ، وإن ذكر فى التعريف الوارد فى فهارس المكتبة عنها جملة « ولعلها لابن العماد » استناداً إلى أن جميع رسائل المجموعة من تأليفه .

وهذه الرسالة تتكلم عن منابع النيل من جبل القمر ، وموقع هذا الجبل ، وبحيرات النيل بالنسبة لخط الاستواء ، وخطوط الطول ، وذكر البحيرة التى يخرج منها النهر الذى ذكره الخوارزمى من قبل ليلتقى بالنيل فى بلاد النوبة ، ثم يذكر مرور النيل ومجراه فى مصر وانقسامه عند شطنوف .

وما جاء فى هذه الرسالة قد ذكر بنصه فى خطط المقريزى[1] نقلاً عن ابن سينا ، كما أنها وردت فى مخطوط « نيل الرائد فى النيل الزائد » للحجازى [2] نقلاً عن عز الدين ابن جماعة [3] ، وعلى ذلك فهناك احتمالان : إما أن يكون الأقفهسى قد نقلها بدوره عن ابن سينا ، أو أنها — وهو الأرجح — قد نقلت فيما بعد بمعرفة أحد النساخ ثم أرفقت بالمجموعة ، وقد يؤيد ذلك أن خط هذه الرسالة مخالف للخط الذى كتبت به بقية رسائل المجموعة التى ألفها الأقفهسى .

٣ — الشهاب الحجازى

أحمد بن محمد بن على بن حسن بن إبراهيم الزكى ثم الشهاب أبوالطيب أوأبوالعباس الأنصارى الخزرجى السعدى العبادى الشافعى المقرئ سبط أخى النور الهيثمى ، ويعرف بالشهاب الحجازى . ولد سنة ٧٩٠ هـ .

لازم العز بن جماعة فى كثير مما كان يقرأ عليه والولى العراقى فى الفقه وأصول الحديث والعربية كما لازم ابن حجر .

وقد كتب بخطه الكثير لنفسه ، وغيره ، وبلغت تذكرته أزيد من خمسين مجلدة . وله كتاب فى الألغاز ، وآخر فى الحماقة رتبه على حروف المعجم ، وآخر فيما وقع فى القرآن ، وآخر فى النيل .

وتوفى ابن الحجازى فى رمضان سنة ٨٧٥ هـ وقيل سنة ٨٧٤ هـ [4]

---

(١) جـ ١ ص ٦٢

(٢) مخطوط دار الكتب — بلدان تيمور ١٣٠ ص ١١—١٣

(٣) عز الدين بن جماعة من ٧٥٩—٨١٩ هـ

(٤) السخاوى — الضوء اللامع جـ ٢ ص ١٤٧ وانظر أيضاً السيوطى حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٦ .

والكتاب الذى ذكر السخاوى أن الحجازى ألفه فى النيل هو « نيل الرائد فى النيل الزائد » وهذا الكتاب لا زال مخطوطاً ، وقد اعتمدت على نسختين منه موجودتين بدار الكتب .

الأولى : بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم بلدان تيمور ١٣٠ ، غير مذكور تاريخ نسخها وتقع فى سبع ورقات .

والثانية : نسخة مصورة بدار الكتب أيضاً تحمل رقم بلدان تيمور ١٨٨ عن النسخة الخطية التى كانت موجودة بمكتبة بلدية الإسكندرية ١ والتى كتبت سنة ١١١٢ هـ .

وسندرس هاتين النسختين كل على حدة ، وذلك للاختلاف الظاهر بينهما ، وإن كان من المؤكد انتماؤهما إلى مؤلف واحد — كما سيظهر فيما بعد — وأن الاختلاف سببه النساخ .

على أنه — لكى نسهل هذه الدراسة — يمكننا أن نقسم هذا الكتاب إلى قسمين رئيسيين : القسم الأول دراسة عامة للنيل من منبعه إلى مصبه ، والقسم الثانى — وهو الأصل — فى تأليف الكتاب — يشمل دراسة سريعة للمقاييس ، ثم جداول تبين أقصى انخفاض وارتفاع للنيل فى كل سنة ابتداء من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٨٧٤ هـ (٦٢٢-١٤٧٠ م) ، وقد انفردت إحدى النسختين بذكر القسم الأول وحده بينما اعتنت الأخرى بالقسم الثانى .

فإذا تناولنا النسخة التى تحمل رقم « بلدان تيمور ١٣٠ » ، نجد : أن عنوان الكتاب جاء كما يلى « كتاب نيل الرائد فى النيل الزائد تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة والبحر الفهامة القابس بدر الدين البلقينى ٢ تغمده الله برحمته ورضوانه والمسلمين » .

ثم يلى ذلك الجملة الآتية « بسم الله الرحمن الرحيم قال فقير رحمة ربه أحمد بن محمد ابن على الحجازى الشافعى الأنصارى .... الخ » .

والبلقينى شخص آخر غير الحجازى ، وإن كان الاثنان من عصر واحد وتلميذين لابن حجر ، وقد يكون اسم البلقينى قد ذكر هنا خطأ ، أو أنه نقل ما كتبه ابن الحجازى فنسب الكتاب إليه .

---

(١) هذه النسخة التى كانت بمكتبة بلدية الإسكندرية كانت موضوعة تحت رقم ٤٠٣١ د ولكن مما يؤسف له أنها فقدت من هذه الدار ولم أتمكن من العثور عليها رغم المجهود الكبير الذى بذلته .

(٢) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن البدر البلقينى ٨١٩ أو ٨٢١-٨٩٠ هـ .

ويذكر الحجازى عن سبب تأليف الكتاب « سألنى بعض الأصدقاء من الحذاق أن أجمع فى هذه الأوراق ما اشتمل عليه بحر النيل من الزيادة فى كل عام من لدن الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وإلى حين وفاتى — وليذيل بعد من له إلمام — مقتصراً من ذلك على ذكر القاعدة ومبلغ انتهائه إذ الإطالة ليس فيها مزيد فائدة ، فأجبت بالسمع والطاعة فيما التمسه منى معتمداً فى ذلك على من شرفه ينظره أن يعتذر عنى إذ لست — وإن كنت مصرياً — من أهل هذه الصناعة ، وإنى لمن فن التاريخ ، بل من كل فن قليل البضاعة ، وشرعت فى ذلك معتضداً بمعرفة الله مستمداً من فضل الإله وسميته « نيل الرائد فى النيل الزائد » ١ . ويذكر أيضاً : أنه افتتح مؤلفه « بمقدمة ودعاء يحتاج إليها بعض من ينظر فى هذا التصنيف فى فضل مصر وأخبار تتعلق بالنيل » .

وقد اقتصرت هذه النسخة على هذه المقدمة ، وفيها ينقل عن المسعودى ، والنويرى ، وعز الدين بن جماعة ، كما أنه ينقل عن ابن عبد الحكم ، وإن لم يذكر ذلك .

فعن النويرى ينقل أن مصر ذكرت فى القرآن الكريم فى أربعة وعشرين موضعاً ، منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير ، ويورد هذه الآيات الكريمة ، كما يذكر الأحاديث النبوية الخاصة بمصر ، ودعاء آدم لها ، وأنه أول من دعا لها بالرحمة والخصب ، وأن نوحاً جعل لولده حام مصر وسواحلها ، ثم جعلها بيصر ابن حام لابنه مصر ، فسميت باسمه ، وأن القبط ولد مصر هذا ، كما ينقل عن النويرى ، والمسعودى بعض فضائل مصر .

وعن ابن عبد الحكم يروى ما ذكر من أن النيل من أنهار الجنة ، وأن الله سخر له باقى الأنهار .

ثم يذكر كتاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فى وصف مصر ، وبعض الأوصاف الأخرى التى وردت فى كثير من المراجع خاصة بمصر والنيل .

وينتقل بعد ذلك إلى فيضان النيل ناقلاً عن المسعودى ، ثم قصة عروس النيل التى ذكرها ابن عبد الحكم .

ويختم هذه المقدمة بفصل خاص عن منابع النيل ومجراه ومصبه ، وينسبه إلى عز الدين بن جماعة ، وقد تعرضنا لهذا الفصل من قبل عن الكلام عن مخطوط « منبع النيل » المنسوب ، للأقفهسى ، وبينا أنه منقول أصلاً عن ابن سينا .

أما النسخة الأخرى فقد ذكر عنوانها كما يلى : « النيل فى أحوال النيل للشهاب الحجازى وهذا الكتاب من العجائب والغرائب فى نيل مصر عفى الله عنه آمنين » .

---

(١) ص ١ — ٢

يلى ذلك صفحات ١ ب ، ٢ أ ، بها أسماء من تملكوا الكتاب ، ثم فى ص ٣ أ ورد عنوان آخر هو «كتاب نيل الرائد فى النيل الزائد فهرست النيل المبارك للشيخ شهاب الدين الحجازى المسمى بنيل الرائد من النيل الزائد » .

وتشتمل هذه النسخة على القسمين السابق ذكرهما ، ونلاحظ : أن خط القسم الأول يختلف اختلافاً بيناً عن خط القسم الثانى ، مما يدل على أن هذه النسخة تولاها أكثر من ناسخ .

والقسم الأول هو اختصار شديد لما ورد فى النسخة الأولى ، ثم يلى ذلك الفصل الرئيسى فى هذا المؤلف عن أقصى ارتفاع وانخفاض للنيل منذ الهجرة حتى سنة ٨٧٤ هـ وقد ذكر فى أوله ما يلى : «بسم الله الرحمن الرحيم — فهرست مبارك يشتمل على زيادة النيل من الهجرة النبوية وإلى الآن جملة وتفصيلا » . ١

وقد بدأه بنبذه عن المقاييس قبل وبعد الإسلام ، لا تخرج عما ذكره غيره ، إلا أنه يذكر : أن عمود مقياس أسامة بن زيد مدور ، وفى ذلك تأكيد للرأى القائل : إن عمود مقياس أسامة غير عمود مقياس المتوكل ٢ ، كما أن القلقشندى ، وابن أيبك ، والمقريزى ، وغيرهم من المؤلفين يذكرون أن الذراع فى مقياس المتوكل مقسم إلى ٢٨ إصبعاً حتى الذراع الثانى عشر ، وما يلى ذلك مقسم إلى ٢٤ إصبعاً ، فى حين أن الحجازى يذكر : أنه من الذراع السادس عشر وإن كان مقسماً إلى ٢٤ إصبعاً ، إلا أنه فى الحقيقة ٢٢ إصبعاً فقط .

وقد أشار ابن الحجازى أنه فيما أورده عن المقاييس ينقل عن « كتاب أخبار مصر وعجائبها » . وإن لم يذكر اسم مؤلفه ٣ .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر أعلى مستوى للنيل ، وأقل مستوى فى كل سنة منذ السنة الأولى للهجرة حتى وفاته معتمداً على مرجع آخره سنة ٦٢٢ هـ وإن ذيل البعض عليه حتى وصل إلى الحجازى فذكر ما شاهده هو ٤ .

---

(١) انظر ص ٤ ب وما بعدها .

(٢) انظر الفصل الخاص بالمقاييس .

(٣) يذكر Popper أن مؤلف هذا الكتاب هو ابن وصيف شاه
Poper ; op. cit. p. 92 et Seq.

(٤) يقول فى ص ٢٠ ب ، ٢١ أ « وقال كاتبه وجامعه أحمد بن الحجازى والتاريخ الذى نقلت هذا منه آخره سنة ٦٢٢ وما عدا ذلك مذيل عليه فإنه أحال فى هذه المقدمة على هذا التاريخ فأردت أن أبين المطالع فيه ذلك لئلا يلتبس عليه تاريخه بتاريخنا فإن غيره ذيل على تاريخه ، ثم ذيل على الذيل إلى أن وصل إلينا فذيلنا » .

وقد أورد أولا مجملاً لارتفاع النيل فى السنين المختلفة حتى سنة ٦٢٢ هـ ، فيذكر السنين التى لم يوف فيها النيل ثلاثة عشر ذراعاً ، والسنين التى لم يوف فيها ١٤ ذراعاً ، والتى لم يوف فيها ١٥ ذراعاً ، والتى وفى فيها ١٥ ذراعا ، والتى لم يوف فيها ١٦ ذراعاً ، والتى وفى فيها هذا المقدار ، ثم ذكر أن السنين التى بلغ فيها النيل أكثر من ١٦ ذراعاً كثيرة وأنه سيذكرها فيما بعد ، ثم يذكر السنين التى وفى فيها النيل ١٧ ذراعاً والتى زاد فيها عن١٧ ذراعاً والسنين التى وصل فيها ١٨ ذراعاً والتى زاد فيها عن ١٨ ذراعاً والتى وفى فيها ١٩ ذراعاً ثم السنين التى بلغ فيها الارتفاع أصابع من الذراع العشرين ثم السنين التى أتم فيها العشرين ذراعاً وأصابع .

ثم يفصل بعد ذلك ما أجمله ، موضحاً فى كل سنة الماء القديم ، وتاريخ الوفاء ، ومقدار الزيادة ، مع ذكر بعض الحوادث الهامة ، وقد وصل فى ذلك حتى سنة ٨٧٤ هـ وإن لم يذكر فيها إلا الماء القديم فقط ، وأنه أخذ فى يوم الأربعاء عشرين من ذى الحجة فكان ٦ أذرع وعشرين إصبعاً ولم يرد ذكر لتاريخ الوفاء ، مما يرجح وفاة المؤلف قبل هذا التاريخ ، أما سنة ٨٧٥ وإن كانت مذكورة إلا أنه لم يوضح فيها أية معلومات .

٤ — الجوجرى

محمد بن عبد المنعم بن محمد بن محمد بن عبد المنعم أبى الطاهر إسماعيل الشمس بن نبيه الدين الجوجرى ، ثم القاهرى الشافعى ويعرف بين أهل بلده بابن نبيه الدين وفى غيرها بالجوجرى .

ولد سنة ٨٢١ أو سنة ٨٢٢ بجوجر ، وتحول منها إلى القاهرة حيث حفظ القرآن ودرس ، الحديث وألفية ابن مالك ، والنحو وتصدى للإفتاء ، وكان المحلى يرسل له الفضلاء للقراءة عليه فى تصانيفه وغيرها ودرس بالجامع الأزهر .

وكان له كثيراً من النظم والنثر ومات سنة ٨٨٧ هـ [1] .

والجوجرى لم يؤلف كتاباً فى النيل ، ولكنه نظم شعراً ما كتبه أستاذه المحلى عن النيل فى كتابه « مقدمة النيل السعيد » وتتألف هذه المنظومة من ١٢٥ بيتاً يتناول فيها ذكر مبدأ النيل ، وأنه من الجنة وظهوره من جبل القمر جنوب خط الاستواء ، ومسيرة سبعة أشهر منها أربعة فى الخراب واثنان فى النوبة ، وواحد فى مصر ، ويصف دخول النيل مصر ماراً بالجندل جنوب أسوان ومجراه فى الصعيد حتى ينتهى عند دمياط ورشيد .

---

(١) السخاوى « الضوء اللامع » جـ ٨ ص ١٢٣
على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ٧٢

ثم يذكر زيادة النيل ، وأوانها ومدتها وما يطرأ على مائه من تغير قبل الزيادة ، وأنه إذا بلغ تسعة أذرع دخل المنهى والفيوم وسردوس ، وإذا بلغ ١٦ ذراعاً يروى مصر كلها [1] ، ثم يتكلم عن المقاييس ومحاسن مصر .

وتوجد نسخة من هذه المنظومة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٧٠ جغرافيا ، وقد كتبت فى حياة صاحبها كما يظهر مما هو مدون فى أولها وآخرها ، إذ ذكر فى أول القصيدة ما يلى : « قال الشيخ الإمام .... الجوجرى فسح الله فى أجله » ثم جاء فى آخر المنظومة « برسم شيخنا أطال الله بقاه ونفعنا بعلومه ، كتبها داعياً لمالكها بكل خير عبد الأصفر محمد محمد محمود الخطيب الشافعى فى آخر جمادى الأولى سنة ٨٨٤ » .

٥ — المنوفى المتوفى سنة ٩٣١ هـ

أحمد بن محمد بن محمد بن عبد السلام بن موسى الشهاب أبو الخير بن العز المنوفى الأصل القاهرى الشافعى قاضى منوف ، ويعرف بابن عبد السلام . ولد سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٤ م) ونشأ فى كنف أبيه ، حفظ القرآن والعدة ، والمنهاج وألفية ابن مالك ، وعرض على البوتيجى والمحلى ، وناب عن الزين زكريا فى بلده منوف ، ثم عنه بالقاهرة مضافاً إلى منوف ، وعمل كتاباً فى النيل وحج وجاور ، وحضر دروس البرهان بن ظهيره ، وجمع نبذة من فتاويه ، وولع بالنظم فأتى منه بقصائد وغيرها مع نثر جيد وخط حسن واستحضار لكثير من فروع الفقه ، ومن شرح مسلم وغيرهما ، ومشاركة فى كثير من الفضائل ، وسلامة فطرة ومحاسن[2] .

والكتاب الذى ألفه ابن عبد السلام عن النيل ، وأشار إليه السخاوى هو كتاب « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » ، وقد فرغ منه فى ١٩ من رمضان سنة ٨٨٠ هـ[3] ، وفى الحقيقة لايعتبر ابن عبد السلام المؤلف الأصلى لهذا الكتاب إذ إنه عمد إلى مؤلف آخر هو الجزء الثالث من كتاب « الروض النضر والزهر العطر للشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد الرشيدى » فاختصره وحذف منه ما رأى حذفه ، وأعاد ترتيبه وتبويبه مع بعض إضافات من عنده نتيجة إطلاعاته الخاصة بعد أن ميزها بذكر كلمة « قلت » فى أولها وجملة « والله أعلم » فى آخرها [4] .

---

(١) يلاحظ أن هذا كلام المسعودى وإن الارتفاع المطلوب لرى الأرض يختلف فى عصر المحلى والجوجرى عنه فى زمن المسعودى .

(٢) السخاوى — الضوء اللامع جـ ٢ ص ١٨١

(٣) انظر نسخة الاسكندرية ص ٧٣ ، ص ١٢٨

(٤) » » » ص ٣

وقبل أن نتعرض لكتاب المنوفى نورد ترجمته [1] للرشيدى فيقول : « هو الشيخ الإمام العلامة زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن لاجين الرشيدى الشافعى ولد سنة ٧٤١ ، وسمع بالقاهرة على جماعة منهم الميدومى ومحمد بن إسماعيل الأيوبى ، وبدمشق على ابن أميله وغيره ، وأجاز له جماعة منهم القلانس ، وكان فرضياً حاسباً وحدث باليسير ، سمع منه الفضلاء وممن سمع عليه قاضى القضاة حافظ عصره شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر رحمه الله تعالى ، وترجم له فى معجمه وتاريخه ، وقال : إنه لم يكن ماهراً ، توفى فى مستهل جمادى الأولى سنة ٨٠٣».

ولا زال كتاب الفيض المديد مخطوطاً لم ينشر [2] بعد ، وتوجد منه ثلاث نسخ هى :

ا ـ نسخة بمكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم ٢٥٩١ د. والمرجح أنها المخطوط الأصلى ، إذ ذكر فى نهايتها [3] مايأتى : « علقه جامعه ومؤلفه فقير رحمة ربه الراجى عفوه ومغفرته ، أحمد بن محمد بن عبد السلام المنوفى الشافعى ، عفا الله تعالى عنهم والمسلمين ، وفرغ منه يوم الثلاثاء المبارك تاسع عشر شهر رمضان» .

ب ـ نسخة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٦٦ جغرافياً ، تمت كتابتها سنة ١١٥٤ هـ .

حـ ـ نسخة ثالثة بدار الكتب أيضاً تحت رقم ٤٢٩ ، جغرافيا نقلها عبد الله بن يوسف الرشيدى سنة ١٢٥٢ هـ .

وستتخذ نسخة الإسكندرية أساساً لدراستنا ، حيث إنها الأقدم إن لم تكن الأصل ، وهى تقع فى ١٢٨ صفحة مكتوبة بخط نسخ جميل مقروء بالحبر الأسود ، عدا العناوين والفواصل بين الجمل وعلامات الشكل وبدايات الفصول وكلمة « قلت » فهى بالحبر الأحمر .

وقد رتب المنوفى كتابه على أربعة أبواب وخاتمة ، أهمها الباب الأول الخاص بالنيل ، فهو الأصل فى تأليف الكتاب ، وما عداه أبواب مكملة ؛ أما الباب الثانى فعن الأنهار الأخرى التى يقال : إنها تخرج من الجنة ، والبابان الثالث والرابع عن الآثار القديمة كالأهرام والبرابى ، ويختم الكتاب بذكر بعض النوادر .

والباب الأول يشتمل على عشر فصول تناولت دراسة النيل من جميع نواحيه ، فالفصل الأول خاص بالمنبع والمجرى والمصب ، ولو أن اهتمامه انصب على المنبع حيث

---

(١) نسخة الإسكندرية ص ٤

(٢) نشر الفصل الثانى من الباب الأول وترجمته الفرنسية « وهو الفصل الخاص بالفيضان » بمعرفة الأب برجيس L'abbé Bargés

(٣) ص ١٢٨

ردد الأقوال التى حفلت بها المراجع العربية عن خروج النيل من جبل القمر ووصف هذه المنابع ، كما ذكر ما روى عن خروجه من الجنة ، والمنوفى لايرى فى الرأيين أى تعارض إذ كما يقول : « إن أصل النيل يخرج من الجنة من أصل سدرة المنتهى ، وأما الخلاف فإنما هو فى تعيين المكان الذى ينبع منه من الأرض بعد خروجه من الجنة » .

ثم يذكر بعض ما قيل عن محاولات لاكتشاف منابع النيل ، وهى قصص خرافية حفلت بها المراجع العربية المختلفة ، وينقل رأى الشيخ عماد الدين بن كثير [1] فى بعض هذه القصص وأنها من « خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين » . كما أن المنوفى يكذب قصة حائد ويرى أنه « لايتردد فى بطلان هذه الحكاية إلا جاهل لا يعلم ، أو متعصب من خطأ الحمية لايسلم ، ومن له أدنى فهم يقطع ببطلانها ويمنع صحة إيرادها » [2] .

أما وصف المجرى فعلى إيجازه له أهمية ، حيث إن صاحب الأصل (الرشيدى) نقل وصف ابن سليم الأسوانى لمجرى النيل فى النوبة وعلوة ، وهذا الوصف هو الذى أورده المقريزى فى خططه عن ابن سليم ، ولما كان المقريزى قد بدأ فى تأليف الخطط بعد وفاة الرشيدى لذلك يرجع الفضل للرشيدى فى أنه أول من ذكر وصف ابن سليم هذا الذى يعتبر أول وصف عربى بنى على المشاهدة لمجرى النيل جنوب مصر ، ولعل المقريزى قد استعان هو الآخر بكتاب «الروض النضر والزهر العطر ».

ثم يتكلم الكتاب عن طول مجرى النيل ، وعرض هذا المجرى فى النوبة ومصر .

ويذكر افتراق النيل فى الدلتا عند شطنوف إلى فرعى رشيد ودمياط ، وأن هذا الأخير يتفرع مرة أخرى عند جوجر إلى فرقتين ، فرقة تتجه إلى دمياط ، والأخرى تتجه شرقاً إلى أشمون طناح ، حيث يصب فى بحيرة تنيس وبحيرة دمياط .

أما الفصل الثانى فيتناول فيه فيضان النيل ، والأسباب المختلفة التى قيلت عن سببه ومدته ، وما قيل فيه من أشعار ، ويعارض المنوفى رأى صاحب الأصل من إمكان معرفة مقدار الزيادة من النظر فى الكواكب ، ويرى : أن هذا من قبيل الخوض فى المغيبات التى لايعلمها إلا الله والتى لايؤيدها الشرع .

والفصل الثالث فى ذكر أسماء النيل المختلفة من يم وبحر وفيض ، وما يختص به على سائر الأنهار من خصائص وفضائل .

والفصل الرابع فى وفاء النيل وما قالته الشعراء والأدباء فيه .

---

(١) هو الحافظ بن كثير ٧٠١-٧٧٤ هـ (١٣٠١-١٣٧٣ م)

(٢) ص ٢٢

والفصل الخامس تكلم فيه عن مقاييس النيل قبل وبعد الإسلام ، ولما كان طول العمود تسعة عشر ذراعاً ، فإن ابن الرداد — كما يقول المنوفى نقلاً عنه —كان يعرف ارتفاع الفيضان إذا زاد عن التسعة عشر ذراعاً بالنظر فى الخط الكوفى الذى بدائر الفسقية .

ثم يعود فى الفصل السادس إلى مجرى النيل عند علوة ، وذكر النيل الأبيض والنيل الأخضر نقلاً عن ابن سليم .

وفى الفصل السابع يتكلم عن قانون الرى ، ومقدار ارتفاع الفيضان اللازم لرى الأراضى فى زمن المسعودى ، وفى زمنه هو ، أى سنة ٨٨٠ هـ ، وأنه نظراً لارتفاع الأرض فى عصره لم تعد تروى إلا من أكثر من عشرين ذراعاً .

أما الفصل الثامن فقد خصصه لأقاليم مصر التى تروى منه ، وينقل فى ذلك عن ابن مماتى ، والفصل التاسع خاص بخراج مصر .

ثم يختتم هذا الباب بالفصل العاشر فى ذكر مزروعات مصر ، وزهورها ، وورودها ، وطيورها ووصف عمرو بن العاص لها ، والأشعار التى قيلت فى محاسنها .

والكتاب — بصفة عامة — لم يات بجديد ، إلا ما أورده صاحب الأصل — كما سبق القول — عن ابن سليم الأسوانى . أما غير ذلك فمجرد نقل عما سبق من مؤلفات ، وإن كان المنوفى يقف من بعضها ناقداً ، ومن البعض الآخر شارحاً .

ومن المؤلفين الذين استعان الرشيدى والمنوفى بمؤلفاتهم ، بطليموس والجاحظ ، وقدامة بن جعفر ، والمسعودى ، وابن زولاق ، وابن مماتى ، وابن وصيف شاه ، والأقفهسى .

٦ — السيوطى عبد الرحمن بن الكمال

وللسيوطى أكثر من مؤلف فى النيل لازال مخطوطاً — منها :

أولاً — كتاب « كوكب الروضة » . وقد ألفه السيوطى سنة (٨٩٥ هـ — ١٤٨٩ م) فى تاريخ جزيرة الروضة.

وتوجد منه أكثر من نسخة منها.

ا — نسخة فى دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٦٣ جغرافيا ، نسخها محمد بن نعيم ابن محمد شرف الدين البلسى الحنفى سنة ١٠٠٦ هـ من نسخة لتلميذ السيوطى محمد بن على بن أحمد الداورى المالكى ، وهذا نقلها بدوره سنة ٩٢٠ هـ من النسخة الأصلية للمؤلف .

ب ـ نسخة أخرى فى دار الكتب أيضاً رقمها ٢٦٤ جغرافيا ، كتبت فى شوال سنة ١٢٧٢ هـ .

حـ ـ نسخة فى مكتبة الأزهر برقم ٣١٤ أباظة ٦٦١٤ ، كتبت سنة ١٠٠١ هـ .

د ـ نسخة ثانية فى مكتبة الأزهر برقم ٣٣٦ أباظة ٦٦٣٦ كتبت سنة ١٣٠٥ هـ .

هـ ـ وتوجد نسخة من كوكب الروضة مترجمة إلى التركية مع مخطوط «شفاء العليل فيما ورد من أخبار النيل» لزين العابدين البكرى الصديقى ، الموجود نسخة فى مكتبة بلدية سوهاج والذى سنتكلم عنه فيما بعد .

وقد اعتمدنا فى دراستنا على النسخة الأولى ، وهى فى ١٣٦ ورقة من القطع الكبير ، وتدل طريقة الكتابة على أن الكتاب تولاه أكثر من ناسخ ، قد يكون آخرهم محمد بن نعيم البلسى السابق ذكره .

ولما كان هذا الكتاب يتكلم عن جزيرة الروضة المشهورة برياضها وخضرتها ، فإن السيوطى يبدؤه بالتحدث عن الخضرة وحسنها ، وما ذكره الرسول فى امتداحها ، ثم ينتقل إلى الكلام عن لفظ الروضة بمعناها العام ودلالالتها المختلفة ، وأشعار العرب والأمثال والأحاديث المتعلقة بالروضة عموماً .

ويتطرق بعد ذلك إلى التخصيص والتكلم عن روضة مصر ، وأنها الجزيرة التى بين مصر والجزيرة ، وأنها عرفت بالروضة من زمن الأفضل بن أمير الجيوش ، ويعرف معنى كلمة جزيرة ، وأن كل جزائر النيل فى مصر حادثة فى الإسلام ما عدا جزيرة الروضة ، ثم يبدأ بالأشعار التى قيلت فيها ، وذكر أخبار تاريخية مثل تحصن المقوقس بها عند الفتح الإسلامى ، ودلل على شرف هذه البقعة بكون طائفة من أصحاب رسول الله حلوا بها ، ومشوا فيها بأقدامهم المباركة .

وذكر بناء دار الصناعة بها ، والحصن الذى بناه أحمد بن طولون ، وقلعة الملك الصالح ، وغير ذلك من البنايات والبساتين والجوامع ، التى أنشئت فى العصور المختلفة .

وكان لابد وهو يتكلم عن الروضة أن يتطرق إلى الكلام عن النيل ، ويبدأ بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الخاصة بالنيل ، ويذكر أسماءه المختلفة .

ثم يروى ـ كما يقول ـ « كلام الناس عن منبع النيل ومخرجه وزيادته » وينقل عن ابن عبد الحكم ، والمسعودى ، وابن زولاق ، والمقريزى ، وابن الجوزى [1] ،

---

(١) عبد الرحمن بن على بن الجوزى الملقب بالقرشى ٥١٠-٥٩٧ هـ ١١١٦-١٢٠٠ م ألف أكثر من كتاب من أهمها كتابه فى التاريخ « المنتظم وملتقط الملتزم »

وعز الدين بن جماعة ، ما ذكروا عن منابع النيل ، ومجراه ، ومزاياه ، وعجائبه ، والمقاييس ، والوفاء ، ومن حضر كسر السد من ملوك الدولة المملوكية ، ويتضح : أن ملوك هذه الدولة لم يهتموا كثيراً بحضور هذا الاحتفال ، وخراج مصر ، ثم يتكلم عن خليج أمير المؤمنين ، وما قيل فيه من أشعار وقصة عروس النيل ، وجاء ببعض كتب البشارة بالوفاء من إنشاء ابن الصيرفى ، والقاضى الفاضل ، وابن نباته ، وابن عبد الظاهر وغيرهم . ثم ذكر قصص دفن يوسف فى النيل وإلقاء موسى فيه .

كما ذكر حال النيل فى السنين المختلفة ابتداء من سنة ٢٧٨ هـ ، وما تعرضت له مصر من مجاعات ، خاصة غلاء سنة ٤٦٦ هـ ، وغلاء سنة ٥٩٧ فى عهد العادل .

وينقل عن الشهاب الحجازى منظومة فى المفاخرة بين النيل والبحر المالح ، ومفاخرة بين السماء والأرض . وجاء بعد ذلك بشعر كثير قيل فى النيل ، وذكر لليلة النوروز والغطاس . ثم مناظرة بين الروضة ومصر من إنشاء الشريف صلاح الدين محمد بن أبى بكر الأسيوطى [1] .

وأورد السيوطى مقامة أنشأها هو فى وصف الروضة وسماها «بلبل الروضة» . ومقامة أخرى فى ذكر مصر ونيلها وروضها ، من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر (٦٢٠–٦٩٢ هـ) .

وأفرد فصلاً فى ذكر الأزهار والفواكه والخضروات الموجودة فى الروضة ، وفصل آخر عن السفن والسباحة ، وختم كتابه بفصل عن ذباب الروضه وأنواعه .

ثانياً — رسالة بعنوان « الكلام على النيل من كلام حافظ العصر ، ومحدثه ، وآخر المطلعين الشيخ جلال الدين السيوطى ، وهو جمع لانظير له لمن له خبرة بالاطلاع على التاريخ وعلم الهيئة » .

ويتكلم فيها عما ورد فى النيل من آيات وأحاديث ، وعن منابعه وزيادته ، وهو لا يخرج عما جاء فى حسن المحاضرة وكوب الروضة ، وختم رسالته بذكر قصة حائد .

وتاريخ نسخ هذه الرسالة سنة ١٠٧٧ هـ ، ورقمها بدار الكتب : بلدان تيمور ١٢٩ ، فى مجموعة واحدة مع مبدأ النيل على التحرير للمحلى .

ثالثاً — «بلبل الروضة» وهى مقامة أنشأها فى وصف جزيرة الروضة ، أولها بعد بعد البسملة «وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين نطق الكتاب والسنة بأن أرض مصر

---

(١) هو محمد بن أبى بكر بن على بن حسن بن مطهر بن عيسى بن جلال الدولة بن أبى الحسن الصلاح الحسن السيوطى ثم القاهرى الشافعي ، ولد سنة ٧٨٣ هـ بأسيوط ومات سنة ٨٥٦ هـ .

أحسن البقاع .... وشهد الحسن بأن الروضة منها كمركز الدائرة ، فهى لها كالقطب والأساس » .

وبلبل الروضة مقالة أدبية أكثر منها عملاً جغرافياً أو تاريخياً ، ويتكلم فيها عن محاسن الروضة شعراً ونثراً ، ثم يتحدث عن النيل وفضائله ، وذكره فى القرآن والسنة ، وأنه المسخر له مياه الأرض جميعها تمده فى زيادته ، وأنه فى الجنة نهر العسل ، ثم يتكلم عن يوم الوفاء وأسماه يوم الزينة .

وتوجد من « بلبل الروضة » أكثر من نسخة منها :

(ا) نسخة ضمن مجموعة كتبت سنة ١١٥٨ هـ بدار الكتب بالقاهرة رقم ٢٠ م تاريخ .

(ب) نسخة ضمن مجموعة كتبت سنة ١١٧٦ هـ بمكتبة بلدية الإسكندرية رقمها ٣٢٣٠ ج

(حـ) كما أن هذه المقامة ذكرت ضمن مخطوط « كوكب الروضة » كما ذكرنا من قبل .

ويتضح أن هذه المقامة قد ألفها السيوطى قبل تأليفه كوكب الروضة ، إذ يذكر فى مؤلفه الأخير [١] « ذكر المقامة التى أنشأتها أنا فى وصف الروضة ، وسميتها بلبل الروضة » .

٧ ــ محمد الغزالى أو محمد المغربى : من أوائل القرن الحادى عشر الهجرى ولهذا الكاتب ــ الغير معروف حقيقة اسمه ــ كتاب فى النيل أسماه « تحفة الخليل فى أخبار مصر والنيل » . توجد منه نسختان بمصر :

ا ــ الأولى ضمن مجموعة خطية بمكتبة الإسكندرية رقمها ٧٥٦ د . بعنوان « تحفة الخليل فى أخبار مصر والنيل ، وقوانين الوزير وسياسة الملوك ، تأليف الشيخ محمد المغربى برسم الوزير الأعظم الوزير خضر باشا » .

ب ــ والثانية بمكتبة جامع الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية [٢] . وقد صورت على فيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية رقم ٦١١ تاريخ . وعنوان هذه النسخة ورد كالآتى : « تحفة الخليل فى أخبار مصر والنيل ، تأليف فقير رحمة ربه المتعالى محمد الغزالى ، برسم الوزير الأعظم والدستور الأفخم صاحب سعادة مصر خضر باشا » .

---

(١) ص ١٦٩

(٢) لم أتمكن من العثور على هذه النسخة بمكتبة الجامع نظراً للإهمال الشديد التى تعرضت له مما أدى إلى ضياع كثير من المؤلفات ، لذلك اعتمدت على الفيلم المصور بالجامعة العربية .

ولما كانت النسختان غير معروف تاريخ كتابتهما ، فلا يمكننا معرفة الأقدم منهما ، كما لا يمكننا معرفة الاسم الصحيح للمؤلف ، وإن كان الأستاذ بروكلمان يذكر محمداً الغزالى فقط ، ويعرفه بأنه كان كاتباً لخضر باشا ، حاكم مصر فى عهد السلطان محمد الثالث .

ومخطوط بلدية الإسكندرية به نقص من الوسط ، والمخطوط الآخر به نقص فى أوله ووسطه وآخره . ولكن بمطابقة المخطوطين ، ومحاولة معالجة النقص فى أحدهما بالرجوع للآخر نخرج بالمعلومات الآتية : —

أولاً — عن تاريخ تأليف الكتاب ، نرجح : أنه فى المدة بين ذى الحجة سنة ١٠٠٦ هـ ، والمحرم سنة ١٠١٠ هـ ، وهى مدة تولية خضر باشا حكم مصر .

ثانياً — يذكر المؤلف فى مقدمة نسخة البلدية [1] ، أنه ألف كتابه فى عهد السلطان أحمد الأول [2] ، ولكن لما كان خضر باشا قد تولى حكم مصر فى عهد السلطان محمد فقط ، كما أن المؤلف فى الفصل الخاص بحكام مصر يذكر — فى النسختين — أن سلطان عصره هو السلطان محمد ، فإنه يحتمل أن المؤلف ألف كتابه أولاً فى عهد السلطان محمد وولاية خضر باشا ثم أعاد كتابته — أو على الأقل — أضاف اسم السلطان أحمد فيما بعد عقب ولايته السلطنة . أو تكون نسخة البلدية هذه قد نسخت فى عهد السلطان أحمد ، وقد أضاف الناسخ اسم هذا السلطان فى المقدمة ، وغفل عن إضافته فى الفصل الخاص بالحكام .

أما عن موضوع الكتاب فإن المؤلف قد رتبه على مقدمة وثلاثة أبواب .

أما المقدمة : فقد أفردها لمدح ملوك بنى عثمان ، ووزير الديار المصرية [3] .

والباب الأول : فيما جاء فى فضل مصر وأقاليمها من الآيات والأحاديث والأخبار وغير ذلك .

والباب الثانى : فى أعجب أعاجيبها وهو نهرها السعيد المبارك ، وما جاء فيه من الآيات والأحاديث والأخبار .

---

(١) هذه المقدمة ناقصة فى أولها فى النسخة الأخرى .

(٢) هو السلطان الرابع عشر من سلاطين آل عثمان ، ابن السلطان محمد الثالث . ولد سنة ٩٩٨ هـ — ١٥٨٩ م وتوفى سنة ١٠٢٦ هـ — ١٦١٧ م . وتولى المللك بعد وفاة أبيه سنة ١٠١٢ هـ .

(٣) الجزء الأخير من المقدمة ناقص فى نسخة البلدية ، كما أن اسم الوزير فى النسخة الأخرى غير مذكور ، بل ترك مكانه بياض .

الباب الثالث : فى بقية عجائبها ، ومن تقلدها من الخلفاء والسلاطين إلى أيامه .

وقد ذكر فى الباب الأول فضل مصر على كثير من البلاد ، ولذلك دخلها الأنبياء، والمرسلون ، والصحابة ، والصديقون ، والعارفون بالله ، والمجتهدون ، والحكماء الأولون والعلماء العاملون ، وأن فيها مشاهد الأولياء الصالحين ، وأن البانى لمصر مصر بن بيصر بن حام بن نوح .

وأورد الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التى فيها ذكر مصر ، وأقوال الرواة مثل : عبد الله بن عمرو ، والاشعار التى قيلت فى مدحها وفضلها .

وخصص الباب الثانى لنهر النيل ، وما قيل فيه من آيات وأحاديث ، وإن إدريس هو الذى نظم منابع النيل وأجراه إلى مصر ، وذكر قصة حائد المعروفة .

ثم يتكلم عن منابع النيل من جبل القمر ، ومجراه ، ومصبه ، فى تنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية .

ويذكر أسباب الفيضان ، ووقته ومدته ، وأسباب تغيير لون الماء إلى الاخضرار ثم احمراره ، .

وتكلم عن المقاييس قبل وبعد الإسلام ، إلا أنه نسب مقياس المتوكل بالروضة إلى أسامة بن زيد ، وذكر أن طول عموده المثمن ٢٢ ذراعاً ١ .

ثم ذكر سد خليج المؤمنين وقال « ولما أن فتح عمرو بن العاص مصر اختلف الناس فى مكان السد يومئذ ، فمنهم من قال : عند قصر اللؤلؤة الذى كان على الخليج الحاكمى ، ومنهم من قال : كان عند بستان المحل الذى كان على الخليج أيضاً ، ومنهم من قال : كان عند قنطرة بنى وائل التى تجاه المطرية » .

والمعروف أن سد الخليج كان عند بدايته من النيل ، ولو أن المقدسى ذكر أن السد كان عند عين شمس أى عند المطرية .

أما عن أعياد الوفاء فقد نقل عن المقريزى ، والسيوطى ، ما كان يعمله الخلفاء ، والملوك يوم فتح السد ، ولكنه لم يذكر لنا كيفية الاحتفال فى عصره هو .

وذكر من خلجان النيل ثمانية هى : خليج الإسكندرية ودمياط ، ومنف ، والمنهى ، وأشمون طناح وسردوس ، وسخا و «خليج حفره عمرو بن العاص يجرى إلى أن يقف فى السباخ » يعنى خليج أمير المؤمنين .

---

(١) من المعروف أن طول عمود مقياس المتوكل ١٩ ذراعاً فقط .

ونلاحظ : أن المؤلف ذكر خلجاً قد دثرت فى عصره ، ولم يعد لها وجود وأغفل خلجاً أخرى كانت موجودة مثل خليج «أبو المنجا» .

وينتقل بعد ذلك إلى ذكر خواص النيل ، ومزاياه ، وما رواه ابن سينا فى ذلك .

ويذكر المؤلف من الكتاب الذين اعتمد عليهم : المسعودى، والقزوينى ، وعز الدين ابن جماعة إلا أنه اعتمد على غيرهم وإن لم يذكرهم مثل ابن عبد الحكم ، والمقريزى ، والسيوطى .

أما الفصل الثالث والأخير ، فيذكر فيه الخلفاء والسلاطين حتى عصره ، مبتدئاً بعمر بن الخطاب ، ومنتهياً بالسلطان محمد الثالث العثمانى . وقد اكتفى بسرد أسماء الخلفاء ، والملوك والسلاطين ، فقط دون ذكر أسماء ولاة مصر الذين تولوها من قبل هؤلاء الخلفاء .

ويختم مؤلفه بفصل فى «القوانين التى تستقيم بها أمور سعادة صاحب مصر ، ويمدحه الخاص والعام ، ويرضى عنه سلطانه» . ويبين الخصال والشروط الواجب توفرها فيمن يتولى إدارة مصر من الولاة ، وتتلخص فى أن يكون أميناً مهاباً عادلاً محباً للعلماء متواضعاً صالحاً .

٨ — محمد بن زين العابدين البكرى الصديقى

هو الأستاذ زين العابدين محمد بن محمد ، بن الشيخ أبى المكارم محمد ، أبيض الوجه البكرى الصديقى ولد سنة ١٠٦٠ هـ وتوفى سنة ١١٠٧ هـ [١] .

ولزين العابدين مؤلف فى النيل أسماه «شفاء العليل فيما ورد فى أخبار النيل» .

وتوجد نسخة لهذا المخطوط بمكتبة البلدية بشوهاج تحت رقم ٣١ ج ، وقد صورت على فيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية رقم (ف : ٥٠٧ : ٥٤٣) [٢] .

وقد ألف الكتاب برسم «إبراهيم باشا» والى مصر ، ويذكر المؤلف : أن سبب تأليفه أنه حضر مجلس إبراهيم باشا فى قرى ميدان ، وكان بمجلسه جماعة من العلماء ، وجاء فى الحديث السؤال عن «النيل السعيد» ومن أين مبدؤه ، ومصيره وانتهاؤه ، ومن أى شىء ينقص ويزيد ، فكل تكلم فى ذلك على قدر فهمه ، وما فتح الله به عليه من مزيد علمه . فأحببت أن أؤلف رسالة جامعة الأخبار مشتملة على الأحاديث الصحيحة والحسنة ، وما يستدل به فى الفضائل .

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٦٦

(٢) اعتمدت فى دراستى على الفيلم المصور

ولم يوضح لنا المؤلف من هو إبراهيم باشا الذى يعنيه ، أهو إبراهيم باشا الصوفى الذى كان واليا على مصر فى المدة من ١٠٧٧–١٠٧٩ هـ ، أو الكتخدا إبراهيم باشا ، وكانت ولايته من ١٠٨٠– ١٠٨٤ هـ ، وإن كنا نرجح الأخير حيث يكون المؤلف قد بلغ مبلغ الرجال فى ذلك الوقت . والنسخة التى لدينا تاريخها سنة ١١٠٣ هـ ، وبذلك تكون منسوخة عن الأصل فى حياة المؤلف إذ ذكر فى نهايتها ما يلى «مولانا محمد أفندى بن المرحوم الشيخ زين العابدين البكرى الصديقى سبط آل الحسن متع الله الوجود بطول حياته ، ومن الله علينا بشرف بقائه وبقاء شرفه إلى يوم الدين » .

أما عن خطته فى التأليف فقد تتبع كما يقول « ما تتابعت به الآثار واتبعت فيها أقوال الأئمة الأعلام ، وعدلت عن أكثر مقالات أهل التاريخ ، مما أطالوا به من الكلام ، وعزوت كل قول إلى قائله ، وكل حديث إلى راويه وناقله » .

وقد رتب الكتاب على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة ؛ أما المقدمة ؛ فقد ذكر فيها آيات قرآنية عن الماء ، وأنه أساس الحياة ، وبدأها بقوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يجعله حطاماً إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » ١ . وقد توسع فى شرح كلمة ينبوع .

وخصص الباب الأول لذكر الأحاديث النبوية الخاصة بالنيل ،وخروجه من الجنة؛ ولا تخرج عما ذكره غيره من الكتاب .

وتكلم فى الباب الثانى عن منابع النيل من جبل القمر ، وبحيراته الثلاث ومجراه وتفرعه فى الدلتا إلى فرعى رشيد ودمياط ، كما ذكر قصة حائد وغيرها من القصص التى ذكرت عن محاولات اكتشاف منابع النيل .

والباب الثالث ذكر فيه فيضان النيل ، والآراء التى قيلت فى سبب الفيضان مثل رواية كعب الأحبار ، وعبد الله بن عمرو ، ووقوف الريح فى وجه النيل كالسد ، وهبوب ريح الملتن التى تمطر خلف خط الاستواء .

ونلاحظ أن المؤلف لم يذكر السبب الحقيقى للفيضان ، وهو أمطار الحبشة مع أن هذا كان معروفاً لدى الكتاب العرب ، وذكره الأقفهسى الذى كان ضمن مراجع المؤلف .

أما الخاتمة ففيما اختصت به مصر من الفضائل وماورد فيها من الآيات والأحاديث ومن دخلها من الأنبياء . وقد اعتمد المؤلف بوجه خاص على مؤلفات الأقفهسى والمحلى ، كما ينقل أيضاً عن ابن عبد الحكم والتيفاشى ،والمقريزى ، والسيوطى .

---

(١) سورة الزمر آية ٢١

٩ – مؤلف مجهول

رسالة غير معروف مؤلفها ولا تاريخ تأليفها : وهذه الرسالة مثل رسالةابن رضوان تحاول التنبؤ بحال الفيضان من زيادة أونقص ، وعلاقة ذلك بيوم نزول النقطة .

فالمؤلف جعل لكل يوم من أيام الأسبوع كوكباً خاصاً ، فالأحد كوكب الشمس ، والاثنين القمر ، والثلاثاء كوكب المريخ ، والأربعاء عطارد ، والخميس المشترى ، والجمعة الزهرة ، والسبت زحل ، وربط بين ليلة نزول النقطة ، وبين ما سيكون عليه ارتفاع الفيضان ، وما ستتعرض له البلاد من غلاء أو رخاء ،

ويتبين أن الارتفاع المناسب للرى – وقت تأليف هذه الرسالة – هو اثنان وعشرون ذراعاً حيث يذكر المؤلف أن السنة التى يبلغ فيها النيل هذا القدر تكون سنة رخاء .

وعلى ذلك نرجح : أن هذه الرسالة ألفت بعد القرن العاشر حيث صار الفيضان المناسب هو ما بلغ الاثنين وعشرين ذراعاً .


المراجع

المراجع العربية

أ – الكتب الدينيـة

– القرآن الكريم

– الكتاب المقدس – العهد القديم طبع بنفقة جمعية الكتاب المقدس القاهرة

– صحيح البخارى ٩ أجزاء طبع القاهرة المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٠ هـ

– صحيح مسلم ١٨ جزءاً القاهرة المطبعة المصرية سنة ١٩٢٩ م

ب – المخطوطات

١ – ابن أيبك (أبو بكر بن عبيد الله أيبك صاحب صرخد) (توفى بعد سنة ٧٣٥هـ)

– « درر التيجان وغرر تواريخ الزمان » نسخة فى أربع مجلدات ، مأخوذة بالتصوير الشمسى عن النسخة الخطية ، بخط يوسف بن عثمان الحميرى ، المحفوظة بمكتبة السلطان أحمد خان بالآستانة .

دار الكتب بالقاهرة : ٢٦٠٥ تاريخ .

٢ – ابن رضوان : على بن رضوان بن على بن جعفر المصرى ت ٤٦٠هـ – ١٠٦٨م

– « فوائد شتى فى زيادة النيل ونقصه على الدوام » ، نسخة كتبت سنة ١٣٤٥هـ. بمكتبة جامعة الإسكندرية : ٢٥ مخطوطات .

٣ – الأقفهسى (أبو العباس أحمد بن عماد الدين) ت سنة ٨٠٨ هـ

– « نيل مصر وأهرامها » ، نسخة فرغ منها فى رمضان سنة ٧٨٠ هـ

بمكتبة بلدية الإسكندرية ضمن مجموعة تحت رقم : ١٦٢٧ ب.

– « رسالة فى نيل مصر » نسخة فى مجموعة ذكر عنها « هذا الكتاب يذكر فيه خبر النيل من أين يخرج من الأرض ، وفى أى مكان يذهب ، وسبب

تكدره وخضرته فى أيام زيادته وفى أى مكان تذهب زيادته إذا نقص » . فرغ من نسخها سنة ١٠٣٨ هـ مكتبة بلدية الإسكندرية ٧٥٦ د

— كتاب فى ذكر بحر النيل وما يتعلق به ، نسخة كتبت سنة ١١٠٩ هـ مكتبة الأزهر ٢٠٧ الإمبابى ٤٨٨١٥ .

— القول المفيد فى النيل السعيد ، نسخة فى سنة ١٢٦٦ هـ . مكتبة بلدية الإسكندرية : ٤٩٣٩ د .

٤ — البكرى الصديقى (شمس الدين محمد بن الشيخ أبى السرور) ت : ١٠٦٠ هـ — ١٦٥٠ م .

— « الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة » مخطوط مصور من مكتبة عمر طوسون ، وقد فرغ من نسخه فى آخر يوم من ذى الحجة سنة ١٠٥٥هـ بقلم عبد الجواد بن على الإبيارى فى حياة المؤلف .

نسختان فى مكتبة بلدية الإسكندرية : ٤٣٩٤ ب ، ٤٣٩٦ ب .

— « قطف الأزهار من الخطط والآثار » نسخة فى مجلد مخطوطة بقلم معتاد مكتوبة بخط إبراهيم الإبشيهى ، فرغ من كتابتها فى غاية شهر ربيع الآخر سنة ١١٣٤ هـ . دار الكتب بالقاهرة : ٤٥٧ جغرافياً .

٥ — البكرى الصديقى (محمد بن زين العابدين) ١٠٦٠—١١٠٧ هـ

— « شفاء العليل فيما ورد من أخبار النيل » فرغ منها سنة ١١٠٣ هـ ، صور على فيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية عن نسخة مكتبة بلدية سوهاج : فيلم ٥٠٧ (٥٤٣) .

٦ — الجوجرى (شمس الدين محمد) المتوفى سنة ٨٨٧هـ .

— « منظومة الجوجرى » فرغ منها سنة ٨٨٥ هـ ، دار الكتب : ٥٧٠ جغرافيا .

٧ — الحجازى (شهاب الدين أحمد) ت ٨٧٥ هـ .

— « نيل الرائد فى النيل الزائد » نسخة مصورة منقولة عن نسخة تاريخها سنة ١١١٢ هـ ، دار الكتب : بلدان لتيمور ١٨٨ .

وتوجد نسخة أخرى بدار الكتب أيضاً : بلدان تيمور ١٣٠ .

٨ ــ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن الكمال) ت : ٩١١ هـ

ــ «كوكب الروضة» أربعة نسخ :

نسخة كتبت سنة ١٠٠٦ هـ دار الكتب ٢٦٣ جغرافياً .

نسخة كتبت سنة ١٢٧٢ هـ دار الكتب ٢٦٤ جغرافياً .

نسخة كتبت سنة ١٠٠١ هـ مكتبة الأزهر ٣١٤ أباظة ٦٦١٤

نسخة كتبت سنة ١٣٠٥ هـ مكتبة الأزهر ٣٣٦ أباظة ٦٦٣٦

ــ «الكلام على النيل» ، رسالة نسخ سنة ١٠٧٧ هـ دار الكتب بلدان تيمور ١٢٩

ــ «بلبل الروضة» مقامة فى وصف جزيرة الروضة ، نسختان ؛

الأولى نسخ سنة ١١٥٨ هـ ، دار الكتب ٢٠ م تاريخ

ــ الثانية نسخ سنة ١١٧٦هـ ، ضمن مجموعة بمكتبة بلدية الإسكندرية ٣٢٣٠ج .

٩ ــ الشيال (جمال الدين . دكتور) «معجم السفن العربية» .

١٠ ــ الغزالى أو المغربى (محمد) من علماء أوائل القرن الحادى عشر الهجرى

ــ «تحفة الخليل فى أخبار مصر والنيل» نسختان بدون تاريخ .

الأولى ذكر أن مؤلفها «محمد الغزالى» ، مصورة على فيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية رقم ٦١١ تاريخ ــ عن نسخة بمكتبة جامع الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية .

والنسخة الثانية ذكر أن مؤلفها (محمد المغربى) ضمن مجموعة بمكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٧٥٦ د .

١١ ــ قاضى المنزلة (معروف بن أحمد) القرن العاشر الهجرى .

ــ عجائب الأخبار عن مصر الأمصار ، نسخة بدون تاريخ بمكتبة الأزهر ٣٢٠ــ٦٦٢٠ تاريخ .

١٢ ــ قدامة بن جعفر ت : ٣٣٧ هـ

ــ «الخراج وصنعة الكتابة» نسخة مصورة تصوير المطبعة السلفية بمصر . مكتبة بلدية الإسكندرية ٩٤٢٦ ج .

١٣ — المنوفى (أبو العباس أحمد بن محمد) ت ٩٣١ هـ .

— الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، ثلاث نسخ .

الأولى بدون تاريخ بمكتبة البلدية بالإسكندرية ٢٥٩١د

والثانية نسخت سنة ١١٥٤ هـ دار الكتب ٦٦ جغرافيا

والثالثة نسخت ١٢٥٢ هـ دار الكتب ٤٢٩ جغرافيا

١٤ — مؤلف مجهول .

— « رسالة تتضمن التنبؤ عن مقدار زيادة النيل » نسخة كتبت حوالى سنة ١٠٧٤ أو بعدها ضمن مجموعة بمكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١٧٥٧ ب .

١٥ — مؤلف مجهول

— « منبع النيل » رسالة صغيرة ناقصة لم يذكر مؤلفها ، وقيل عن مؤلفها لعله الأقفهسى — مكتبة البلدية بالإسكندرية ضمن المجموعة ١٦٢٧ ب .

حـ — المطبوعات

١ — ابن إياس (محمد بن أحمد)

— « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » . جـ ١ المطبعة الأميرية سنة ١٣١١هـ.

— صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور من سنة ٨٥٧ إلى سنة ٨٧٢ هـ ، نشر الدكتور محمد مصطفى طبع مصر سنة ١٩٥١ .

٢ — ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد)

— « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » جزءان ، مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

٣ — ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

— « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » جـ ١ طبع دار الكتب سنة ١٩٢٩ . جـ ٢ سنة ١٩٣٠ ، جـ ٤ سنة ١٩٣٣

٤ — ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد)

— «رحلة ابن جبير » بغداد سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

٥ — ابن الجيعان (شرف الدين يحيى بن المقر)

— « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » بولاق سنة ١٨٩٨ مع مقدمة بالفرنسية بقلم الدكتور مورتس مدير دار الكتب .

٦ — ابن حوقل (أبو القاسم محمد)

— « كتاب صورة الأرض » ليدن الطبعةالثاز سنة ١٩٣٨ القسم الأول

٧ — ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن أحمد)

— « المسالك والممالك » المجلد السادس من المكتبة الجغرافية ، طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ سنة ١٨٨٩ م .

٨ — ابن خلدون (عبد الرحمن) .

— « تاريخ ابن خلدون » (المقدمة) أى جـ ١ بيروت الطبعة الثانية سنة ١٨٨٦ .

٩ — ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى)

— « كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار » الجزء ان الرابع والخامس ، بولاق سنة ١٣٠٩ هـ.

١٠ — ابن رسته (شهاب الدين أحمد بن عمر)

— « الأعلاق النفسية » المجلد السابع من المكتبة الجغرافية ، طبع ليدن سنة ١٨٩١ م .

١١ — ابن سيرابيون (يحيى) ويعرف بسهراب .

— « عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمور » طبع فيناسينة ١٩٢٩ . مع مقدمة وملاحظات بالإلمانية للمستشرق هانس فون ماثريك .

١٢ — ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) .

— « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » طبع باريس سنة ١٨٩٤. عنى بتصحيحه بولس راويس .

١٣ — ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله)

— فتوح مصر وأخبارها ، طبع ليدن سنة ١٩٢٢ نشر تورى Torrey

١٤ — ابن الفرات (ناصر الدين محمدبن عبد الرحيم)

— تاريخ ابن الفرات ، مطبوعات الجامعة الأمريكية ببيروت — المطبعة الأمريكانية ببيروت سنة ١٩٣٨ . المجلد التاسع الجزء الأول نشر الدكتور

قسطنطين رزيق ، والجزء الثانى نشر الدكتور قسطنطين رزيق ، والدكتورة نجلا عز الدين .

١٥ ـ ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد)

ـ « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » الجزء الأول نشر أحمد زكى مطبعة دار الكتب القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤ م .

١٦ ـ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى)

ـ « مختصر كتاب البلدان » المجلد الخامس من المكتبة الجغرافية ، طبع ليدن سنة ١٣٠٢ هـ سنة ١٨٨٥ م .

١٧ ـ ابن مماتى (أبو المكارم أسعد)

ـ « كتاب قوانين الدواوين » نشر الأستاذ عزيز سوريال عطية ، مطبعة مصر سنة ١٩٤٣ .

١٨ ـ ابن الوردى (سراج الدين أبو حفص عمر)

ـ « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٣٥٨ هـ سنة ١٩٣٩ م . صحح بمعرفة أحمد سعد على .

١٩ ـ أبو صالح الأرمنى (أبو المكارم جرجس بن مسعود)

ـ « تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى » اكسفورد سنة ١٨٩٥ .

٢٠ ـ أبو الصلت (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت)

ـ « الرسالة المصرية » ضمن المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ .

٢١ ـ أبو الفدا (السلطان عماد الدين إسماعيل صاحب حماه)

ـ « تقويم البلدان » طبع باريس سنة ١٨٤٠ . تصحيح رينور البارون ماك كوكين ديسلان .

٢٢ ـ الإدريسى (أبو عبد الله محمد)

ـ صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مختصر من نزهة المشتاق نشر دوزى ودى غوى طبع ليدن سنة ١٨٦٦ .

٢٣ ـ الإسحاقى المنوفى (محمد بن عبد المعطى)

ـ « كتاب أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » طبع مصر سنة ١٣٠٣ هـ .

٢٤ ـ الإصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى)

ـ « مسالك الممالك » المجلد الأول من المكتبة الجغرافية ، طبع ليدن سنة ١٩٢٧.

٢٥ ـ البغدادى (عبد اللطيف بن يوسف)

ـ « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » مطبعة وادى النيل بالقاهرة ، طبعة أولى سنة ١٢٨٦ هـ.

٢٦ ـ البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز)

ـ « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » وهو جزء من كتابة « المسالك والممالك » نشر دى سلان طبع سنة ١٩١١ .

٢٧ ـ البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود)

ـ « فتوح البلدان » نشر الأستاذ رضوان محمد رضوان سنة ١٩٣٢.

٢٨ ـ الجبرتى (عبد الرحمن)

ـ « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ٤ أجزاء القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

٢٩ ـ حِتّى (فيليب) وآخرون .

ـ « تاريخ العرب مطول » ، ٣ أجزاء ، دار الكشاف بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢.

٣٠ ـ حسن (زكى محمد ـ دكتور)

« الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ، القاهرة سنة ١٩٤٥ .

٣١ ـ الحموى (محمد ياسين)

ـ « تاريخ الأسطول العربى » ، دمشق سنة ١٩٤٥ .

٣٢ ـ الحموى (ياقوت)

معجم البلدان ، ٤ أجزاء طبعة ليبزج من سنة ١٨٦٦ـ١٨٦٩

٣٣ ـ الخوارزمى (أبو جعفر محمد بن موسى)

ـ « صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار » طبع فينا سنة ١٩٢٦ م سنة ١٣٤٥ هـ .

٣٤ ـ الدمشقى شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله محمد أبى طالب الأنصارى)

ـ « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » طبع ليبسك (ألمانيا) سنة ١٩٢٣.

٣٥ ــ زيادة (محمد مصطفى ــ دكتور)

ــ « المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى » (القرن التاسع الهجرى) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٩ .

٣٦ ــ سامى (أمين باشا)

ــ « تقويم النيل » المقدمة (المطبعة الأميرية ١٣٣٤ هـ ١٩١٦ م)

٣٧ ــ السخاوى (محمد بن عبد الرحمن)

التبر المسبوك في ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٨٩٦ .

٣٨ ــ السيوطى (عبد الرحمن)

ــ « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » جزءان ، مطبعة الموسوعات ، بالقاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .

٣٩ ــ طوسون (عمر)

ــ « مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » ، طبع سنة ١٩٣١ م

ــ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية ، طبع سنة ١٩٤٢ م .

٤٠ ــ طوقان (قدرى حافظ)

ــ « تراث العرب العلمى في الرياضيات والفلك » ، مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة ١٩٤١ م .

٤١ ــ الطهطاوى (رفاعة رافع)

ــ « أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل » ، الجزء الأول بولاق سنة ١٢٨٥ هـ .

٤٢ ــ العقاد (عباس محمود)

ــ « أثر العرب في الحضارة الأوربية » دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٤٦ .

٤٣ ــ عنان (محمد عبد الله)

ــ « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٩٣١ .

٤٤ ــ الغزولى (علاء الدين على بن عبد الله البهائى)

ــ « مطالع البدور في منازل السرور » جزءان ، طبع مصر سنة ١٢٩٩ هـ

٤٥ ــ الفلكى (محمود باشا)

ــ «رسالة فى المقاييس والمكاييل العملية بالديار المصرية» مطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٢٩٠ هـ .

٤٦ ــ فوزى (حسين ــ دكتور)

ــ حديث السندباد القديم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٤٣ م.

٤٧ ــ قدامة بن جعفر .

ــ «نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ سنة ١٨٨٩ م .

٤٨ ــ القرمانى الدمشقى (أبو العباس أحمد جلبى)

ــ « أخبار الدول وآثار الأول » وهو مختصر تاريخ الجنابى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ . طبع حجر بمدينة بغداد سنة ١٢٨٢ هـ .

٤٩ ــ القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود)

ــ « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » نسخة بدون تاريخ.

٥٠ ــ القلقشندى (أحمد بن على)

ــ « صبح الأعشى » طبع المطبعة الأميرية ، جـ ٣ ، جـ ٤ سنة ١٩١٤ ، جـ ٨ سنة ١٩١٥ .

٥١ ــ الكندى المصرى (أبو عمر محمد بن يوسف)

ــ « كتاب الولاة وكتاب القضاة » مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٨ م .

٥٢ ــ الماوردى (على محمد بن حبيب المصرى البغدادى)

ــ « الأحكام السلطانية » مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٠٩ م .

٥٣ ــ مبارك (على باشا)

ــ « نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر » الطبعة الأولى سنة ١٢٩٧ هـ .

ــ « الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءاً بولاق سنة ١٣٠٦ هـ.

٥٤ ـ المحلى (جلال الدين محمد بن أحمد)

ـ « مقدمة النيل السعيد وشرح أحواله وذكر عجائبه وغرائبه ومن أين يجيء وإلى أين ينتهى » المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨١ هـ .

٥٥ ـ محمد عوض محمد ـ دكتور .

ـ « السودان الشمالى سكانه وقبائله » مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٩٥١ م .

٥٦ ـ مختار (محمد باشا)

ـ رسالة فى تحديد أطوال المقاييس والموازين والمكاييل المستعملة فى مصر بولاق سنة ١٨٩١ م .

٥٧ ـ المسعودى (على بن الحسن بن على)

ـ « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، باريس المطبعة الإمبراطورية .

٥٨ ـ المقدسى المعروف بالبشارى (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد)

ـ « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ليدن الطبعة الثانية سنة ١٩٠٩ م .

٥٩ ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

ـ « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » جزءان طبع بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .

ـ « إغاثة الأمة بكشف الغمة » القاهرة سنة ١٩٤٠ .

ـ « السلوك لمعرفة دول الملوك » القاهرة سنة ١٩٤١ .

٦٠ ـ مؤلف مراكشى مجهول من كتاب القرن السادس الهجرى .

ـ « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، المطبوع ـ ١٠ كلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٥٨ .

٦١ ـ النابلسى الصفدى الشافعى (أبو عثمان)

ـ « تاريخ الفيوم وبلاده » ، بولاق من سنة ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ م .

٦٢ ـ النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)

ـ « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ج ١ طبع دار الكتب سنة ١٩٢٣ ، ج ١٥ طبع دار الكتب سنة ١٩٤٩ .

٦٣ — اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) .

— كتاب البلدان ، طبع ليدن سنة ١٨٩٠ م .

— تاريخ اليعقوبى ، جزءان طبع سنة ١٨٨٣ ليدن .

د — دواوين الشعــــر

١ — ابن الساعاتى (بهاء الدين أبو الحسن على بن رستم)

— « ديوان ابن الساعاتى » ، تحقيق أنيس المقدس ، الجامعة الأمريكية بيروت سنة ١٩٣٨ .

٢ — ابن قلاقس (أبو الفتح نصير الله) .

— « ديوان ابن قلاقس » ، نشر خليل مطران سنة ١٩٠٥ . و

٣ — « ابن نباته المصرى » (جمال الدين)

— « ديوان ابن نباته » ، مصر الطبعة الأولى سنة ١٩٠٥.

٤ — ابن هانئ الأندلسى (أبو القاسم محمد)

— ديوان أبو القاسم محمد بن هانئ « الأزدى الأندلسى » ، بيروت سنة ١٨٨٦ .

٥ — أبو نــواس

— « ديوان أبو نواس » ، ضبط وشرح أحمد عبد المجيد الغزالى القاهرة سنة ١٩٥٣ .

٦ — الأعشى .

— « ديوان الأعشى الكبير » شرح دكتور محمد حسين القاهرة مكتبة الآداب سنة ١٩٥٠ .

٧ — أيدمر المحيوى .

— مختار من ديوان علم الدين أيدمر المحيوى ، نشر دار الكتب سنة ١٩٣١م.

٨ — البارودى (محمود باشا سامى) .

— « ديوان البارودى » جزءان ، ضبطه وصححه الأستاذ على الجارم وآخر مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤٢ .

٩ – البهاء زهير

– « ديوان البهاء زهير » بدون تاريخ.

١٠ – حافظ إبراهيم.

– « ديوان حافظ إبراهيم جزءان » صححه أحمد أمين وآخرون ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٣٩ .

١١ – شوقى (أحمد)

– الشوقيات أربعة أجزاء ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٥٨ .

هـ – الدوريات

١ – بدر (جمال مرسى – دكتور)

– « نهر النيل فى تاريخ الفكر الجغرافى » مقالة فى المجلة عدد أكتوبر سنة ١٩٥٧ :

٢ – حزين (سليمان أحمد – دكتور)

– « البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام » بحث مستخرج من مجلة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية المجلد العشرين سنة ١٩٤٢ .

٣ – حسن (زكى محمد – دكتور) وآخرون .

– « فى مصر الإسلامية » مطبعة المقتطف والمقطم القاهرة سنة ١٩٣٧ .

٤ – رزقانه (إبراهيم أحمد – دكتور)

– « قمة دلتا النيل وتغير موضعها منذ أقدم العصور البشرية حتى الوقت الحاضر » بحث بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد الرابع سنة ١٩٤٨ :

٥ – الشيال (جمال الدين – دكتور)

– « الاحتفال بوفاء النيل فى مصر الإسلامية » الثقافة العدد ١٤٠ ، سبتمبر سنة ١٩٤١ .

– « طريقة مسح الأراضى وتقرير الخراج فى مصر الإسلامية » الثقافة العدد ٩٧ نوفمبر سنة ١٩٤٠ .

– « الروك الناصرى » الثقافة العدد ٩٩ سنة ١٩٤٠

٦ – محمد عوض محمد – دكتور .

– « نهر النيل فى الأدب » مقالة بالمجلة عدد أغسطس سنة ١٩٥٧ .

و — المؤلفات المعربة

١ — آدم متز :

— « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، الجزء الثانى ، تعريب الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده . القاهرة سنة ١٩٤٠

٢ — أرتين (يعقوب باشا)

— « الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية » ترجمة سعيد عمون بولاق سنة ١٣٠٦ هـ .

٣ — بتلر (الفردج)

— « فتح العرب لمصر » تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، مطبعة دار الكتب سنة ١٩٣٣ .

٤ — جيان ، ربان سفينة

— « وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية » ترجمها من الفرنسية إلى العربية ملخصاً يوسف كمال ، القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧ .

٥ — حتى (فيليب خورى)

— « تاريخ العرب » ٣ أجزاء ، نقله إلى العربية الأستاذ محمد مبروك نافع الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ .

٦ — كامل (وهيب — دكتور) نقل إلى العربية :

— هيرودوت فى مصر ، طبع القاهرة سنة ١٩٤٦ .

— ديودور الصقلى فى مصر طبع القاهرة سنة ١٩٤٧

— استرابون فى مصر طبع القاهرة سنة ١٩٥٣

٧ — كلوت بك (الدكتور)

— « لمحة عامة إلى مصر » جزءان ، تعريب محمد مسعود طبع القاهرة بدون تاريخ .

٨ – مسعود (محمد) ترجم إلى العربية .

– « الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض » الصادر بها أمر ساكن الجنان محمد على والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البكباشى سليم قبودان ملخص من المجموعة الرسمية للجمعية الجغرافية سنة ١٨٤٢ .

٩ – ناصر خسرو علوى

–« سفر نامة » ترجمها من الفارسية الدكتور يحيى الخشاب ،القاهرة طبعة أولى سنة ١٩٤٥ .

المراجع الأجنبية

1 — Ball, John, Dr. O.B.E.

Egypt in the Classical Geographers ; Cairo Gov. Press, 1942.

2 — Beazley,

The Dawn of Modernn Geography ; vol. 3 Oxford 1906.

3 — Crawford, O.G.S.

Some Medieval Theories about the Nile ; the Geogr. Journal, vol : 114 (1949).

4 — Ghalib, Kamel Osman,

Le Mikyas ou Nilolmetre de l'Ile de Roda ; Memoire de l'Institut d'Egypte Tome LIV, Le Caire 1951.

5 — Herrmann, Paul ;

Conquest by Man ; New York 1954.

6 — Humphreys, Noel, Dr. ;

Ruwenzori ; Flights and Further Explorations, The Geogr. Journal, vol. 82 (1933).

7 — Johnston, Harry Sir ;

A History of the Colonization of Africa by Alien races. The Nile Quest. London 1903.

8 — Kamal, Youssouf ;

Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.Tome 3 — 1932.

9 — Kirwan, L.P.,

Notes on the Topography of the Christian Nubian Kingdoms ; The Journal of Egyptian Archaeology, vol. 21 Part I. Sep. 1935.

10 — Kramers, J.H. ;

Art. « AL NIL », E.I.

11 — Lane Poole, Stanley ;

The Story of Cairo ; London 1906.

12 — Macmichael, H.A. ;

A History of the Arabs in the Sudan, vol : 1 Cambridge 1922.

13 — Minorsky M.V. ;

Geographes et Voyageurs Musulmans.

Extrait du Bulletin de la Societe Royale de Geographie d'Egypte, T. XXIV octobre 1951.

14 — Popper, William ;

The Cairo Nilometer, Studies in Ibn Taghri Birdis, Chronicles of Egypt.

15 — Tousson, Omar ;

Memoire sur l'histoiré du Nil. 3 Tomes, L'Institut d'Egypte Le Caire 1925.

16 — Trimingham, J. Spencer ;

Islam in the Sudan. Oxford Univ. Press 1949.

المحتوى

صفحة

صفحة

الباب الثانى — ٧١

جغرافية النيل فى المؤلفات العربية

صفحة

صفحة

الباب الخامس

المخطوطات ٢١٣

المراجع

بيان الخرائط

صفحة

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومى

المكتبة العربية

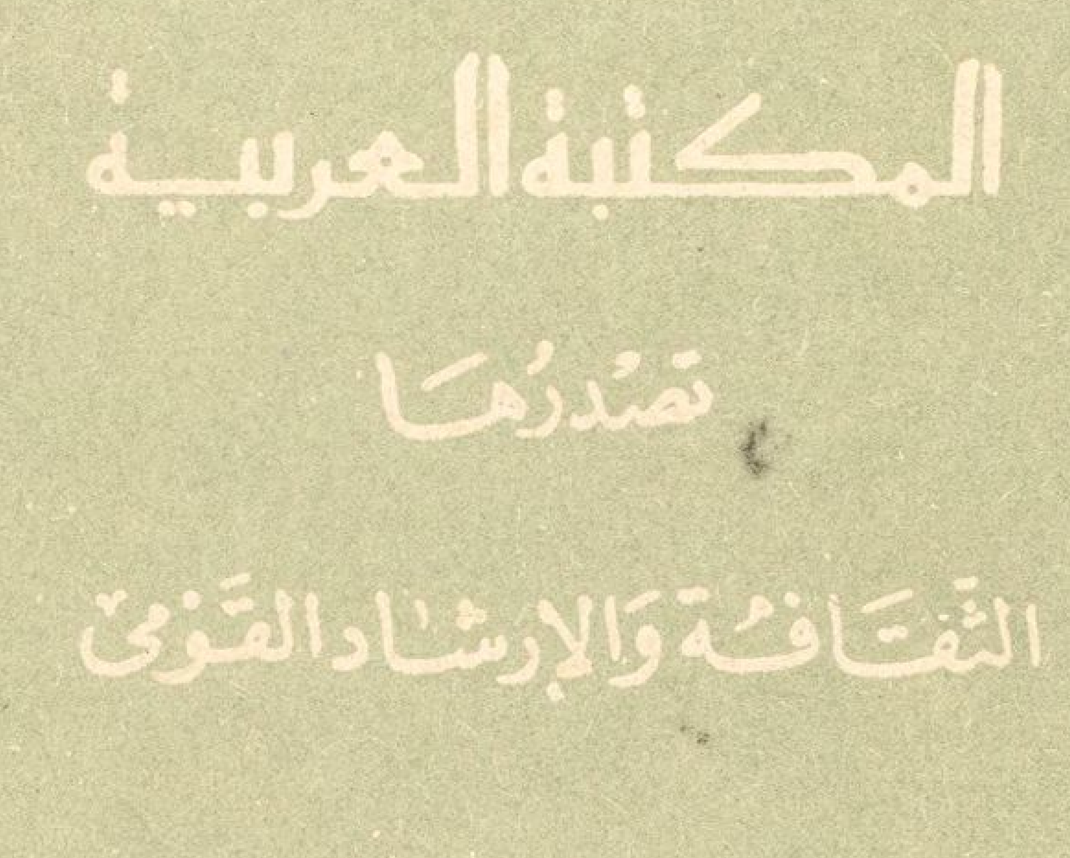
— ٤٤ —

التأليف (٢٩)

التاريخ [٢]

القاهرة

١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م



المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والإرشاد القومي

يوزعها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر

"الدار القومية للطباعة والنشر – الدار المصرية للتأليف والترجمة"



الثمن ٣٠ مـ